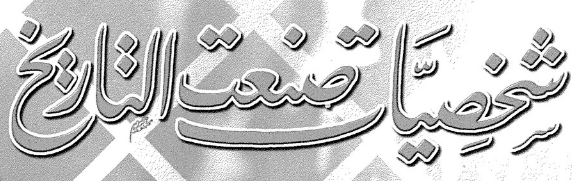


في البطولة والفداء والنهضة الفكرية

الدكتور إسماعيل ابراهيم

عالم الكتب

شخصيات صنعت التاريخ

في البطولة والفداء والنهضة الفكرية

شخصيات صنعت التاريخ

فى البطولة والفداء والنهضة الفكرية

الدكتور إسماعيل إبراهيم

الناشر



٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

عالم الكتب

نشر . توزيع . طباعة

❖ الإدارة :
16 شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : 3924626
فاكس : 002023939027

❖ المكتبة :
38 شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون : 3926401 - 3959534
ص . ب 66 محمد فريد
الرمز البريدى : 11518

❖ الطبعة الأولى
1424هـ - 2003 م

❖ رقم الإيداع 5348 / 2003

❖ الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 232 – 348 – 6

❖ الموقع عل الإنترنت : WWW.alamalkotob.com
❖ البريد الإلكترونى : info@alamalkotob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾[١]

صدق الله العظيم

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

إهـــداء

إلى أبنائى احمد ومحمد وحسام وابنتى ميرنا، وأبناء وبنات هذا الجيل.. هذه لمحات وقبسات من حياة جيل الرواد أرجو أن تتعلموا منهم البطولة والفداء وعشق مصر.

د. اسماعيل ابراهيم



مقدمة

البشرُ فى حركة التاريخ مثلهم مثل الأيام والسنين، فكما أن يومًا واحدًا، ودقائق من ساعات هذا اليوم، قد يفوق تأثيرها على العالم، ما تحدثه مئات السنين، فبعض البشر يُولد ويموت دون أن يُحدث أثرًا، أو يأتى له التاريخ بذكر، تمرُ أعوامه مرّ السحاب، يسقط من بين سطور كتاب الخلود، فكم من الناس عبروا هذه الحياة ولم يخلفوا فيها أثرًا.

بينما البعض الآخر تُفَتَّح لهم أبواب التاريخ على مصراعيها، يدخلون إلى صفحاته بخطى واثقة واسعة، يلهث المؤرخون وراء إنجازاتهم العملاقة، يسجلونها بحروف من نور ونار. فالتاريخ لا يصنعه إلا العظماء، الذين يسطرون صفحات المجد والفخار بالدم والجهد والعرق.

وتاريخ أمتنا العربية غنى بأمثال هؤلاء العظماء من الرجال والنساء، الذين قدموا الكثير لشعوبهم، وأناروا للأجيال دروب الحرية والكرامة.

من بين هؤلاء من أثبت شجاعة فى زمن الحرب، ومنهم من أثبت شهامته ونخوته عند حاجة الناس إليه، ومنهم من اكتفى بالتمسك بأخلاقه فى زمن الشدة، ومنهم من جمع تلك الصفات معًا.

والبحث عن هذه الشخصيات التى صنعت التاريخ كالغوص فى أعماق البحار والمحيطات والخلجان بحثًا عن اللؤلؤ النادر الثمين. والتنقيب عن المعادن الثمينة من الذهب والألماس. يحتاج إلى غواص ماهر.

فتشتُ فى كتاب المجد، قلبتُ صفحات التاريخ. غصتُ بين سطور العظمة، وخرجتُ بكوكبة من الشخصيات التى نسجت خيوط الأحداث فى تاريخنا العربى.

بطولة وفداء

من هؤلاء رجال كتبوا بشجاعتهم صفحات خالدة فى سجل الجهاد والكفاح، عرّضوا حياتهم للخطر، دفاعًا عن الأرض والوطن، رفعوا راية الحرية فى وجه الحاكم المستبد، مطالبين بعودة الحقوق إلى أصحابها.

من هؤلاء ضابط فلاح من إحدى قرى محافظة الشرقية، استطاع باجتهاده وعلمه ووطنيته، أن يكون زعيمًا للثائرين من الضباط المصريين، الذين تمردوا على ظلم واستبداد الخديوى توفيق، هو أحمد عرابى صاحب العبارة الخالدة التى سجلها التاريخ «لقد خلقنا الله أحرارًا، ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا».

ومن الذين نذروا حياتهم للدفاع عن أوطانهم مصطفى كامل، الذى ترك فى مصر والمنطقة آثارًا من إخلاصه ووطنيته، ويكفيه شرفًا أن نسمع مقوله «لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة» فنقول: إنه مصطفى كامل.

وخليفته «محمد فريد» الذى تحملَ المسئولية بعده كزعيم للحزب الوطنى، الذى كان يقود حركة الجهاد. وظل يناضلُ من أجل استقلال مصر فى الداخل والخارج حتى مات غريبًا، وهو يهتف باسم مصر.

ومن بعدهما يأتى سعد زغلول الذى وهب نفسه لقضايا الوطن، وكافح أعوامًا طوالاً لتكون «مصر للمصريين»، وعندما نفاه الانجليز اندلعت ثورة ١٩١٩م.

وفى كتاب الخلود يأتى اسم «عز الدين القسام» قائد أول ثورة مسلحة ضد البريطانيين واليهود فى فلسطين، وصاحب أول تنظيم جهادى يخوض الحرب دفاعًا عن عروبة فلسطين. ورغم استشهاده عام ١٩٣٥، ما يزال اسمه يثير الرعب والفزع داخل إسرائيل.

ويحظى المجاهد الليبى عمر المختار بحظ وافر من صفحات النضال والكفاح وبذل الروح والنفس محاربًا غطرسة الإيطاليين، الذين أرادوا طمس الهوية الليبية وتحويل ليبيا إلى مستعمرة تابعة لهم، رفع راية الجهاد طوال ٢١ عامًا، خاض خلالها أكثر من ١٠٠٠ معركة.

ومن الذين تركوا بصمات واضحة فى صفحات الجهاد من أجل العروبة والإسلام، أبو الثائرين «عزيز على المصرى» الذى شارك بحماسة فى تحرير بقاع غالية من الوطن العربى، ونذر كل ساعة من أيامه من أجل مكافحة المستعمرين، وهو الأب الروحى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

وفى سماء المقاومة والجهاد، سطع ولمع نجم المجاهد عبد القادر الجزائرى الذى حارب الفرنسيين بعد إن بويع حاكما وعمره (٢٥) عامًا؛ وحكم (١٥) سنة بالشورى وسداد الرأى، وجمع أخلاق المتصوف المثقف مع العسكرى المغوار ورجل الدولة.

ومنهم ايضا قائد ثورة يوليو اللواء محمد نجيب، ذلك الرجل الذى تقدم الصفوف وهو يُدرك أن فشل الثورة يمكن أن يؤدى به إلى حبل المشنقة، ورغم ذلك أكلته الثورة وأسدلت على تاريخه ستار من النسيان.

نهضة فكرية

وإذا كانت عظمة الرجال تقاس بقدر ما أحدثوا من تحولات فى ظروف وتاريخ مجتمعاتهم، فهذا ما فعله رائد عصر التنوير الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» الذى حرك مياه الفكر المصرى والعربى الراكدة، وأخرجها من أسر التقليد والتسجيل إلى رحابة الحركة والتحديث والتفكير فى الغد.

ويعتبر «جمال الدين الأسد أبادى الأفغانى» من أعلام النهضة الفكرية الحديثة، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، اجتمع له من الصفات العقلية، والعلمية والأخلاقية النادرة، والزهد فى الدنيا، والقوة فى طلب الحق لكل مظلوم، فردًا كان أم جماعة أم دولة، ما جعله محط الأنظار شرقا وغربًا.

ويأتى بعده إمام الأمة «الشيخ محمد عبده» العالم العَلَم والوطنى الفقيه، الذى قال عنه الأفغانى.. كفى بمحمد عبده لمصر عالمًا فكان بحق رائدا عظيمًا للإصلاح الدينى والاجتماعى، الذى أنار الطريق أمام دعاة الإصلاح للسير قدماً نحو استعادة المجد الضائع للحضارة الإسلامية.

وكان «طلعت حرب» الذى وُلِدَ فى القرن التاسع عشر. يفكر بعقلية القرون المقبلة ويعمل وفق معطيات الغد، فى سبيل استقلال اقتصاد بلاده مصر، وكان رجل اقتصاد من الطراز الأول، ورجل فكر وثقافة أيضا.

ومن بين العظماء، يأتى «قاسم أمين» شمعة تنوير المرأة، الذى طالب الحكومات سن تشريعات تكفل حقوق النساء، ومشاركتهن الفعلية فى أمور الوطن، وفى مقدمتها السياسية.

وينضم إلى هؤلاء الذين صنعوا نهضة مصر الفكرية، رجل تحمل كثيرًا، ورحل وحيداً، هو الدكتور جمال حمدان، عاشق مصر ومكتشف شخصيتها من الجغرافيا، الذى أحبطته المؤامرات والوساطات فانصرف إلى ابحاثه. وفيه تتجسد عبقرية مصر أفضل وأكمل تجسيد، فقد كانت حياته ومؤلفاته، وكل أبحاثه ودراساته، وحتى وفاته المأساوية حدوته مصرية، كتبتها جغرافية وتاريخ هذا الوطن الذى عشقه جمال حمدان وكرس حياته لتخليده.

طلقات فكر أنثوية

وتظل طلقات الفكر أقوى وأكثر تأثيرًا من طلقات الرصاص وقذائف المدافع. وفى ساحة المعارك الفكرية، كان للمرأة المصرية والعربية صولات وجولات، أطلقت خلالها رصاصات فكر مستنير، بددت ستائر الجهل التى حاولت حرمانها من حقوقها.

تُعَدُ منيرة ثابت، واحدة من الرائدات الأوليات فى المناداة بحقوق المرأة السياسية، وكانت أول رئيسة تحرير مصرية لجريدتين فى وقت واحد.

ومثلها كانت د. درية شفيق «بنت النيل» الثائرة التى كانت سنة ١٩٥٤ واحدة

من أهم عشر سيدات فى العالم، والتى كانت حياتها رحلة كفاح من أجل حقوق المرأة، من خلال مجلات «بنت النيل»، «المرأة الجديدة» و «الكتكوت» وهى الوحيدة التى قالت «لا» لجمال عبد الناصر فى عنفوان قوته.

منهن أيضا «روزاليوسف» تلك المرأة التى تحدت كل عوامل الضعف، وكانت خليطًا من الصفات الانسانية المتشابكة، ملامحها الرقيقة كانت تخفى خلفها إرادة فولاذية، لم تدخل مدرسة ولكنها صارت أميرة الصحافة المصرية.

وكانت «مارى إلياس زيادة» الشهيرة باسم: الآنسة مَىّ، حالة مميزة فى مطلع القرن العشرين، فهى لم تكن حالة عاطفية فقط، بل حالة ثقافية واجتماعية، وحالة علاقة فريدة مع النفس ومع الغير.

وإذا كان الزعيم الوطنى المصرى سعد زغلول، من أولئك الرجال أصحاب الشخصية النافذة إلى الآخرين، فقد كانت صفية زغلول مثالاً للمقولة الشهيرة «وراء كل رجل عظيم امرأة».

وتثبت حياة «سميرة موسى» أن المؤامرة على العقل العربى جاءت قبل أن تصبح إسرائيل حقيقة واقعة، فقد كانت «سميرة موسى» الشهيدة الأولى فى جرائم اغتيال العقول العربية، فقد اكتشفت القدرة الحرارية لبعض الغازات قبل استخدام الأمريكان القنابل الذرية، ودفعت حياتها ثمنا لرفضها الجنسية الأمريكية.

مع تلك الكوكبة من الرجال والنساء الذين صنعوا التاريخ وعنهم تأتى صفحات هذا الكتاب، التى لا تهدف إلى مجرد التسلية وعرض قصة حياتهم، وإنما تهدف إلى إبراز عوامل التحدى وإلقاء الضوء على الجهد والفكر اللذين صاغتهما هذه الشخصيات، وما قدمته من أجل أن تنعم الأجيال التالية بالحرية والاستقلال، والحياة فى وطن آمن. ينعم بالفكر الحر والرأى المستنير، والبسمة الوقورة التى تبعد الهموم عن المحزونين، والنغم الثائر الذى يجعل حب الوطن أغنية يرددها الجميع.

د. إسماعيل إبراهيم

بطولة وجهـــاد

● أحمد عرابى .. (البطل حين توجه السهام)

● مصطفى كامل.. (طارد اليأس من الحياة)

● محمد فريد.. (الشهيد الشريد)

● سعد زغلول.. (إرادة قارعت الاستعمار)

● عز الدين القسام.. (وجع فى قلب إسرائيل)

● عزيز على المصرى.. (أبو الثوار)

● عمر المختار.. (شيخ الشهداء)

● عبد القادر الجزائرى.. (المجاهد والفقيه الشاعر)

● محمد نجيب.. (الزعيم الذى أكلته الثورة)



أحمد عرابى

البطل.. حين توجه السهام

- قاوم الإنجليز وحارب الاستعلاء التركى.
- الشيوخ الثلاثة: الخديوى منحاز للعدو ومارق عن الدين.
- أمر توفيق بعزل عرابى ورفضت قراره فتوى شرعية
- أغرب المحاكمات: المحكمة والشهود مصريون والدفاع انجليزى

جميل أن يظن الناس الجمال فى إنسان، لكن الأجمل أن يكون ذلك الإنسان جميلاً حقًا، ويكتنز داخله النبل والنقاء اللذان لا تفنيهما محاولات التشويه.

فى حياة الأمم والشعوب، رجال كتبوا بشجاعتهم، صفحات خالدة فى سجل الجهاد والكفاح، عرّضوا حياتهم للخطر دفاعًا عن الأرض والوطن، رفعوا راية الحرية فى وجه الحاكم المستبد، مطالبين بعودة الحقوق إلى أصحابها. وبدلاً من أن ينالوا التكريم، ويعترف الناس بفضلهم، تعرضوا لحملات التشويه والتجريح، والافتراء.

من هؤلاء، ضابط فلاح من إحدى قرى محافظة الشرقية، استطاع باجتهاده وعلمه ووطنيته، أن يكون زعيمًا للثائرين من الضباط المصريين، الذين تمردوا على ظلم واستبداد الخديوى توفيق، الذى اسند المناصب القيادية فى الجيش المصرى إلى الضباط الشراكسة.

وقف أحمد عُرابى، فى ميدان عابدين فى القاهرة، ببسالة وشجاعة الجندى الذى لا يهاب الموت، ليقول للخديوى العبارة التى سجلها له التاريخ: «لقد خلقنا الله أحرارًا، ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا، فوالله الذى لا إله إلا هو، سوف لا نُورث ولا نُستعبد بعد اليوم».

نشأة عُرابى

وُلد أحمد عرابى فى ٣١ مارس (آذار) ١٨٤١ فى قرية «هرية رزنة» التابعة لمحافظة الشرقية.

نشأ عرابى فى بيئة صميمة فى قلب الريف ومن أُسرة متوسطة. والده هو محمد عرابى، من سلالة الحسين بن على بن أبى طالب، ووالدته فاطمة بنت

سليمان. كان والده شيخًا على «هرية رزنة» وعالمًا أقام فى الجامع الأزهر عشرين عامًا. تلقى خلالها: العلم والفقه والحديث والتفسير، وكان والده متزوجًا من ثلاث نساء، وأحمد عرابى هو الابن الثانى بين أربعة ذكور، وست إناث.

بدأ عرابى تعليمه فى سن الخامسة فى القرية. وختم القرآن الكريم خلال ثلاث سنوات. وتوفى والده فتكفله أخوه الأكبر «محمد عرابى». وعلّمه مبادئ الحساب والخط. والتحق عرابى بالأزهر عام ١٨٤٩ وقضى عامين ثم عاد إلى بلده، حيث ترك والدة ٤٧ فدانًا خص عرابى فيها بثمانية أفدنه ونصف الفدان.

حياته العسكرية

ظل أحمد عرابى فى بلدته، حتى أمر الخديوى سعيد (باشا)، قائد الجيش، بتجنيد أولاد عمد «البلاد» ومشايخها. وكان سعيد باشا يفضل المصريين على الأتراك والشراكسة. ودخل أحمد عرابى الجيش سنة ١٨٥٤ وانتظم فى سلك «الأورطة السعيدية» فى «قناطر فحم البحر». وعين برتبة وكيل «بلوك أمين»، من أول يوم لانتظامه فى سلك العسكرية. بعد ذلك عُقد امتحان بحضور إبراهيم بيك «الأميرالاى»، وحسن أفندى «حكيم ألاى» فتقدم له عرابى، ثم رُقّى إلى رتبة بلوك أمين فى العام ذاته. وعلم عرابى أن رتبة «بلوك أمين» تعنى أن يبقى جامدًا ولا يرتقى إلا إلى رتبة الصول، فطلب من «الأميرالاى» وضعه فى رتبة «جاويش»، ولم يتردد فى ذكر السبب للأميرالاى، وحُقق له ما أراد، ومكث فى رتبة الجاويش عامين. وكانت الترقيات فى تلك الفترة تتم عن طريق الامتحانات، التى كان يجتازها عرابى ببراعة، وساعده على ذلك دراسته فى الأزهر. ورُقىّ عرابى من رتبة «باش جاويش» إلى رتبة ملازم ثان ثم إلى ملازم أول، ثم «يوزباشى» ثم «صاغ قول أغاسى»، ثم «بكباشى»، ثم إلى رتبة قائمقام (عقيد). وهى الرتبة التى لم يصل إليها أحد من المصريين قبله. وقد نال هذه الرتبة معه عثمان رفقى، الذى أصبح لاحقًا «ناظر الجهادية».

وذكر عرابى أنه حصل على تلك الرتب فى مدة ستة أعوام إلا عشرين يومًا،

منذ دخوله الخدمة، نظراً لتفوقه، واجتيازه امتحانات الترقيات، وأعلن سعيد باشا سنة ١٨٦٢، أن الحكومة مدينة بمبلغ ٦ ملايين جنيه مصرى، وهو ما يعادل إيراد الحكومة فى ذاك الوقت سنة كاملة. وكان ذاك المبلغ ثمن أسلحة ومهمات حربية وملابس وذخائر عسكرية، موصى عليها فى معامل أوروبا، وأمر بفصل جميع «الآلايات» وأبقى «أورطة» واحدة، وأمر بإيداع الضباط فى المحافظات والمديريات حسب رغبتهم، مقابل صرف نصف المرتب فى مدة إيداعهم ثم مات سعيد باشا بالسرطان، بعد أن أعاد الضباط إلى وظائفهم.

التمييز ضد المصريين

تولى إسماعيل «الخديوية» وأمر بإنشاء ٦ «آلايات بيادة». وكان عرابى برتبة «قائمقام» فى «الآلاى السادس»، وكان خسرو باشا «أميرالاى» «الآلاى الثانى»، ثم رقّى إلى رتبة لواء باشا. وكان خسرو متعصبًا ضد العرب، ووجد عندما أصبح قائدًا «قومندان» على «الآلاى»، مدى عروبة ووطنية عرابى، فسعى إلى فصلة من «الآلاى»، حتى يمكن له ترقية أحد أبناء المماليك «مصطفى افندى سليم بك»، الذى كان يُلقّب «الحجازى». وصار يترقب الفرص للإيقاع بعرابى، حتى استطاع فصله.

وتظلّم عرابى إلى الخديوى سنة ١٨٦٧، فأمر بعودته إلى صفوف الجيش. وعندما تولى توفيق «الخديوية»، أنعم على

بلاغة

قابل عرابى رئيس النظّار ليعرض عليه المطالب الشعبية، فأجابه قائلا: «ليس فى البلاد مَن هو أهل لمجلس النواب».

فقال عرابى: «عجبًا. إنك مصرى وباقى النظار مصريون، والخديوى أيضًا مصرى. أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقمت؟ ففيها العلماء والنبهاء والفضلاء والبلغاء. وعلى فرض أنه ليس فيها مَن يليق، كما ظننت، أفلا يمكن إنشاء مجلس يستمد معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية، وبعد خمسة أعوام يتخرج فيها رجال يحترمون الوطن بصائب فكرهم ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية.

فانبهر رئيس النظّار وقال: سننظر فى طلباتكم هذه..

عرابى برتبة أميرلاى، بعد أن مكث تسعة عشر عامًا برتبة «قائمقام»، فتوجه إلى رأس التين وقدم شكره وامتنانه للخديوى. وانضم عرابى بعد ذلك إلى «ياوران» الخديوى. وعندما تولى عثمان رفقى باشا، الشركسى، نظارة «الجهادية»، أمر بمنع ترقية المصريين من العساكر العاملين فى الآلايات، وقام بحركة تعيينات وتنقّلات لتعزيز قوته وإضعاف الضباط المصريين.

بداية الثورة

وفى ١٥ يناير ١٨٨١م اجتمع عدد من الضباط فى منزل أحمد عرابى، منهم عبد العال حلمى، وعلى فهمى والفى أفندى يوسف، وأحمد عبد الغفار، واتفقوا على أن يتحدث أحمد عرابى باسمهم، وأقسموا على فداء الوطن بأرواحهم، وكتبوا عريضة إلى رئيس النظار «رئيس الوزراء» يشكون ناظر الجهادية عثمان رفقى، لانحيازه لبنى جنسه وإجحافه فى حقوق الوطنيين. وطالبوا بعزل «ناظر الجهادية» وتأليف مجلس نواب، وزيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندى، وتعديل القوانين العسكرية وإلغاء السُّخرة، ووقّع العريضة أحمد عرابى، وعلى فهمى، وعبد العال حلمى، وقدموها إلى رياض باشا، رئيس النظار.

وعُقِدَ فى ٣١ يناير ١٨٨١م فى قصر عابدين، اجتماع رأسه الخديوى توفيق، وتقرر إيقاف ومحاكمة أمراء الآلايات الذين وقعوا العريضة، وحاول عثمان رفقى «ناظر الجهادية»، أن يخدعهم فأرسل إليهم فى المساء ذاته يدعوهم للحضور صباح اليوم التالى، أول فبراير ١٨٨١، للاحتفال بزفاف جميلة هانم، شقيقة الخديوى، وذلك فى مبانى قصر النيل التى بُنى مكانها الآن «فندق النيل هيلتون» ومبنى الجامعة العربية. وأدرك الضباط أن هذا فخ، فطلبوا من القوات الموالية لهم، إذا تأخروا داخل قصر النيل أكثر من ساعتين، اقتحام المعسكر وإطلاق

سراحهم، وبعد أن دخلوا مر عليهم خسرو باشا كبير الشراكسة، وتوقف أمام عرابى وزميليه، وقال ساخراً: «ايه زميللى هرف مر»، وتعنى بالعربية «فلاحين شغالين بالمقاطف». وأدركوا أنهم وقعوا فى الفخ، وتحركت القوات الموالية لهم، وأخرجتهم من الاعتقال . وتحركت هذه القوات، وعلى رأسها عرابى، إلى قصر عابدين وطالبت بعزل عثمان رفقى، ووافق الخديوى وعين محمود سامى بدلاً منه وتحدد بذلك، طريق عرابى والجيش وطريق الخديوى أيضًا.

يوم عابدين

أصبح أحمد عرابى والخديوى توفيق كعدوين. لا يأمن أحدهما الآخر، وحدد أحمد عرابى موعد التحرك الساعة الرابعة عصر يوم الجمعة التاسع من سبتمبر ١٨٨١م. وتوافدت قوات الجيش على ميدان عابدين بقيادة عرابى، وأحمد عبد الغفار وعلى فهمى، وأحمد صادق، وفودة حسن وعبد العال حلمى، وإسماعيل صبرى، وإبراهيم فوزى. وازدحم الميدان بجماهير الوطنيين والأجانب. ونزل الخديوى توفيق إلى الميدان وطلب أحمد عرابى الذى توجه إليه، وسيفه فى يده، وخلفه ثلاثون ضابطًا، ودار هذا الحوار:

الخديوى: ما أسباب حضورك بالجيش إلى هنا؟

ـ عرابى: جئنا يامولاى نعرض عليك طلبات الجيش والأمة، وكلها طلبات عادلة.

الخديوى: وما هذه الطلبات؟

ـ عرابى: إسقاط الوزارة المستبدة، وتأليف مجلس نواب على النسق الأوروبى، وأن يكون الجيش على العدد المعين فى الفرمانات، والتصديق على القوانين العسكرية.

الخديوى: كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.

ـ عرابى: لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثًا أوعقاراً. فوالله الذى لا إله إلا هو، سوف لا نُورث ولا نُستعبد بعد اليوم.

وعاد الخديوى توفيق إلى «قصر عابدين»، لكن المطالب أجيبت وأسقطت الوزارة. وصدر يوم الرابع من أكتوبر ١٨٨١م أمر الخديوى بانتخاب مجلس النواب، وتم افتتاح المجلس يوم ٢٦ ديسمبر ١٨٨١م. وأقال الخديوى وزارة رياض، وتأكدت زعامة عرابى للأمة.

حرب باردة

بعد يوم عابدين دخلت الأطراف المختلفة، أحمد عرابى، والخديو توفيق، الإنجليز، والقوى الموالية لعُرابى، والقوى المعادية له، مرحلة من «الحرب الباردة» يحشد كل طرف فيها قواته، ويهيئ نفسه للمعركة الفاصلة المكشوفة. وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢م، تقدمت إنجلترا وفرنسا بإنذار لنظارة محمود سامى البارودى، وأرسلت نسخة من الإنذار للخديوى توفيق، تطالب باستقالة الوزارة، وخروج أحمد عرابى من «القُطر»، وتحديد إقامة عبد العال حلمى وعلى فهمى فى الريف، وتخفيض عدد الجيش. وبادر توفيق إلى قبول الإنذار، واجتمع مجلس النظّار فى منزل محمود سامى البارودى، ورفض الإنذار رفضًا تامًا. وقدم النظار يوم ٢٦ مايو استقالاتهم، احتجاجًا على الإنذار، وقَبِلَ الخديوى الاستقالات، وأرسل ضباط الآلايات فى الإسكندرية برقية إلى الخديوى توفيق، يتمسكون فيها بعُرابى ناظرًا للجهادية، وقالوا إنه إذا مضت ١٢ ساعة، ولم يعد عرابى إلى منصبه كناظر للجهادية فإنهم غير مسئولين عمّا يحدث. ووقعت البلاد فى اضطراب.

«وصف مصر»

سطر أحمد عرابى مذكراته، وكتب عن رحلته فى منفاه، معبرًا عن أحاسيسه ومشاعره، واصفًا ما رآه فى سفره، وفى حلّه وترحاله، بأسلوب أدبى جميل. وكتب يصف ساعة الرحيل من السويس: «قامت بنا الباخرة تشق عباب البحر، قاصدة جزيرة سيلان. وبعد قيامها ولّينا وجوهنا شطر مصر ننظر إلى جمالها وحُسن منظرها، ونودعها بقولنا: «ياكنانة الله صبرًا على الأذى، حتى يأتى الله لك بالنصر»، ولا نزال ننظر إلى جوها وجبالها حتى توارت عن أعيننا.

وحضر إلى العاصمة عدد كبير من أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة. وقدموا العرائض لعُرابى، يطالبونه برفض الإنذار أو عزل الخديوى. واستُدعى عرابى فى ليلة السبت ٢٧ مايو ١٨٨٢م، إلى منزل «محمد سلطان»، الموالى للخديوى والمعادى لعرابى.

وذهب عرابى، وعلى فهمى، وعبد العال حلمى، ومحمد عبيد، وكان المنزل غاصًا بأعضاء مجلس النواب، واتفقوا على أن يطلبوا من الخديوى رفض الإنذار الثانى، ورجوع أحمد عرابى، إلى نظارة الجهادية، أو عزل الخديوى، إن لم يتم ذلك.

واستمر التوتر، حتى قدم الأدميرال سيمور، قائد الأسطول الانجليزى، يوم العاشر من يوليو (تموز) سنة ١٨٨٢ إنذارًا إلى طُلبة باشا «قومندان» الإسكندرية، قال فيه: إنه سيضرب المدينة عند شروق شمس اليوم التالى.

الثلاثاء الحزين

وانطلقت القذائف الانجليزية من البحر صباح الثلاثاء، الحادى عشر من يوليو ١٨٨٢م، تدك قلاع الإسكندرية ومبانيها. وذكر الشيخ محمد عبده أن نحو مائة وخمسين ألفًا من السكان وقعوا فريسة الموت والفزع، وانطلقوا إلى شط المحمودية وإلى دمنهور، ومن دمنهور إلى القاهرة. وكان هدف الإنجليز احتلال البلاد، وهدف الخديوى توفيق، القضاء على أحمد عرابى وحركته، واستمر قصف الإسكندرية منذ أن أطلقت البارجة «ألكسندرا»، مدافعها فى الساعة السابعة والدقيقة الرابعة من صباح ذلك اليوم. حتى اليوم التالى، واندلعت الحرائق فى كل الأوجاء وكان أحمد عرابى فى «طابية كوم الدكة»، وسط المدينة، يقاوم ويصدر أوامره بالمقاومة. وكانت خطة الإنجليز والخديوى أن يقطعا الطريق على عرابى، ويأسراه فى الإسكندرية.

وقرر أحمد عرابى وأركان حربه أن يذهبوا إلى «كفر الدوار» ليقطعوا الطريق

على قوات الإنجليز ومنعها من احتلال البلاد. وكان حقد الإنجليز والخديوى قد بلغ مداه، وأرادا دفن عرابى والموالين له فى الإسكندرية، وتشويه سمعتهم فى مصر والخارج. وفوجئ الجميع بزعم سليمان سامى داود، قائد «الآلاى السادس»، أنه أمر بحرق الإسكندرية بتعليمات من أحمد عرابى. وكان الهدف هو الإجهاز على سمعة عرابى. ولم يقدم دليلاً واحدًا يثبت أن عرابى هو الذى كلفه بحرق الإسكندرية، وكانت الدلائل تشير إلى أن توفيق هو الذى أمر سليمان بذلك، وأن الأجانب وآخرين من الموالين لتوفيق قاموا بإشعال نيران الحريق. وتكشفت الحقائق بعد الاحتلال بعام، حين وقف اللورد تشرشل فى مجلس العموم سنة ١٨٨٣م ليقول إنه قد تم شنق سليمان، قبل أن يبوح بأسرار خطيرة، تدين الخديوى توفيق فى مسألة حرق الإسكندرية.

المقاومة والانتصار

كانت خُطة عرابى، بعد ضرب الإسكندرية وإحراقها، تسير فى اتجاهين: الأول التصدى لقوات الاحتلال الزاحفة، والثانى كشف خيانة الخديوى توفيق أمام الأمة. وأرسل عرابى يوم ١٦ يوليو ١٨٨٢م، بعد ضرب الإسكندرية وإحراقها بأربعة أيام، خطابًا إلى يعقوب سامى باشا، وكيل وزارة الحربية، وهو من أنصار حركة عرابى، يعلن فيه خيانة الخديوى توفيق البلاد، ويدعوه إلى عقد المجلس العرفى للنظر فى الأحوال. وفى اليوم نفسه اجتمع يعقوب سامى، بعدد من وكلاء النظارات وكبار الموظفين والضباط، وحضور نحو ٤٠٠ شخص، وقرروا ضرورة حضور الخديوى توفيق إلى القاهرة، وتشكيل لجنة برئاسة على مبارك، لإبلاغ هذا القرار للخديوى، وكان رد الخديوى يوم ٢٢ (يوليو) عزل عرابى من «نظارة الجهادية». وكان عرابى بين جنوده فى كفر الدوار، ولم يعبأ بقرار الخديوى، وطلب من يعقوب سامى عقد اجتماع آخر للمجلس العرفى، فى ضوء رفض الخديوى قرار الاجتماع الأول. وعُقِدَ الاجتماع الجديد وحضره

نحو ٥٠٠ شخص، وعُرضت فيه فتوى شرعية من الشيخ حسن العدوى، والشيخ محمد عليش، والشيخ محمد الخلفاوى. تقول: إن الخديوى توفيق بانحيازه إلى العدو، يُعد مارقًا عن الدين. ورفض الاجتماع قرار توفيق بعزل عرابى.

وأصدر الأدميرال سيمور. منشوراً باسم الخديوى يحث الناس على الهدوء. وصدر بيان يوم ١٧ يوليو يشير إلى أن تجهيزات الحرب، هى مسئولية عرابى، وأن الخديوى غير مسئول عن تصرفاته، وانحاز الخديوى توفيق إلى العدو علنًا، بينما كانت مصر مع عرابى. وثبت عرابى والجيش المصرى خمسة أسابيع كاملة فى كفر الدوّار، يصدُّون كل هجمات الانجليز. ولم تتمكن قوات الاحتلال من دخول أبى قير، ثم هزم المصريون الإنجليز فى موقعه عزبة خورشيد، وأجبروهم فى كفر الدوار، على الارتداد إلى الإسكندرية، بعد معارك استمرت ٤ أيام. ولم يبقَ أمام الإنجليز والخديوى سوى الخديعة والخيانة، التى تعرّض لها عرابى فى موقعة التل الكبير، التي انتهت بالهزيمة والمحاكمة.

محاكمة ظالمة

كانت محاكمة عرابى من أكبر المحاكمات غرابة فى تاريخ القضاء المصرى. وحُوكم سنة ١٨٨٢م أمام المحكمة الخديوية المصرية، المكونة آنذاك، من رؤوف باشا وإبراهيم الفريق باشا، وإسماعيل كامل باشا. وكان الذين شهدوا ضد عرابى سلطان بك وأحمد السيوفى وسعيد السماحى. وكان من الغريب أن يكون أعضاء هيئة المحاكمة وشهود الإثبات من المصريين. وأن الذين وقفوا للدفاع عن عرابى كانوا من الإنجليز. وكانت تهمته هى أنه دافع عن مصر ضد الاحتلال البريطانى، مخالفا بذلك، تعليمات وأوامر الخديوى توفيق.

وجاء أيضا فى الاتهام أن عرابى «رفض مقابلة الخديوى، وذهب إلى كفر الدوار مصطحبًا معه العساكر مخالفًا كل الأوامر، وأمر بإخلاء الإسكندرية من

غير أن يصدر له الأمر بذلك، وأوقف حركة السكة الحديد، وقطع جميع المخابرات التلغرافية عن سمو الخديوى، ومنع عودة المهاجرين لوطنهم الإسكندرية، واستمر على التجهيزات الحربية، وهو ما أوجب عزله من نظارة الجهادية».

وزعم الشاهد سلطان بك، رئيس مجلس النواب، أن عرابى هدد النواب، «وانتهى به التهور إلى المناداة بخلع سمو الخديوى، وثار النواب معه والعساكر وقالوا: «الخديوى مخلوع».

وافترى عليه «حضرة الشيخ البحراوى»، وقال إن عرابى أثناء خطبته «نسب إلى سمو الخديوى، الكفر والخروج على دين الإسلام (والعياذ بالله)»، وتم فى نهاية التحقيقات، تجريد عرابى من سيفه وأُدخِلَ السجن هو ومن معه.

فى المنفى

نُفى عرابى يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٨٢م، إلى جزيرة سيلان (سريلانكا) على ظهر الباخرة مريوط، وقضى فى منفاه ١٩ عامًا. وعاش عرابى فى منفاه مذمومًا عند قومه، وعندما جاء وهو شيخ اشتعل رأسه شيبا، لم يحترم أحد له شيئًا من حسن نيته، ولم يحفظ له شيئًا من تاريخه الطيب، بل أُتُّهم ضميره بالخيانة، ولا يعلم الضمائر إلاّ الله. كان ذلك بسبب خطابات العفو التى كتبها عرابى وزملاؤه إلى ملكة إنجلترا، التى كانت تحتوى على معاناة ومذلة هؤلاء الثوار. وفور عودته أخذ فى

نصيحة عرابى لليابان

زار أحمد عرابى فى جزيرة سيلان، المستعرب اليابانى، ساريجى نسومورا، المهتم بالشؤون المصرية. ودار بينهما حوار، سجله المستعرب اليابانى فى كتاب صدر باللغة اليابانية سنة ١٨٨٧م بعنوان: «حوار مع عرابى باشا».

وختم المؤلف كتابه بكلمة من الزعيم أحمد عرابى بعنوان «إلى الدولة الفتية اليابان»، ينصحها فيها بضرورة التعامل بحذر مع القوى الغربية، الطامعة فى ثروات الشعوب الآسيوية والإفريقية.

مدح الإنجليز فقـال: «فإنـى لم أجد من الذين قاتلتهم وحاربتهم غير معاملة الكرام، الذين يستحق معروفهم الشكر». وكان لهذه التصريحات أثر كبير فى نفـوس الناس. وكانت مصـر فى تلك الفتـرة. تغلى سـخطًا على الاسـتعمار وسياسته. ووجد البعض العُذر لعرابى، الذى ذاق آلام الغربة، وفقد كل أملاكه وأموالـه، وتخلّى النـاس عنـه، «وهـو الـذى أراد الدفـاع عن مصالـح الوطـن والمواطنين».

بين المدح والقدح

كان لمدح عرابى للانجليز، بعد عودته من المنفى، أثر كبير فى نفوس الشعب المصرى، واستقبلته الصحف بين مدح وقدح. وفى حوار له مع محرر جريدة «المقطّم» فور وصوله، مدح عرابى الإنجليز، وقال إنه يتمنى السفر إلى إنجلترا، فها جمتـه الصحـف وعـلى رأسها جريدة «اللواء» برئاسة مصطفى كامل، لعزمه على زيارة ملك بريطانيا. كما هاجمه لهروبـه فـى معركـة التـل الكبير. وذكر أن عرابى «ليس بالجندى الذى عُرف بالبسالة، والإقدام فى ميدان القتال». كما انتقده فى اعتماده على حماية فرديناند دى ليسيبس قناة السويس، وعدم إغلاقها. وردّت بعض الصحف ومنها «المقطم»، على هذه الحملة، قائلة إن عرابى لم يكن يقصد تلك النتيجة، وإن مقصده ومقصد الأمة، هو الاستقلال عن التدخل الأجنبى. وكان من الذين نقدوا عرابى أيضًا الشيخ محمد عبده، وأمير الشعراء أحمد شوقى، الذى كتب قصيدة يذمّ فيها عرابى.

وأخطأ عرابى فـى مـدح وإطراء الإنجليز، فأسـدل سـتارًا ممزقًا عـلى مسـرحية وطنية خالدة. ويقول منتقدوه: إنه كان من المفروض أن يمتنع عن الخوض فى الأحاديث السياسية، كما فعل محمود سامى البارودى، وطُلبة باشا، فلم تتعرض لهما الجرائد بالنقد، بل امتدحت موقفيهما جريدة «اللواء»، أشدّ الجرائد هجومًا على عرابى. واستمر عرابي فى محاولاته لرد ممتلكاته لكنها باءت بالفشل، إلى أن وافته المنية فى ١١ سبتمبر سنة ١٩١١م، وأعلنت وفاته وكالة «رويتر».



مصطفى كامل

طاردُ اليأس من الحياة

- ٢٤عاماً من الإنجازات
- ضرب مثالاً فى الإخلاص فانقاد له الصغار والكبار.
- لم يتزوج وكانت حياته جهاداً لا يتوقف.
- رفض عزل الخديوى عن الشعب وقاطعه بعدما انحاز للإنجليز.
- التقى عبد الله النديم للتعرف إلى أسباب فشل ثورة عرابى.
- أحرار فى بلدنا كرماء لضيوفنا ،وليرحل الاحتلال عنا.

كم من الناس عبروا هذه الحياة ولم يخلفوا فيها أثراً؟

مليارات عدة.. لكن مصطفى كامل رحل بعد أن ترك فى مصر والمنطقة أثرا من إخلاصه ووطنيته. ويكفيه شرفًا أن نسمع مقولة: «لاحياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة» فنقول:

«إنه مصطفى كامل».

الوطنية فى أسمى معانيها، وحب الوطن فى أعلى مراتبه، والتضحية والفداء فى قمة درجاتيهما، وإنكار الذات وذوبها فى عشق الهدف والغاية الاسمى، كلمات لا تفى بحقوق هذا المناضل، الذى أذكى روح الوطنية وأشعل نيران الكراهية فى قلوب المصريين تجاه المحتل الإنجليزى، وهو الذى وهب حياته ووجوده وعقله ولسانه، ولبه وجنانه لبلده مصر، فلا حياة إلا بها.

يوم وفاته عمَّ الحزن القطر المصرى من أقصاه إلى أقصاه، وانتحب المشرقان، وتجاوبت أصداء الحزن على رحيله فى ربوع العالم الإسلامى، وسُمع دويّه فى أوروبا والشرق الأقصى بما لم يُسمع بمثله فى وادى النيل.

الإخلاص للمبدأ

كان مصطفى كامل عفيف النفس نزيه الخُلُق، صادق اللهجة، عالى الهمة لا يهمه من أحوال الحياة غير التفكير فى الغاية، التى أوقف حياته عليها وهى خدمة بلده بأقوم السبل وأنفعها. وكان يعتقد أن الاستقلال أول خطوة يجب السير فيها، ويعنى بالاستقلال خروج الإنجليز من مصر.

واستجمع قواه فى هذا السبيل فسافر وكتب وخطب وجادل وناقش لهذا

الغرض. وكان يري أن مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الإسلام على العموم، فكان شديد الدفاع عنه كثير السعى فى نصرته.

كان مصطفى كامل مخلصًا لمبادئه إخلاصًا تامًا، منذ أن كان تلميذًا لا يسمع صوته إلا رفاقه، حتى صار خطيب المحافل ومتكلم القوم وزعيم الحزب الوطنى وصاحب الألوية الثلاثة.

ويدل على إخلاصه لمبادئه، انقطاعه لهذه الدعوة وتفانيه فى سبيلها. حتى شغلته عن سائر مطالب الحياة وملاّذ الشباب، فلم يتزوج ولم يجلس للهو، ولم يخض مع الخائضين. ولم يسعده غير الحديث عن الوطن، أو الاستقلال، أو الجلاء.

وأجمع الذين عاشروه، من رفقائه وأصدقائه، على حبه واعتقاد الإخلاص فيه، فضلاً عن الآخرين، مما لا يتأتى لغير المخلصين، ثبت أصحاب مصطفى كامل فى ولائه حيًا وميتًا وهم يتفانون فى سبيل نصرته، وفيهم جماعة من نخبة العقلاء والفضلاء، ومعظمهم أكبر منه سنًا، وأوفر مالاً، وأعرض جاهًا، وبعضهم أغزر منه علمًا، وقد نصروه بعقولهم وأموالهم وقلوبهم، ولم يستنكفوا من تصدره فى مجالسهم، ولا داخلهم الحسد من رئاسته عليهم.

كان متوسط القامة، قمحى اللون، سريع الحركة، جريئًا مقدامًا، فصيح اللهجة، قوى العارضة، شديد الثقة بنفسه، واسع الآمال، طموحًا للعلا، مستقل الفكر، صريح القول، يغلب فيه الذكاء وحدة الذهن وسرعة الخاطر.

وكان إذا نهض لأمر اقتحمه اقتحامًا، وجاهد فى سبيله بيده ولسانه وجنانه، ولا يعجزه السفر، ولا يبالى بالتعب، فقضى زهرة شبابه مقاتلاً من أجل قضية بلاده، ينتقل من قارة إلى قارة، ومن عاصمة إلى عاصمة، لا يتحول عن منبر عربى حتى يعلو منبرًا أجنبيًا.

طفل متميز

ولد مصطفى كامل يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤م فى منزل متواضع فى حى الخليفة، فى القاهرة، وكان أصغر أولاد المهندس على أفندى محمد، الذى عمل فى بناء الجسور، واشتهر بين معارفه بالطيبة وحُسن الخلق. وكتب القدر لهذا الوليد تاريخًا مجيدًا، فمنذ شب عن الطوق لا هم له، ولا أمل ينشده إلا أن يرى فى مصر حركة وطنية تستهدف تحقيق الجلاء عن مصر، وإقامة حكم دستورى صحيح فيها.

ظهرت عليه علامات القيادة منذ السنوات الأولى من حياته، فبدت المواهب التى لا غنى عنها لزعيم وقائد لحركة مقاومة وتحرير. وعرفت المنابر والصحف الكبرى، وفى مقدمتها «الأهرام» و «المؤيد» مصطفى كامل الخطيب والكاتب، وكأنه رجل تمرس على فنون الكلام المقروء منها والمنطوق، واستطاع أن يجسد الحجج باتساق أخاذ ويسوق العبارات، لتصغى إليه الأسماع والأفئدة معًا، وهو لايزال تلميذًا فى المدرسة الثانوية أو طالبًا فى مدرسة الحقوق، لذلك كان من السهل عليه أن يُصدر، وهو تلميذ فى مدرسة الحقوق، مجلة المدرسة وهى مجلة وطنية أدبية تهذيبية اتخذ لها شعارًا وطنيًا. ولم تكن الدراسة إلا سبيلاً للجهاد من أجل مصر، التى أحبها وملكت عليه مشاعره فنظم فيها قصائده من الشعر المنثور الذى تغنت به الأجيال التالية. التى تحولت إلى طليعة حركة وطنية واقعة أحاطت بالاحتلال البريطانى وضيقت عليه الخناق، وأثارت الكراهية عليه وله واستنفرت العزائم وجموع الشعب المسالمة على الثورة ضد البطش والطغيان للإجهاز على الاحتلال. فخرج الخطباء والكتاب معلنين عدم استسلامهم، وشملت مصر كلها حركة من النهوض واليقظة. فتوالت المشروعات القومية تظهر أفكارًا تحقق فى الحياة المصرية صروحًا وأعمالاً، فكان مشروع الجامعة ومشروع المصرف القومى، ومشروع التعاون وأندية المدارس العليا، وجمعية الهلال الأحمر ونقابات العمال ومدارس الشعب الليلية، ومضى مصطفى كامل فى جولات طويلة خارج مصر فى عدد كثير من الدول، يخطب ويكتب ويعقد

الصداقات ويخطب ود الزعماء ويطرق باب الوزراء، ويُدلى بالأحاديث حتى أصبح علمًا فى محافل أوروبا وآسيا.

طالب غير عادى

كان والد مصطفى كامل شديد الحرص على تعليم أولاده، حيث عهد بابنه «مصطفى كامل» وهو ابن الخامسة، إلى فقيه يعلمه مبادئ القراءة والكتابة ويحفّظه القرآن، حتى التحق عام ١٨٨٠م بمدرسة «أم عباس» الابتدائية فى الصليبة، ثم مدرسة السيدة زينب، وكان متفوقًا فى دراسة التاريخ والرياضيات. ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية، وظل يتابع الدراسة فيها بتوفيق وامتياز حتى حصل على شهادة إتمامها سنة ١٨٩١، وأنشأ جمعيات وطنية وأدبية أثناء وجوده فى المدرسة الثانوية، وكتب فى صحيفة «المؤيد»، وكان يتردد، وهو تلميذ، على مكتب ناظر المعارف «على باشا مبارك» يجادله ويناقشه فتوقع له مستقبلاً باهرًا، والتحق سنة ١٨٩١م بمدرسة الحقوق، ثم التحق سنة ١٨٩٢م بمدرسة الحقوق الفرنسية، وظل جامعًا بين الدراسة فى المدرستين، ليتمكن من اللغة الفرنسية، واتصل بأعضاء مجلس شورى القوانين وهو فى مدرسة الحقوق وأنشأ مجلة «المدرسة». وبدأ مصطفى كامل جهاده الوطنى بعد تسع سنوات من إخماد الثورة العرابية، أفلح الاحتلال خلالها فى أن يسيطر على مقادير البلاد سيطرة تامة وكاملة، فأشاع فيها روح اليأس والاستسلام. ورغم ذلك لم يفقد الشعب إيمانه بالثورة وإن خبت جذورها قليلاً، فالروح الوطنية لم تمت ولم تكن الثورة العرابية إلا بداية تتلوها مراحل تعود فيها البلاد إلى يقظة أكثر نضجًا وأكثر تطورًا ووعيًا. فما كان يُعقل بعد ثورة عرابى أن تموت الحركة الوطنية، وتنطفئ شعلتها، وإنما تخبو لتشتعل من جديد على أيدى أبناء الوطن. وهذا ما أدركه مصطفى كامل بوعى وفكر مثقف، فأدرك أسباب إخفاق الثورة العرابية وهزيمتها ليتجنبها فى جهاده، فكان لقاؤه سنة ١٨٩٢م مع عبد الله النديم، الذى عرف منه كل أحداث الثورة العرابية وحوادثها.

دعوة الجهاد

أتم مصطفى كامل دراسة الحقوق فى كلية «تولوز» الفرنسية فى نوفمبر ١٨٩٤م ونشرت صحيفة الكلية موضوعًا عن تفوقه، وقالت إنه أعد نفسه للدفاع عن مصر أمام الرأى العام الأوروبى. . وفى ديسمبر سنة ١٨٩٤ عاد إلى مصر مزودًا بعلم وثقافة جديدة، ودرس مجموعة من الكتب المهمة القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم، وبدأ نشاطه الجهادى بالاتصال بمعارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته، يحثهم على الدعوة لمقاومة الاحتلال، كما تعرف على كثير من الشخصيات البارزة من الكُتَّاب والأدباء وأعضاء مجلس شورى القوانين وكذلك الأعيان.

وبدأ جهاده الفعلى بالاحتجاج على اللورد كرومر، الذى أنشأ المحكمة المخصوصة لمحاكمة الأهالى الذين يعتدون على ضباط وجنود القوات البريطانية ورأس المحكمة وزير «الحقانية» المصرى وضمت فى عضويتها المستشار القضائى الإنجليزى وقاضيًا إنجليزيًا وممثلين عن جيش الاحتلال، أى أنها كانت محكمة إنجليزية جعلوا رئاستها لوزير الحقانية المصرى للتضليل والإيهام وكان مفهوم مصطفى كامل للوطنية آنذاك مفهومًا فكريًا صرفًا، واتسمت الحركة الوطنية التى قادها بطابع القومية العاطفية، فى البداية، لطوائف المثقفين التى تذكيها مشاعره وحماسته ومواهبه الشخصية، ثم شرع فى جهاده يعتمد على قوة الرأى العام ويعمل على تربية الشعب التربية الوطنية الصحيحة الواعية. واستفاد مصطفى كامل من خبرات أسلافه المجاهدين، إذ علم أن اصطدام أنصار أحمد عرابى بالخديوى توفيق إبان الثورة العرابية مكن دسائس الإنجليز من أن توقع الفرقة والانقسام فى مصر، فنأى بنفسه عن هذه السياسة، وسلك بالحركة الوطنية الطريق التى قادها إلى سبيل التفاهم مع الخديوى عباس الثانى.

جهاد فى الخارج والداخل

سافر فى مايو سنة ١٨٩٥م إلى فرنسا للدعوة للقضية المصرية ومهاجمة

الاحتلال البريطانى، فكتب فى الصحف عشرات المقالات، وألقى الكثير من الخطب فى المحافل العامة، ثم قصد النمسا ليواصل الهجوم هناك على الاحتلال ومسانديه، ثم عاد إلى باريس مرة أخرى ونشر رسالته المشهورة التى ضمنها عبارته الخالدة «أحرار فى بلدنا كرماء لضيوفنا». وفى هذه الأثناء تعرف على إحدى سيدات المجتمع الفرنسى، وهى مدام جولييت آدم، التى تعد معرفته بها حدثا مهمًا فى حياته السياسية، لأنها من أبرز من ناصروه فى الخارج فى دعوته لقضية بلاده، وأصبح صالونها ومكانتها فى المجتمع الفرنسى منبرًا أصيلاً وداعمًا قويًا فى نجاح دعايته. وتوجه سنة ١٨٩٦م بدعوته إلى بريطانيا، حيث راسل زعماء الأحزاب، خاصة زعيم حزب الأحرار، الذى أيده بضرورة جلاء الاحتلال عن مصر، ونقم الإنجليز فى مصر على مصطفى كامل فنكلوا بشقيقه «على بك كامل» الضابط فى الجيش المصرى فى السودان وأساءوا معاملته، حتى أقدم على الاستقالة، لكنهم رفضوها ثم أحالوه إلى الاستيداع وقدموه لمحاكمة ظالمة نزلت به من رتبة «ضابط» إلى رتبة نفر «جندى» واستعان مصطفى كامل بالخديوى، الذى استقبله وعفا عن أخيه، وكانت علاقة الخديوى بمصطفى كامل فى بادئ الأمر قوية، لشعور الخديوى بمنافسة الإنجليز له فى حكم البلاد، وكان الخديوى يتقرب فى مقاومته نفوذهم، من الحركة الوطنية. ومن هنا استند مصطفى كامل فى أول ظهوره إلى مؤازرته، وكان هدف هذه الخطة من جانب الزعيم الشاب تجنب أخطاء زعماء الثورة العرابية فى التفرقة بين الأمة والخديوى، الأمر الذى حاول مصطفى كامل أن يتحاشاه كمبدأ أساسى لبعث الحركة الوطنية. إلا أن الأمر تبدل فيما بعد بسنوات، بعد أن زاد بطش الاحتلال الإنجليزى، فبدأ الخديوى يتودد إلى الاحتلال وقد ضعف أمله فى الجلاء، وقد ظهر انحياز الخديوى بشكل واضح إلى الإنجليز، بعد أن تم الاتفاق الودى بينهم وبين فرنسا عام ١٩٠٤ مما اضطر مصطفى كامل إلى تغيير موقفه وقطع علاقته بالخديوى.

صاحب الألوية الثلاثة

توجه مصطفى كامل عام ١٨٩٧م بدعوته لحركة الجهاد الوطنى إلى ألمانيا والعديد من الدول الأوروبية. وزادت الحركة الوطنية اشتعالاً عام ١٨٩٩ حينما ألزمت بريطانيا الحكومة المصرية قبول اتفاقية السودان، التى خولت للانجليز حق الاشتراك فى إدارة شئون الحكم فيه، وأنشأ سنة ١٩٠٠م جريدة «اللواء» فقرأها الناس فى مصر، ثم فى العواصم العربية، حتى وصلت إلى الهند والصين، فأصبحت منبرًا لكل حركة تحرير فى العالم، الذى سمى لاحقًا «العالم الثالث»، ومالبث أن أصدر إلى جوار جريدة اللواء اليومية، المنشورة بالعربية، جريدتين يوميتين أخريين، هما اللواء الإنجليزية، ثم اللواء الفرنسية، وأصدر مجلتين إحداهما شهرية والأخرى أسبوعية. وأصبحت إحداهما وقفًا على أبناء العالم الإسلامى وحركاته. وكانت هذه المؤسسة الصحافية العجيبة هى الأولى والأخيرة من نوعها، فلم يعرف تاريخ الحركات الوطنية فى مصر أو فى الوطن العربى أو فى العالم الإسلامى، صحافيًا يصدر كل هذا الكم من الدوريات والصحف فى دار خاصة بها مزودة بأحدث آلات الطباعة فى ذلك الوقت.

ونال عام ١٩٠٤م رتبة الباشوية قبل أن تسوء علاقته بالخديوى وألف فى العام ذاته كتابًا عن اليابان، التى صمدت فى حربها ضد روسيا وقاومتها بفضل روحها الوطنية. وأراد بذلك، أن يضرب المثل لشعب مصر. وجمع خطبه، والرسائل التى تبادلها مع الساسة العالميين وترجمها إلى الفرنسية وطبعها فى كتاب ووزعه فى معظم دول العالم دفاعًا عن مصر.

مأساة دنشواى

وقعت يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦م حادثة «دنشواى»، التى شنق الإنجليز بسببها بعض أهالى قرية دنشواى وسجنوا آخرين. وكان مصطفى كامل فى أوروبا، ووصل إليه النبأ، فكتب فى الصحف الأجنبية مقالاً وجهه إلى الأمة الإنجليزية. وكان للمقال دوى عظيم فى ربوع أوروبا وفى إنجلترا لبلاغته وعباراته

المؤثرة. ما جعل صحيفة «تريبيون» الإنجليزية تقترح منح مصر حكومة مستقلة. وزُلزلَ من بعد ذلك، مركز اللورد، كرومر، العتيد فى مصر. وفى ١٤ يوليو سنة ١٩٠٦م سافر إلى إنجلترا ليرفع صوت مصر فى العاصمة الإنجليزية، والتقى السياسيين وحملة الأقلام، واتصلت به الجاليات الشرقية والإسلامية. وأفلحت جهوده فى حمل اللورد كرومر على تقديم استقالته. ولما جاء خلفه «سير إلدون جورست» أوصى حكومته بالإفراج عن المحكوم عليهم فى دنشواى.

وأرسل يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ خطابًا إلى رئيس وزراء بريطانيا، يحتج على استمرار الاحتلال الإنجليزى وتناقلته الصحف العالمية، وعلقت عليه مؤيدة وجهة نظر مصر.

وفى إطار نظرته إلى الاحتلال، باعتباره أكبر خطر يعوق تقدم الأمة، عمد مصطفى كامل إلى الحفاظ على الوحدة الوطنية والقومية، عن طريق الدعوة إلى إنهاض الفلاح وإعلاء مكانته، لأنه يمثل النشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم.

وعمد فى الوقت ذاته، إلى الحفاظ على الوحدة الوطنية أيضا عن طريق وحدة المسلمين والأقباط. وقال فى خطبته فى الإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧م: «كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو إلى الشقاق والبغضاء بين المسلمين والمسيحيين، وهذه الدعوة مناهضة للوطنية الصحيحة؟ فالأقباط إخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق».

وكان مصطفى كامل أول من أشرك الأقباط فى الحركة الوطنية، فقد اصطفى

من أقواله

* «لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة».

* «بلادى بلادى، لك حبى وفؤادى، لك حياتى ووجودى، لك دمى ونفسى، لك عقلى ولسانى، لك لبى وجنانى، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر».

* «لو لم أكن مصريا.. لوددت أن أكون مصريًا».

إليه ويصا واصف ومرقص حنا، وكان ويصا واصف عضوًا منتخبًا فى اللجنة الإدارية الأولى للحزب الوطنى.

ولهذا لم يكن غريبًا أن تتعلق به قلوب المصريين، وتعشقه عشقا لا مثيل له، فلما شكل الحزب الوطنى انتخبوه رئيسًا له طول حياته، ولكنه رحمه الله كان قصير الحياة فتوفى فى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره.

ولكن هذه السنوات الثلاث عشرة. التى جاهد فيها مصطفى كامل من (١٨٩٥ - ١٩٠٨) هى فى الواقع حياة طويلة. لأنها حياة جليلة بنشاطها. وبأعمالها، جليلة بإيمانها وسعيها. لقد عمل لوطنه فى عشر سنوات ما لم يعمله غيره فى عشرات السنين. بل ما لم تعمله أجيال بأسرها. لذلك كان جزاء وفاقًا أن تحزن مصر هذا الحزن الكبير على زعيم الوطنية العظيم مصطفى كامل.

مؤلف وأديب

كان مصطفى كامل علمًا من أعلام البيان، لولا انشغاله بقضية بلاده، لأصبح له شأن كبير فى عالم البيان والتأليف رغم جهاده وكتاباته فى الصحف وخطبه فى مصر وخارجها، إلا أنه ألّف رواية: «فتح الأندلس» التمثيلية، وكتابًا فى حياة الأمم والرق عند الرومان، وألّف كتاب المسألة الشرقية، وكتابًا عن اليابان، وغيرها. وكلها كانت ترمى إلى تحبيب الاستقلال إلى المصريين، وإحياء الشعور الوطنى فيهم.



محمد فريد

الشهيد الشريد

- نذر نفسه لمصر.. ومات خارجها.
- مات فى برلين وظل جثمانه بلا دفن ٧ شهور.
- قارع الإنجليز والخديوى وسجن لمقدمة «ديوان شعر».
- دعا للتعليم المجانى وشجع النقابات المهنية.

التاريخ لا يصنعه إلا الرجال العظام، الذين يسطرون صفحات المجد والفخار، بالدم والجهد والعرق والتضحيات الكبيرة، وتاريخ أمتنا العربية غنى بأمثال هؤلاء الرجال الذين قدموا الكثير لأمتهم. . وأناروا للأجيال دروب الحرية والكرامة، من هولاء المناضل المصرى محمد فريد الذى حمل راية الجهاد ضد الاحتلال الإنجليزى بعد وفاة الزعيم الشاب «مصطفى كامل».

وهب «محمد فريد» حياته وعمره كله لوطنه مصر، وكان خير سند لرفيق كفاحه مصطفى كامل، وعندما تحمل المسئولية بعده كزعيم للحزب الوطنى الذى كان يقود حركة الجهاد أثبت أنه من صُناع التاريخ والمناضلين الكبار الذين تهون عندهم الحياة مادامت من أجل الحرية والاستقلال، وظل فريد يناضل ويعمل من أجل استقلال مصر فى المحافل الدولية متنقلاً بين مصر وبلدان أوروبا، حتى مات غريبًا وهو يهتف باسم مصر.

لم يكن محمد فريد مجرد زعيم، بل أحد أهم رموز الجهاد الوطنى فى تاريخ مصر الحديث، وامتدت آثار فعاليات جهاده إلى أوروبا، فقد توزع نضاله السياسى داخل مصر وخارجها فى ارتباط وتناسق. وأبرز ما يميز نضاله أنه لم يكن نضالاً مكملاً لما بدأه سلفه الزعيم مصطفى كامل، إذ سلك مسلكًا جديدًا فأكسب الحركة الوطنية من طابع شخصيته الصلبة وثقافته الواسعة العريضة ووعيه البالغ، بواقع الأحداث فى مصر وتطور الأوضاع العالمية المحيطة. فقد كانت الحركة الوطنية الجهادية المصرية، حتى وفاة مصطفى كامل، تتسم بمحاولة إيقاظ الأمة ودفعها إلى مناهضة الاحتلال وبث روح الوطنية فى النفوس. وكانت مثل هذه الدعاوى حتمية وضرورية بالنسبة إلى الجيل الذى جاء فى أعقاب الغزو الإنجليزى للبلاد وانطفاء جذوة الثورة «العرابية».

فقد وضع لأول مرة برنامجًا لسياسة قومية تُحرك جميع القوى السياسية فى البلاد، على أساس بحث المشكلات الداخلية والخارجية وإشراك المفكرين والكتاب والساسة لتوسيع آفاق الساحة الوطنية، فاحتضن، ومعه صفوة المثقفين فى البلاد، دعوة لإنشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال والفقراء مجانًا. وتم بتشجيع منه تأسيس نقابات العمال والصناع. وكانت أول نقابة للعمال فى مصر هى «نقابة عمال الصنائع اليدوية فى بولاق» وكانت تضم ٨٠٠ عضو وظهرت بعدها الحركة التعاونية.

ترصد وزارة الوفاق

لكن الرجعية ومن ورائها الاحتلال لم تكن بغافلة عن مثل هذه الوثبة الناضجة. وجاءت «وزارة الوفاق» آنذاك لتحاول كسب المعتدلين إلى جانب «الخديوى عباس» وعزل الحركة الوطنية عن الشعب، فأعيد العمل بقانون المطبوعات، الصادر إبّان ثورة أحمد عرابى لتقييد حرية الصحافة، وتوالت المحاكمات وتتابع تعطيل الصحف وبدأ الخناق يضيق على الحركة الوطنية المتفتحة، فتطورت حركة المقاومة تجاه السلطة المطلقة، التى يتمتع بها الخديوى وأصبحت المطالبة والحاجة إلى الدستور والحرية، التى حُرمت منها الأمة هى السبيل لمحاربة الاحتلال، وتوفى الزعيم الوطنى مصطفى كامل فى ١٠ فبراير عام ١٩٠٨م، وانتخب محمد فريد وكيل الحزب الوطنى، رئيسًا للحزب. وقد رأى «فريد» أن يكمل مسيرة مؤسس ورئيس الحزب، وندد فى بلاد الدنيا بما يفعله الإنجليز فى مصر. وكان قد اتفق مع الشيخ عبد العزيز جاويش، على رئاسة تحرير جريدة «اللواء»، ولم يضيع يومًا فى إظهار عدائه للاحتلال البريطانى. فكان أول عمل قام به هو إرسال برقية احتجاج إلى «إدوارد غراى» وزير خارجية إنجلترا، قال فيها «الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيسًا بدل المرحوم مصطفى كامل باشا، وكلفتنى بأن أُجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلا حق، وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تفى إنجلترا بعهودها».

أحرار فى بلاد حرة

ووقف محمد فريد يخطب يوم ١٤ سبتمبر ١٩٠٨م، بمناسبة ذكرى الاحتلال فقال: «إن الأمم تحتفل بحريتها واستقلالها، فمتى نحتفل نحن بالجلاء، ونصبح أحرارًا فى بلاد حرة؟». وقال أيضا: «اذكروا يوم ١٤ سبتمبر ولا تنسوه أبدًا.. اذكروه كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا.. اذكروه قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم».

وكانت مطالبته بالجلاء تسبق مناداته بالدستور، لدرجة أنه لم يتردد يوم رأى الخديوى بعد رحيل كرومر، يسعى إلى محالفة المحتلين ويقلع عن تعضيد الحركة الوطنية فى أن يعاديه علنًا ويندفع ليكتب بشجاعة وثبات، عدة مقالات فى اللواء تحمل على الخديوى حملة عنيفة.. «مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله، أن تصريحات الجناب العالى لا تقيدنا بأى حال، إنّ كل مصرى لا يقبل مطلقًا أن يكون حكم مصر ومصيرها، فى يد الخديوى بمفرده، أو فى يد المعتمد البريطانى».

ثم ما لبث أن طالب الخديوى بإلغاء القانون الخاص بتأليف محكمة خاصة لمحاكمة من يتهم بالتعدى على جنود الاحتلال، وهى المحكمة التى لعبت دورًا شاذًا وغريبًا فى واقعة «دنشواى»، واعتزم فريد السفر وذهب لمقابلة الخديوى عباس قبل السفر وأعلنه بما يعتزم فعله، وأنه سيكمل مشوارًا بدأه مصطفى كامل حتى لا يُقال إن الحركة ماتت بموته، وأنه سيعلن للعالم أن الحركة الوطنية قوية ولا تقوم بقيام شخص ولا تموت أو تسقط بموته، وقد وافقه الخديوى على مضض وبدأت بذور الخلاف تنمو منذ هذا اللقاء بعدما حذر فريد الخديوى من محاولات إبطال فعاليات مساعيه وإفشالها، بإرسال من يسعى ويعرقل مسيرته، كما حدث من قبل عندما أرسل الخديوى حافظ عوض وأباظة باشا والشيخ على يوسف خلف فريد لمعاكسته، لكن الخديوى وعده بألاّ تتكرر مثل هذه المحاولات وأنه غير مسئول عنها. لكن مخاوف الخديوى زادت، لأنه كان قد حَسَنَ علاقاته أكثر مع الإنجليز وبدأت جريدة «اللواء» تنشر أخباره

وتنقلاته، وكذلك جريدة «المؤيد» التى يرأس تحريرها الشيخ على يوسف. وأيضًا جريدة «الأهرام» واشتد الصراع وكتب فريد عن أول صداماته مع الخديوى فى مقال بعنوان «ماذا يقولون؟!» كشف فيه كيف خان الخديوى البلاد بسياسة «الوفاق» مع الاحتلال.

الثائر المقلق

وتمضى الأيام بفريد بين جهاد وجهاد. وكتب محمد فريد مقالاً عن الشعر وعلاقته بإذكاء الوطنية ونشره كمقدمة لديوان شعر بعنوان «وطنيتى»، للشيخ «على الغاياتى»، هاجمت كلماته الاحتلال وخيانة الخديوى البلاد وفساد الحاشية، ولم يكن ديوان «وطنيتى» هو القضية وإنما مجرد ذريعة مكشوفة للزج به فى السجن حتى تلين قناته ويصمت أو تعتدل لهجته الوطنية، وقد فطن عشاق الوطن للمؤامرة فحذروه ونصحوه بالبقاء فى أوروبا، ولكنه رفض وصمم على منازلة الأعداء، وصح عزمه عندما بعثت إليه ابنته فريده وقالت له: «أتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن فهو أشرف من أن يُقال إنكم هربتم».

وما أن عاد محمد فريد إلى مصر أواخر ديسمبر سنة ١٩١٠م، حتى تلقفته النيابة العمومية فى الرابع من يناير سنة ١٩١١م للتحقيق معه، وعُقدت المحكمة يوم ٢٣ يناير. ورفض فريد أن يترافع عنه المحامون، لأنه ليست هناك إدانة واضحة، وكانت المحكمة برئاسة القاضى دولبر غلو، وحين سُئل محمد فريد عن التهمة التى نسبت إليه عن مقدمة ديوان الشعر، قال إن الكتاب ظهر وهو فى أوروبا وإنه كتب المقدمة قبل سفره كمقالة تحبذ الجهاد فى سبيل الأوطان وإنها تصلح مقالة مستقلة كما تصلح مقدمة للديوان.

من سجن إلى سجن

وُحكِمَ على فريد بالسجن ستة أشهر، وبعد أن سجنوه أرادوا مساومته على وأد الحركة الوطنية أو استئناسها نظير العفو عنه، لكنه رفض ورفض أن يُهادن

الحكومة بعد خروجه، إذ قال فى الحفل الضخم ، الذى أقامه له الحزب الوطنى: «إنه قد خرج من السجن إلى السجن»، وهى عبارة ظل يكررها دائمًا فى مقالاته كاشفًا أن السجن لم يزده إلاّ صلابة، وكان ذلك فى الوقت الذى ملأ الرعب صدور الحكام بتعيين «كتشنر» معتمدًا بريطانيا فى مصر، إلاّ أن إيمان محمد فريد بقضية بلاده زاده إصرارًا على المطالبة بالجلاء والتنديد بالاحتلال وكل من يتعاون معه، وخاصة خديوى مصر باعتباره رأس النظام. وقد كان ذلك الجهاد سبب المشاق والمصائب، التى دفع محمد فريد ثمنها من استقراره وصحته.

إعلان الحرب

وتمضى الأيام والخديوى عباس الثانى يتربص به، حتى حدث فى ١٩ يناير ما كان سببًا غير خفى فى العداء لفريد. ففى ذلك التاريخ ١٩١٢ أُقيمَت حفلة لرعاية الأطفال تحت رعاية الخديوى وحضرها مندوب عنه. وعند دخول المندوب عزفت الموسيقى النشيد الخديوى ووقف الجميع تحية لاسم الخديوى، ما عدا محمد فريد، مما استرعى أنظار الحاضرين جميعًا وكانت هذه الحادثة هى الأولى من نوعها، فتناقلتها الصحف وألسنة العامة والخاصة وكانت لها ضجة داخل السراى الملكية، وعندما حاول قائمقام الخديوى مخاطبة فريد فى ذلك، ليقدم اعتذارًا بأنه ما كان يقصد إهانة الخديوى بعدم قيامه عند عزف الموسيقى، قال بغضب: «ليس هناك قانون يحتم علىّ الوقوف». وكانت تلك الحادثة بمثابة إعلان حرب على الخديوى والخروج على الاحترام اللائق به.

وألقى محمد فريد خطبته السنوية فى جمعية الحزب الوطنى العمومية يوم الجمعة ٢٢ مارس ١٩١٢م ونُشرت حرفيًا فى جريدتى اللواء والعلم، وكانت خفيفة اللهجة بالنسبة إلى الخطب السابقة. لكن، للأحداث المتوالية والتربص الحادث، وجد فريد من يطلب لقاءه. جاء أحد رجال الشرطة لمقابلته، فدُهشَ لأنه لم يخطر بباله مطلقًا أن فى خطبته شيئًا يُعاقب عليه. وزادت دهشته لمّا اطّلع على الجواب الذى يحمله، فوجده يدعوه لمقابلة رئيس نيابة مصر لاستجوابه عمّا جاء فى الخطاب. وفى تلك اللحظة، صمم محمد فريد على ترك مصر.

الصفحة الأخيرة

وكانت الصفحة الأخيرة فى جهاد محمد فريد خارج مصر. ففى عام ١٩١٢م حضر مؤتمرالسلام فى جنيف ووزع على أعضائه مذكراته عن القضية المصرية، التى تقرر عرضها فى النهاية على المؤتمر، وأصدر فيها المؤتمر قراره القاضى بضرورة الجلاء فوراً عن مصر، لأن الجلاء عن مصر، كما جاء فى نص القرار هو «خدمة للسلام العالمى». وسافر فى العام الذى تلاه إلى لاهاى، لحضور مؤتمر السلام الذى عُقد فيها. وظل على جهاده فى تلك الفترة، التى اتسمت بظهور الحركة الاشتراكية فى أوروبا وانتشارها على نطاق عالمى واسع، كما اتسمت هذه الفترة بقيام حركة السلام العالمية، التى كان يحمل لواءها ساسة أوروبا الأحرار ومفكروها وزعماء الاشتراكية والأحزاب العمالية، فكان حتمًا ولزامًا على زعيم وطنى فى ثقافة فريد ووعيه وإخلاصه ألاّ يرتكن فى الدفاع عن قضية بلاده على الحكومات الاستعمارية، التى كانت تعد العدة للحرب فى سبيل اقتسام العالم، وإنما يلجأ إلى الجهات الشعبية التى تنادى بالسلام والحرية وتقاوم الاستعمار مقاومة عنيدة.

رسالة الوداع

وجاء السطر الأخير، ومات فريد فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ فى برلين. وتروى الوثائق أن محمد فريد عندما أحس أن الموت يقترب منه قال لمن حوله: «إنى وأولادى وكل عزيز لدىّ فداء مصر، لقد أمضيت بعيدًا عن مصر سبع سنوات، فإذا مت فضعونى فى صندوق واحفظونى فى مكان أمين حتى تُتاح الفرصة لنقل جثتى إلى وطنى العزيز، الذى أفارقه وكنت أودّ أن أراه. .» وكأن هذا الرجل كان يعرف أن أجله المحتوم سوف يوافيه فيحرمه من لقاء وطنه، فكتب قبل شهرين من وفاته «رسالة الوداع» يعبر فيها عن أوجاعه ومعاناته بكلمات حب وعشق كبير لمصر. . فيقول:

«إخوانى المصريين الأعزاء. . إنّ الصوت الذى يناجيكم اليوم لصوت منعته

الظروف عن الارتفاع فى صحف مصر منذ نحو سبع سنوات، ولكن منعه عن الارتفاع على ضفاف وادى النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية فى عواصم أوروبا، سواء قبل هذه الحرب أم فى أثنائها أو بعدها.. إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يومًا واحدًا ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين، بل كان يزداد قوة ونشاطًا كلما تراكمت أمامه العوائق وتكدست العقبات».

سلام على النيل وواديه

ويختم رسالته، التى كتبها على سرير المرض فى مدينة تريتيه فى سويسرا، التى كان يُعالج فيها فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٩م قائلاً:

«سلام عليك أيها الوطن المفدّى..

سلام على النيل وواديه..

سلام على الأهرام وبانيه..

سلام على خُدّام مصر المخلصين..

سلام على شهداء الحرية..».

ثم توقف قلب الزعيم محمد فريد فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩، داخل مصحة الدكتور ستوكمان، الواقعة فى شارع مارتن فى برلين فى ألمانيا، وتعرض الجثمان للإهمال، فظل محفوظًا فى تابوت فى إحدى الكنائس القريبة من مقابر المسلمين فى برلين طوال سبعة شهور، دون أن تتحرك أى هيئة رسمية لإعادة الجثمان إلى مصر وإعطائه ما يستحق من تكريم، جزاء ما قدمه لمصر وشعبها من نضال أنفق فيه كل عمره وما يملك.

وجاء التاجر المصرى الحاج خليل عفيفى، وهو من مدينة الزقازيق، ومن تلقاء نفسه. ملبيًا صوت الضمير ونداء الوطن، حيث أبحر على نفقته الخاصة من الإسكندرية يوم الجمعة ٥ مارس سنة ١٩٢٠م، قاصدًا برلين عن طريق فرنسا،

ولم يكد يصل إلى باريس حتى علم بنشوب الثورة الألمانية فأقام فى باريس نحو خمسين يومًا حتى استقرت الأحوال فى العاصمة الألمانية، ثم سافر إليها. وواجهته فى برلين عقبات جديدة. منها أن الحكومة الألمانية كانت قد أصدرت قانونًا قبل ثلاثة أسابيع من وصوله يقضى بعدم جواز نقل جثث المتوفين، من ألمانيا، إلى بلاد أخرى. وخلال إقامة الحاج خليل فى ألمانيا طلبت الحكومة الفرنسية إلى ألمانيا الترخيص لها بنقل جثمان ضابط فرنسى، فأذنت لها الحكومة الألمانية على سبيل الاستثناء، فاستند الحاج خليل إلى هذه السابقة، وأعاد الرجاء على الحكومة طالبًا أن تأذن له بنقل جثمان محمد فريد. ونجحت جهود الحاج عفيفى وصدر الإذن بذلك. ثم استصدر إذنًا من حكومة النمسا بالسماح له بمرور الرفات من أراضيها. وكذلك الحال مع الحكومة الإيطالية. وتم للرجل ما أراد، واتفق المصريون المقيمون فى برلين على الاحتفال بتشييع رفات الزعيم إلى محطة برلين. ونقل الرفات يوم الجمعة ٢١ مايو سنة ١٩٢٠، فى جنازة سار فيها جميع المصريين المقيمين فى العاصمة الألمانية. ووضع فى عربة خاصة فى القطار، الذى نقله إلى ميناء «تريستا» فى إيطاليا، حيث أقلته الباخرة «حلوان»، التى أبحرت يوم ٣ يونيو قاصدة الإسكندرية ووصلت، صباح الثامن من يونيو، وكان الحاج خليل قد أبرق إلى الصحف بنبأ إقلاع الباخرة، فاستعد الشعب المصرى لاستقبال الجثمان وتشييع جنازة الزعيم فى الإسكندرية. وتألفت لجنة برعاية الأمير عمر طوسون، للاحتفال بالجنازة عند وصول الجثمان، ودفن «الزعيم» فى القاهرة بعد جنازة مهيبة فى الإسكندرية والقاهرة.



سعد زغلول

إرادة قارعت الإستعمار

- حفظ القرآن فى «إبيانه» ودخل الأزهر ليطالب بالإصلاح.
- قرأ الأفغانى مقالة لسعد، فقال: فاتحة خير لمصر أن يكتب هذا لكلام غلام.
- ارتقى بالمحاماة بفصاحته واستقامته من «الفهلوة» إلى مهنة محترمة.
- وهب نفسه لمصر وقضايا الوطن.
- كافح أعواما طوالاً لتكون «مصر للمصريين».
- عندما نفاه الإنجليز اندلعت ثورة ١٩١٩.
- شكل أول وزارة شعبية برلمانية عام ١٩٢٤.
- انتخب رئيساً لمجلس النواب سنة ١٩٢٥

حب الناس لإنسان لا يأتى بقرار تصدره جهة معينة، أو بتعليمات من شخص ذى نفوذ وقوة.

فالحب من القلب، والقلب لا يخضع عنوة، بل يسلم قياده لمن أحبهم طواعية.

وعندما أحب المصريون «سعد زغلول» فقد فعلوا ذلك بعد أن أدركوا بالوقائع الملموسة، ما طبع قلوبهم بالفطرة من أن الرجل وهب نفسه لمصر ولقضايا الوطن، لا يدفعه غرض سوى حب الوطن.

ولم يبن سعد زغلول زعامته وحب الناس له فى يوم وليلة، بل كافح أعوامًا طوالاً فى سبيل نشر دعوته القائلة إن «مصر للمصريين»، حتى صارت تلك الدعوة شعاراً يرفع، وهدفًا يكافح المصريون لتحقيقه.

ولد سعد إبراهيم زغلول، فى قرية «إبيانه» فى مركز فوة فى محافظة الغربية، فى الأول من شهر يونيو (حزيران) عام ١٨٦٠، كما دون هو بنفسه فى البيانات الشخصية التى قدمها لمدرسة الحقوق الفرنسية، التى نال منها شهادته فى القانون.

وهو ينتمى لأسرة تتمتع بالثراء النسبى، والزعامة الاجتماعية، وسمى «سعد» على اسم جده الأكبر، الذى وفد إلى القرية، وكون فيها أسرته العريقة، ووالده هو الشيخ إبراهيم زغلول شيخ القرية، ووالدته هى «مريم بركات» ابنة الشيخ عبده بركات، أحد كبار ملاك الأراضى الزراعية. وكانت مريم الزوجة الثانية لوالد سعد، الذى أنجبت منه بنتًا واحدة هى «ستهم» ثم «سعد»، وفتحى، وفرج الله، وقد توفى الأخير وهو حدث، وكان لسعد من أبيه أخوة كبار، هم «شلبى، والشناوى، وأحمد، ومحمد، وعبد الرحمن وفرحانة»، وكان إخوته

من أبيه يعملون جميعًا فى الزراعة، إلا الشناوى، الذى شغل منصب العمدة فى قريته.

لم يكد سعد يبلغ الثالثة من عمره حتى انتقل والده الشيخ إبراهيم زغلول إلى جوار ربه، فاهتم به أخوه «الشناوى أفندى» وأدخله كتاب القرية لتعلم مبادئ القراءة والكتابة ويحفظ القرآن على يد أحمد زيدان شيخ الكُتَّاب.

وكان سعد الفتى النحيل الطويل بالنسبة لأقرانه ممن فى مثل سنه ذكيًا يتمتع بذاكرة حافظة، حتى فاق أقرانه بمراحل فى تعلم القراء والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وبقدر اجتهاده فى حفظ القرآن الكريم كان ابتعاده عن اللعب مع أقرانه، وإذا حدث ولعب معهم كان لعبه سيئًا، وتسبب فى هزيمة الفريق الذى يلعب معه حتى أطلقوا عليه لفظ «الخيبة».

الأزهرى المتمرد

ورغم تفوق سعد إلا أنه لم يستثن من الضرب على الأيدى والأقدام بالعصا من شيخ الكُتاب، ربما لعناده الشديد، حيث كانت والدته مريم زغلول، عندما يغضبها عناده فى البيت، تعهد إلى شيخ الكُتاب بتأديبه، فينهال بالعصا على يدى وقدمى سعد، عظة له، وعبرة لغيره من زملائه.

وعندما انتهى سعد من حفظ القرآن الكريم، أرسله شقيقه الشناوى إلى بلدة دسوق ليجود القرآن، ومنها إلى الأزهر الشريف ليتعلم العلوم الدينية والشرعية، وكتب عن تلك الفترة من حياة سعد زغلول الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين: «وفى الأزهر كان سعد يلبس العمامة والجبة والقفطان، الزى الأزهرى المعروف، ويسكن فى (ربع) عتيق مع الآخرين، يتسكع فى الحوارى، ويعيش أيامًا على الطعمية والفول النابت، ويتربع عند عمود فى الأزهر يستمع، ولكنه يبدأ فى (المطالبة) فيؤلف جمعية لإصلاح الأزهر، ويتسلل فى الليل إلى صحن الجامع ليعلق على أعمدته المنشورات التى تطالب بالإصلاح».

وارتبط فى تلك الفترة من حياته بالشيخ محمد عبده، ورافقه إلى مجالس

زعيم الثائرين آنذاك «جمال الدين الأفغانى». وبدأ سعد ينشر مقالاته فى الصحف داعيًا إلى الإصلاح الاجتماعى، وقرأ الأفغانى بحثًا عن الحرية، فقال «هذا البحث فاتحة خير لمصر أن يكتب مثل هذا الكلام غلام لم يبلغ سن الشباب».

واختير الشيخ محمد عبده رئيسًا لتحرير صحيفة «الوقائع المصرية» مطلع شهر أكتوبر ١٨٨٠، فطلب من سعد أن يساعده فى تحريرها، وترك سعد الدراسة فى الأزهر، وتفرغ للعمل فى الجريدة، واستمر فى عمله ذاك حتى شهر مايو سنة ١٨٨٢ ثم ترك العمل فى الجريدة ليعمل فى وظيفة معاون فى وزارة الداخلية لكنه فصل من عمله الجديد لاتهامه بالانتماء إلى محمد عبده نصير ثورة عرابى، والانتماء إلى جمعية سرية تدعى «جمعية الانتقام» وبقى فى السجن مدة تزيد على ثلاثة أشهر.

المحامى الفصيح

لم يجد سعد بدًا من العمل، فبدأ عام ١٨٨٤ ممارسة مهنة المحاماة، وكانت هذه المهنة، كما يقول مؤرخو تلك الفترة، مهنة لا يحيط بها الاحترام، وكان يمارسها فقط من يجيد الفصاحة والبلاغة، ولو بدون مؤهل، لكن «سعد» نهج فيها نهجًا من الاستقامة ارتفع بها وبنفسه إلى مستوى المهن العظيمة ذات الاعتبار.

وذاع صيته فى هذه المهنة وكان القضاة، والمستشارون الذين ترافع أمامهم يعجبون ببلاغته، وفصاحته، وقدرته على تبيان الحق فى أية قضية يترافع فيها. ولم يكن يقبل إلا القضايا التى يعتقد أن أصحابها لهم الحق فى رفعها، وأن لهم حقوقًا ضائعة يجب أن يحصلوا عليها.

وكان يخدم موكليه أحيانًا بلا أجر، وكانت براعته تدهش القضاة، وتعلن أن دراسة القانون يمكن أن تفرز قانونيًا عظيمًا من غير مؤهل، ولكنه ثقف نفسه الثقافة القانونية الواجبة وكان يرفع شعار «ما ضاع حق وراءه مطالب».

وأرادت الحكومة أن تستفيد من هذه الشخصية النادرة، فعينته سنة ١٨٩٢ بعد ثمانى سنوات من العمل فى المحاماة بوظيفة نائب قاض فى محكمة الاستئناف، فقبلها على ضآلة مرتبها بالقياس إلى ما كان يربحه من المحاماة، وكان سعد زغلول بذلك، أول محام تسند إليه وظيفة القضاء، فابتهج المحامون كما ابتهج القضاة وأقاموا له حفلاً كبيرًا شهده عظماء مصر وكبار مفكريها.

وما لبث سعد أن رقى سنة ١٨٩٣ إلى منصب مستشار فى محكمة الاستئناف العليا، وحصل سنة ١٨٩٧ أثناء عمله كمستشار، على شهادة ليسانس الحقوق، من فرنسا، وكان لإقدام سعد زغلول على الدراسة من جديد ليحصل على مؤهله فى القانون وهو مستشار، قصة طريفة تدل على إصراره وقوة إرادته.

سعد وبوند

كان رئيس المحكمة التى يعمل سعد مستشارًا فيها إنكليزيًا يدعى «بوند باشا» وفى سياق المناقشة والمداولة حول إحدى القضايا، أدلى سعد برأى قانونى، تشريعى على جانب من الأهمية والخطورة، فالتفت إليه رئيس المحكمة قائلاً له: «إن هذا الرأى خليق بأن يبدر عن قاسم أمين أو غيره من

سيئ الخط حسن البديهة

عرف عن الشاعر حافظ إبراهيم أنه مولع بأكل الكمثرى، ولا يميل إلى التفاح وكانت مائدة سعد غاصة ذات يوم بالزائرين، ويبدو أنهم كانوا مثل حافظ مولعين بالكمثرى، فلما انتهوا من الطعام وجىء لهم بالفاكهة أقبلوا كلهم على أطباق الكمثرى يلتهمونها نابذين أطباق التفاح، فأسقط فى يد حافظ إبراهيم، وبلغ منه اليأس فى الحصول على حبة من ثمار الكمثرى، فالتفت إلى سعد قائلا: «ما تخطب لهم يا باشا فى مزايا التفاح». فرد سعد على الفور: «ولماذا لا تلقى أنت عليهم قصيدة من قصائدك فى هجاء الكمثرى ومزايا التفاح».

وكان خط سعد من الخطوط التى يصعب على المرء قراءتها مالم يكن متمرنا عليها، وكان يعترف لأصدقائه وأعوانه برداءة خطه، وكلما أشار أحد إلى الصعوبة التى يجدها مساعدوه فى فك طلاسم خطوطه يغرق فى الضحك قائلا - «ولكن الحمد لله أن خط الجزيرى، «سكرتيره الخاص»، أحسن من خطى.. قليلاً».

حملة الليسانس»، فقاطعه سعد قائلاً: «يعنى ما ينفعش إلا رأى حامل الليسانس؟».

فقال «بوند باشا»: طبعًا.

وسكت سعد، ولم يخطر لأحد أنه قرر تلك اللحظة بالتحديد، تعلم اللغة الفرنسية، ونيل شهادة «الليسانس» فى الحقوق من عاصمة فرنسا ذاتها، على الرغم من كونه على مشارف الأربعين من عمره، وظل سعد يتعلم اللغة الفرنسية والقانون فى وقت واحد، ويسافر كل عام ليؤدى الامتحان أمام لجان الحكومة الفرنسية، حتى فاز بالليسانس فى التاسع من شهر يوليو سنة ١٨٩٧ فى نصف المدةالمقررة لدراسة القانون حتى تتساوى الرؤوس شكلاً وموضوعًا.

حادث دنشواى

وقع عام ١٩٠٦ حادث «دنشواى» الذى هز مصر، حيث نصب الإنكليز أربع مشانق فى قرية «دنشواى» يساق إليها كل ربع ساعة فلاح، يلتف الحبل حول رقبته، وبين كل عمليتى شنق يتوالى جلد الفلاحين بالسياط حتى تسيل دماؤهم أمام الأهالى الذين وقفوا مكتوفى الأيدى. أمام بنادق ومدافع المحتل الإنكليزى.

وأصبحت «دنشواى» لوحة قاسية تعبر عن حالة مصر كلها، أمة مسلوبة الإرادة تُلهب ظهرها العارى سياط الاحتلال وتنهش لحمها المتمزق غربان المصالح الاقتصادية الأجنبية.

وعُين سعد زغلول ذلك العام، وزيراً للمعارف كنوع من امتصاص الغضب الشعبى ضد المحتل، ولأن سعد كان زعيما شعبيًا محبوبًا، وقبل سعد منصبه الوزارى ليس حبًا فى المنصب كما يؤكدالمقربون منه ولكن لينفذ سياسته، فقد بادر إلى جعل اللغة العربية هى اللغة الأساسية فى المدارس بدلا من اللغة الإنكليزية، ووقف بحزم أمام كل تدخل إنكليزى فى سياسة التعليم المصرى.

واصطدم سعد بالإنكليز وبالأسرة الخديوية الحاكمة، وكتب مصطفى كامل

الزعيم الشاب وقتها، مؤيدًا سعد زغلول «إن ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعد بك زغلول يحملهم على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصريًا مشهورًا بالكفاءة والدراية والعلم الغزير، وحب الإنصاف والعدل».

وعين عام ١٩١٠، وزيراً للحقانية (العدل) وكثرت الخلافات بينه وبين الإنكليز والخديوى، فقدم استقالته وقبلت فوراً.

ووتوجه سعد إلى العمل السياسى الشعبى، فرشح نفسه مستقلاً فى انتخابات الجمعية التشريعية، وحقق فوزًا ساحقًا مكتسحًا أمامه جميع المرشحين، وانتخبه النواب وكيلا للجمعية التشريعية، وبدأ يكتب فى الأهرام مقالات «نارية» عن سلطة الشعب، وإرادته الحرة فى اختيار من يمثلونه وبدأ يهاجم سياسة الحكومة بعنف وقسوة، لكن الحكومة كانت تنتصر عند التصويت على أى قرار لأنها هى التى كانت تعين نصف النواب. قال له صديق ذات يوم، إنه يتعب نفسه فى الجمعية التشريعية بلا جدوى، فالأعضاء فى جانب

أم المصريين

تزوج سعد زغلول سنة ١٨٩٦ بالسيدة «صفية»، كريمة مصطفى فهمى باشا، رئيس الوزراء، آنذاك والتى لقبت لاحقًا بـ«أم المصريين». وقد لعبت صفية دوراً مهمًا فى حياة سعد زغلول، وفى تاريخ المصريين وقتئذ، وقد ظهرت شجاعتها واضحة بعد نفى سعد فى المرتين الأولى والثانية، فكانت على اتصال دائم بأعضاء «الوفد» المصرى، تشترك معهم فى اجتماعاتهم، وتستقبل الوفود السياسية والشعبية، وتخطب فيهم داعية الشعب إلى التمسك بمطالبه، وكان لخطبها، ومواقفها وقع عظيم فى نفوس الشعب رجالاً ونساء، حتى أيقن المحتل الإنكليزى وقتها أن التأثير الذى تحدثه صفية زغلول لا يقل عن التأثير الذى يحدثه سعد باشا نفسه، فاستقر قرارهم على أن يأذنوا لها باللحاق به فى منفاه، وفطنت السيدة «صفية» إلى ما يدبره الإنكليز فقالت لهم حينما أبلغوها بقرارهم: «لقد استودعت زوجى يدى الله وسأبقى هنا أؤدى الواجب نحو وطنى إلى أن يعود». وبخلاف اشتراكها مع زعماء مصر فى النضال من أجل الحرية، ناضلت أيضًا مع طليعة نساء مصر أمثال هدى شعراوى بهدف تحرير المرأة المصرية، من القيود التى كبلتها طويلا، خاصة أن النساء شاركن بفاعلية فى المظاهرات التى عمت الوطن كله فى عام ١٩١٩.

الحكومة، فرد عليه سعد قائلاً: «إننى لا أخاطب الجمعية التشريعية، بل أخاطب الأمة من خلالها. ولا أحدث الحاضر، بل أحدث المستقبل».

المواجهة الساخنة

وصدر قرار بحل الجمعية التشريعية بعد خمسة شهور فقط، ثم نشبت الحرب العالمية الأولى، ليعيش فى ظلامها كل المصريين، وأصبحت مدينة القاهرة تعج بجنود الاحتلال، وصارت مصر قاعدة إنكليزية تخرج منها الحملات إلى الشرق الأدنى، ويساق العمال المصريون إلى الجبهة يحفرون الخنادق، ويتساقطون صرعى، واستولى المحتل على كل ما له قيمة فى مصر لخدمة جنوده، فى جبهات القتال، حتى دجاج الفلاحين وماشيتهم، وأعلنت إنكلترا الحماية على مصر، وأسقطت السيادة التركية، وتولى الملك فؤاد عرش مصر، وبدأ سعد فى مقاومة الاحتلال الصريح، ومنعت الحكومة نشر مقالاته فى الصحف فصار يطبعها فى منشورات، ويوزعها على الناس فى أنحاء القطر المصرى، وألف سعد زغلول «الوفد» برئاسته للسعى لاستقلال مصر، وحتى يكون عمله رسميًا وديمقراطيًا حصل على توكيلات كتابية من شتى أنحاء البلاد، وبدأت المقاومة تكشر عن أنيابها.

المنفى الأول

وفى الساعة الخامسة من عصر يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ أحاط الجنود الإنكليز بيت سعد زغلول، وقبضوا عليه، وعلى ثلاثة من أبرز الأعضاء مركزًا فى الوفد، وأرسلوهم منفيين إلى «مالطة» واندلعت ثورة سنة ١٩١٩ لتكون أول ثورة شعبية فى العالم بعد الحرب العالمية الأولى وقال بسببها أحد وزراء بريطانيا: «يجب التخلص من سعد.. يجب التخلص من سعد». لكن بريطانيا اضطرت تحت الضغط الشعبى، للإفراج عن سعد، وتنتهى الثورة بالنجاح النسبى.

ووجهت السلطات الإنكليزية يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١ إنذارًا إلى سعد

زغلول وزملائه، من أعضاء الوفد ليكفوا عن أى نشاط سياسى مثل إلقاء الخطب أو الكتابة فى الصحف والمنشورات وطلبت منهم أن يغادروا القاهرة إلى قراهم فى الريف.

المنفى الثانى

ورفض سعد الإنذار قائلاً: «سأبقى فى القاهرة، ولتفعل القوة بنا ما تشاء». والقى القبض عليه، وسيق مع أصحابه منفياً إلى «عدن» ثم إلى جزيرة «سيشيل»، التى نقل منها بعد أن ساءت صحته إلى «جبل طارق».

ويقول أحمد بهاء الدين: «ماذا فعل الشعب فى مصر وهو يرى زعيمه فى قبضة المحتل بعيداً عن وطنه؟ بدأ بالمقاومة السلبية، فليس لعامل مصرى أن يخدم إنكليزيًا، ولا لمصرى أن يستخدم إنكليزيًا، فلا يوكل محاميًا إنكليزيًا ولا يستشير طبيباً إنكليزيًا، وعلى الأهالى أن يتجاهلوا وجود الموظفين الإنكليز فى المصالح، وأن يرفعوا أعمالهم إلى الموظفين المصريين فقط، وعلى المحامين المصريين أن يعملوا على فض المنازعات أمام قضاة إنكليز فى المحاكم بالطرق الودية، وعلى الموظفين الخاضعين لرؤساء إنكليز أن ألا يتلقوا منهم الأوامر، ولا ينفذوا تعليماتهم.. إلخ. كما كان على رأس بنود المقاومة السلبية امتناع أى سياسى مصرى عن تشكيل الوزارة مادام الوضع الحاضر قائمًا، وليحكم الإنكليز بالقوة السافرة إذا شاؤوا. وعلى المصريين استخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية، فيقاطعون البنوك الإنكليزية، والبضائع الإنكليزية، وعلى المسافر المصرى ألا يستعمل البواخر الإنكليزية، وعلى العمال أن يمتنعوا عن شحن أو تفريغ السفن، أو البضائع الإنكليزية، ولا يتعامل مع شركات التأمين الإنكليزية.. إلخ.

رئاسة الوزارة

أدركت بريطانيا أن مقاومة هذا الشعب ضرب من المستحيلات. فأرادت أن تلتف حول الثورة، فأعلنت فى ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ انتهاء الحماية البريطانية

على مصر، والاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة، ونودى بفؤاد ملكًا على مصر، وتألفت فى ١٣ إبريل سنة ١٩٢٢ لجنة لوضع دستور للبلاد. وأفرج عن سعد زغلول وعاد إلى مصر لتستقبله الجماهير استقبالاً لم يسبق له مثيل، ووقع الملك فؤاد مرسومًا بتكليف سعد زغلول بتشكيل الوزارة، ورد سعد على خطاب الملك بخطاب يؤكد فيه أنه آت بإرادة الأمة وحدها. وشكل سعد أول وزارة شعبية برلمانية فى ١٥ مارس عام ١٩٢٤.

وأطلق الرصاص على سعد زغلول يوم ١٢ يوليو سنة ١٩٢٤ خلال وجوده فى «محطة مصر»، ولحقت به إصابات طفيفة ودخل المستشفى ليخرج فى ١٧ يوليو، ولكن التطورات كانت ترتب شيئًا آخر فقد قام أحد الوطنيين باغتيال السير «لى ستاكث» القائد العام الإنكليزى، وحاكم السودان فى شارع القصر العينى، ويتهم سعد بأنه مسؤول عن الاغتيال نتيجة للتحريض الذى مارسته وزارته ضد الإنكليز، وقدم سعد استقالته لكنه لم يترك ساحة النضال وانتخب سنة ١٩٢٥ رئيسًا لمجلس النواب الجديد، ثم نائبًا لرئيس مجلس النواب الائتلافى عام ١٩٢٦.

ولم تهدأ حماسة سعد زغلول على الرغم من تقدمه فى السن، واستمر فى نضاله بحماسة الشباب، ولكن الأمراض تكالبت عليه.

وأسلم الروح فى الساعة العاشرة مساء ٢٣ أغسطس ١٩٢٧، وهو يردد: «أنا انتهيت.. أنا انتهيت».



الشيخ عز الدين القسّام

وجع فى قلب إسرائيل

- اسمه مازال يرعب «إسرائيل» رغم استشهاده سنة ١٩٣٥م.
- القسام طالب أزهرى جاء من سوريا ليجاهد ضد الإنجليز واليهود فى فلسطين.
- وضع أسس المواجهة الشاملة ونفذ عمليات رائدة ضد الأعداء.

اسمه يثير الرعب والفزع، تحرك اتباعه تصاحبه حالة من إعلان الطوارئ، فى صفوف الجيش الإسرائيلى، كتائبه هى أخشى ما يخشاه قادة اليهود، رغم أنه قد استشهد سنة ١٩٣٥م فهو قائد أول ثورة مسلحة ضد البريطانيين واليهود فى فلسطين. وصاحب أول تنظيم جهادى يخوض الحرب دفاعًا عن عروبة فلسطين.

كان خير مثال لرجل الدين المجاهد والمعلم، وباعث الوطنية والهمم فى النفوس الأبية، يظل اسمه علمًا من أعلام النضال العربى فى العصر الحديث. عندما يذكر اسمه تتزلزل الأرض تحت أقدام اليهود.

هو الشهيد المناضل عز الدين القسام، الذى تزرع كتائبه الخوف وتبث الرعب داخل إسرائيل بعملياتها الاستشهادية التى ينفذها تلاميذ مدرسته البطولية «كتائب عز الدين القسام».

وهكذا شأن الرجال الأبطال الذين عاهدوا الله على التضحية والفداء، منهم من قضى نحبه شهيداً فى سبيل الله والوطن ومنهم من ينتظر.

هو شيخ القسامية، ومؤسس تنظيمهم وقائده، وأحد أوائل شهدائه، وُلِد فى بلدة «جبلة» السورية، جنوب اللاذقية، من أسرة متوسطة الحال، كان أبوه صاحب كُتّاب يُعلمُ فيه الأطفال أصول القراءة، وحفظ القرآن.

تلقى عز الدين القسام دراسته الابتدائية فى بلدته، ونشأ على هدى الدين، والصلاح والفضائل. ذهب وهو فى الرابعة عشرة إلى القاهرة للدراسة فى الأزهر الشريف، برفقة أخيه «فخر الدين».

درس فى الوطنية

أمضى القسام فى الأزهر سنوات أخذ فيها العلم على أبرز أئمته، ومنهم الشيخ «محمد عبده»، نال بعدها الشهادة الأهلية، وقد تركت سنوات الدراسة فى الأزهر، فى نفسه آثاراً بعيدة، فقد كانت مصر تعيش فى حالة غليان وطنى فى أثناء هذه الفترة، التى أعقبت الاحتلال الإنجليزى وهزيمة العرابيين، شهدت هذه الفترة أيضا بروز العديد من الزعماء الوطنيين، الذيهن حملوا الدعوات الإصلاحية التى كانت تؤكد أن من أهم عوامل وأسباب استقلال وحفظ الأمة، الاتحاد والشورى، وعدم الاعتماد على الأجنبى.

خلال سنوات إقامته فى مصر، ودراسته بالأزهر تشرب عز الدين القسام روح الوطنية والاستقلال، ووعى الدرس جيداً، فالاستقلال لا يأتى إلا من خلال النضال، وعدم الاعتماد على الغير فى الحصول على هذا الاستقلال والحرية.

مُعلم الوطنية

عاد القسام إلى بلدته، وهو يحمل بين جوانحه بوادر وبذور ثورة، ووعى وإيمان بضرورة اتحاد والتقاء كل الشعب حول هدف واحد، وهو الاستقلال والتحرر، وبناء الوطن على أساس من القيم والأخلاق والمبادئ الوطنية.

آمن عز الدين القسام أن رجل الدين ليس مُعلّم الفروض والعبادات فحسب، بل معلم الإباء والوطنية وعزة النفس، كان دور رجل الدين عنده دفع المؤمنين إلى رفض التواكل والاستكانة، وعدم عزلهم عن قضايا شعبهم.

الفكرة الإسلامية

بعد عودته إلى «جبلة» سنة ١٩٠٣ لم يلبث القسام أن قرر السفر إلى تركيا لمزيد من الدراسة والاطلاع، وهناك زادت خبرته ومعرفته بطبائع الشعوب، وزاد إيمانه بالفكرة الإسلامية الداعية إلى الجهاد، ودور رجل الدين فى تزكية هذه الروح فى أبناء الأمة.

ومرة أخرى يعود إلى قريته، ليحل مكان والده فى تعليم الأطفال بالكُتّاب،

أخذ يعلمهم العلوم الحديثة، وأصول القراءة والكتابة، إلى جانب تحفيظ القرآن الكريم.

ويقوى دوره وتأثيره فى الناس بعد أن أصبح إمامًا لمسجد المنصورى فى «جبلة» حيث غدا بخطبه ودروسه وسلوكه الملتزم، موضع احترام الناس، وامتدت شهرته وسمعته الحسنة إلى المناطق المجاورة، وربطته بكثير من سكانها صداقات متينة.

كان أول تجسيد لمفهومه عن رجل الدين المجاهد العلمى، حين قاد مظاهرة طافت شوارع بلدته، تأييدًا للعرب الليبيين، يوم هاجم الإيطاليون ليبيا. وقد دعا «القسام» الناس إلى التطوع لقتال الإيطاليين، وكوّن قوة من المتطوعين وصلت إلى ٢٥٠ متطوعًا، وقام بحملة جمع تبرعات لتأمين ما يلزمهم ويلزم أسرهم، لكن السلطات العثمانية لم تسمح لهم بالسفر لنصرة إخوانهم الليبيين.

المقاومة ضد فرنسا

ولأنه كان يكره الاستعمار. لذا رفع راية المقاومة ضد فرنسا فى الساحل الشمالى لسورية، وكان فى طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح فى ثورة جبال صهيون (١٩١٩ - ١٩٢٠) مع المرحوم عمر البيطار.

ترك قريته، وباع كل ما يملك، وانتقل مع أسرته إلى قرية «الحفة» ذات الموقع الحصين، فى سبيل الثورة. التى كانت بالنسبة له مدرسة عملية صقلته، وعلمته الكثير من الدروس.

وللدور الخطير الذى قام به «القسام» فى الثورة ضد الفرنسيين، حكموا عليه بالإعدام، لما عرفوا من قوة نفوذه، وتأثيره فى الناس.

الانتقال إلى فلسطين

بعد إخفاق الثورة فى جبال صهيون، التجأ «القسام» مع ستة من رفاقه إلى فلسطين، حيث وصل إلى «حيفا» أواخر صيف ١٩٢١، ثم لحقت به أسرته بعد

حين، وكان وصوله إلى فلسطين إيذانًا ببداية مرحلة جديدة ومجيدة فى تاريخ النضال الفلسطينى ضد قوات الانتداب البريطانى وقطعان اليهود، التى جاءت تغتصب الأرض وتقيم وطنها القومى، الذى وعدهم به بلفور وزير خارجية بريطانيا على حساب عرب فلسطين.

منذ اليوم الأول لوصوله إلى «حيفا» لفت «القسام» إليه أنظار المصلين فى المسجد الذى لجأ إليه فى «حيفا» مع جماعته، حين انبرى بعد صلاة المغرب لتقديم درس دينى للمصلين.

واستقرت الأمور له ولأسرته فى حيفا، وبدأت حياة «القسام» النضالية منذ ١٩٢٢، وعمل مدرسًا فى المدرسة الإسلامية بحيفا، وكان خطيبًا وإمامًا لجامع الاستقلال فيها، وراح يزرع روح الجهاد والكفاح فى النفوس، مركزا فى دروسه الدينية على ضرورة التآخى والتلاحم والتناصر بين الناس من أجل حماية الوطن، مناديًا بإحياء فريضة الجهاد، كما كانت أيام الرسول ﷺ وأصحابه الكرام.

انتسب «ألقسام» سنة ١٩٢٦ إلى «جمعية الشبان المسلمين» فى «حيفا» ثم أصبح رئيسًا لها، لما رأى الأعضاء فيه من ثقة بالنفس وشدة التقوى والورع، والقدره على كسب ثقة الآخرين، وعُين سنة ١٩٢٩ مأذونًا شرعيًا من قِبل المحكمة الشرعية، فصار يخرج إلى القرى، وعرفه الناس وعرفهم، وازدادت شعبيته وذاعت شهرته.

مدرسة نضالية

كان «عز الدين القسام» شخصية متميزة، التقت فى شخصه مجموعة من المؤثرات، جعلته صاحب مدرسة فى النضال، تركت أثرها فى مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية، أثناء إقامته فى «حيفا» التى استمرت خمس عشرة سنة.

وقد انطبعت فى نفسه آثار سنوات الدراسة التى أمضاها فى مصر، كما استفاد من دروس الثورة السورية، فعرف شروط نجاح النضال.

وكان يحس بخطر الصهيونية، وبأنها جادة فى الوصول إلى هدفها، فكان يدعو الناس إلى الوقوف فى وجهها، بتجمعهم، واتحاد كلمتهم، وبالبعد عن الشقاق، والعودة إلى تعاليم السلف الصالح.

وإذا كان هذا الإحساس أمرًا معروفًا لا جديد فيه، فإن الجديد الذى ميّز القسام عن غيره، وأعطى حركته أو ثورته صفة خاصة هو تركيزه على الاستعمار البريطانى، وإدراكه بوضوح وجلاء، أن هذا هو العدو الرئيسى الذى تجب محاربته ومقاومته، تمتع «القسام» بهذا الوضوح فى تحديد العدو، فى الوقت الذى كانت فيه الحركة الوطنية الفلسطينية تتجنب الصدام مع بريطانيا، وتسعى إلى مفاوضتها.

الثورة المسلحة

آمن «القسام» مستفيدًا من دروس النضال التى عاشها، أن الثورة المسلحة هى وحدها القادرة على إنهاء الانتداب، والحيلولة دون قيام دولة صهيونية فى فلسطين. ومن الطبيعى أن تحتاج الثورة المسلحة إلى تخطيط سياسى وعسكرى، وإلى تعبئة الجماهير نفسيا لتأييد الثورة والاشتراك فيها، وإلى تنظيم سرى ثورى يُربى فيه المقاتلون عسكريًا وسياسيًا.

وكانت الثورة المسلحة المنظمة أمرًا غير مألوف بعد فى الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك، فلم يتعد النضال الإضراب والمظاهرات التى قد تقع خلالها مصادمات يُقتل فيها ويجرح البعض من العرب واليهود.

اتصف الشيخ «عز الدين» بقدرة فائقة على التنظيم واختيار الأعضاء والقيادة، وسبل الإمداد والتسليح، وكان يدقق فى اختيار الأعضاء، ويضع المرشح الذى يتوسم فيه الخير والاستعداد زمنا تحت المراقبة، إلى حين دعوته للعمل فى التنظيم من أجل إنقاذ فلسطين، وكان كل ذلك يتم فى إطار من السرية الكاملة.

ساعد «القسام» عمله مدرسًا وخطيبًا وإمامًا ومأذونًا شرعيًا، على معرفة الناس، وسبل إقناعهم والتأثير فيهم. وقد ربط القسام الجانب النضالى بالجانب الاجتماعى، فكان يهتم بتحسين أحوال الفقراء ومساعدتهم، ويسعى إلى مكافحة

الأمية بينهم، إيمانًا منه، بأن ذلك يعمق الوعى بين الجماهير، ويزيدها إيمانًا بالثورة، ويشحذ عزمها للكفاح المسلح، ولاسيما جماهير الحى القديم فى «حيفا» حيث كان يقيم «القسام»، وحيث كان يقيم العمال وفقراء الفلاحين الذين طردوا من أراضيهم، ولجأوا إلى «حيفا» طلبًا للعمل.

وكان الشيخ ذا شخصية جذابة، حسن السيرة والمعاشرة، محدثًا لبقًا وخطيبًا بارعًا، وكان بمقتضى عمله كمأذون شرعى يحضر حفلات الأعراس، ويتعرف إلى الناس، ويستقى الأخبار، ويتصل بسائر طبقات الشعب.

كان يراقب المصلين وهو يخطب فوق منبر المسجد، ويدعو من يتوسم فيهم الخير والاستعداد للتمرد ليقنعهم بالعمل لإنقاذ فلسطين مما يهددها من أخطار.

وكان القسام فى جميع مراحل عمله من الإقناع إلى ضم المناضلين إلى جماعته يستعين بالكتمان على تحقيق هدفه، فكان لا يبوح بالسّر الذى يحمله، وهو الدعوة إلى الثورة لمنع إقامة وطن قومى صهيونى فى أرض فلسطين، إلا لأشخاص قلائل بعد أن يدرس أنفسهم ويمتحن إخلاصهم لمدة قد تطول عدة سنوات.

وكان ينتقى أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة، ويقوم بتدريبهم فى رحلات ليلية، كما كانوا يقومون بتحركات استطلاعية يتمرنون فى أثنائها على إصابة الهدف.

تألف أنصار «القسام» من العمال والفلاحين والباعة الذين كانوا يحضرون دروسه، فكان يحضهم على وجوب الجهاد، وينمى فى أنفسهم روح المقاومة استعدادًا لحمل السلاح عندما يحين وقت الثورة.

التشكيلات السرية

أخذت نواة الحركة الثورية تتألف سريعا حول «القسام» وتتسع، وازداد

عـدد المنضمين إلى جهازه، الذى أداره بمهارة وحكمة ولباقة، وشكل «القسام» من أفراد المنظمة حلقات صغيرة، تتألف الواحدة منها من رقيب وخمسة أفراد.

ولم يكن يعرف أفراد الحلقة أى شىء عن الحلقات الأخرى وأفرادها، كانوا يعرفون فقط أن زعيمهم هو «القسام» الذى شكل مجموعات قيادية تتألف من كبار رجال التنظيم، منها مجموعة للتدريب العسكرى، ومجموعة لجباية الأموال، ومجموعة للاتصالات الشعبية والسياسية، ومجموعة لشراء السلاح وأخرى للتجسس على البريطانيين والصهيونيين وكانت أخطر هذه المجموعات، مجموعة الدعاية للثورة، ومهمتها الأساسية إقناع الناس بعدم جدوى التعاون مع الإنجليز أو الاعتماد عليهم، وبأن الجهاد فى سبيل الله والوطن هو الطريق الوحيد لبلوغ الأهداف. وكان من مهامها أيضا توجيه الناس للتعاون والتضافر والأخلاق الحميدة، ومقاومة ما كان يبذله الإنجليز والصهيونيين من جهود لشق وحدة الصف العربى، وصرف أنظار العرب عن المقاومة والكفاح.

جهاز الثورة

عُرف أكثر وأكبر المنضمين إلى جهاز الثورة بالشيوخ، على أنهم والشبان الذين انضموا تحت لواء «القسام»، ظلوا مجهولى الهوية والأسماء لا يعرفهم الناس.

وكانت مدينة «حيفا» تتقدم وتتطور، فانتقل الكثيرون من العرب من مناطق «القدس» و «نابلس» وغيرهما للعمل فيها، وتضاعف عددهم على مرّ الأيام، فوجدت فى «حيفا» تكوينات عامة قوية من العمال وغيرهم، كانت فى الحقيقة المعين الذى اختار منه القسام المؤهلين للعمل معه.

وكان «القسام» قد شكل فى عدد من قرى لواء الشمال تشكيلات مسلحة سرية من الشباب مهمتها مناوشة القوات البريطانية، ونُصرة المجاهدين فى حالة وقوع اصطدام مع الصهيونية أو الإنجليز ولما بدأت المنظمة أعمالها انضم إليها المزيد من الشباب الوطنى.

كانت مهمة تمويل حركة «القسام» ومدّها بالسلاح صعبة للغاية، بسبب الأحوال السائدة، وسريان مفعول أنظمة الطوارئ والقوانين الاستثنائية، وكانت

مصادر التمويل مع ذلك متعددة وإن كانت تتم بشكل سرى، منها: تبرعات أفراد أعضاء التنظيم، تبرعات من أبناء «حيفا»، كان يتولى جمعها سراً بعض أعضاء الحركة والرجال الوطنيين. وتبرعات من الجمعية الإسلامية فى «حيفا» تسجل فى ميزانيتها تحت بند مساعدة المعوزين من المسلمين.

وكان الحصول على السلاح أكثر صعوبة من الحصول على المال، وقد قدم كبار قادة المنظمة بعض البنادق والمسدسات القديمة، إضافة إلى الأسلحة التى هربها إلى «حيفا» بعض أنصار «القسام» ومريديه فى «جبلة» و «اللاذقية».

بداية الكفاح المسلح

كان «القسّام» دقيق التنظيم فقد وضع لثورته برنامجا من أربع مراحل هى: الإعداد النفسى، ونشر روح الثورة المسلحة، إنشاء حلقات سرية، تشكيل لجان قيادية لجمع التبرعات وشراء السلاح ثم الثورة المسلحة.

وكان يرمى أثناء تطبيق هذا البرنامج إلى الإسهام مع أصحابه، فى تهيئة أكبر عدد ممكن من المجاهدين، وتدريبهم وتجهيزهم للقيام بثورة عامة فى فلسطين، فى الوقت الملائم، وبعد اكتمال الإعداد، فلم يكن متعجلاً أمر إعلان الثورة، بل كان مؤمنا بالتأنى واستكمال التهيئة والإعداد، لهذا رفض أن يبدأ التنظيم للثورة العلنية بعد حادثة «البراق» سنة ١٩٢٩، لاقتناعه بأن الوقت لم يحن بعد لذلك.

إلا أن عدة عوامل واعتبارات هامة جابهت العرب فى عامى ١٩٣٣، ١٩٣٤ دفعت «القسام» ومنظمته إلى البدء بالعمل المسلح، قبل أن يتم المناضلون التأهب والإعداد، وكان من هذه العوامل والاعتبارات: تدفق الهجرة الصهيونية إلى فلسطين بصورة كبيرة وإندفاع الصهيونيين، تؤيدهم بريطانيا، فى التسلح وتشكيل المنظمات الإرهابية السرية، واستفحال خطر تسرب الأراضى إلى اليهود، وتفاقم أعمال السماسرة والخونة والجواسيس فى خدمة الأعداء.

تحت ضغط هذه العوامل، وفى ضوء تعطّش الشعب الفلسطينى إلى مقاومة الأعداء بالقوة، بدأ «القسام» العمل المسلح، ولكنه لم يخض فى بادئ الأمر ثورة مكشوفة ضد الأعداء، وآثر الضربات الخاطفة، والأعمال الفردية والمحلية، ليقينه بأن من شأنها إزعاج الأعداء ورفع معنويات الشعب، وتعميق الدعوة للتمرد والعصيان.

وقائع الثورة

عندما قرر «القسام» القيام بأعمال مسلحة ضد الأعداء، لم يكن الشعب أو الإنجليز، أو اليهود يعلمون شيئًا عن المنظمة القسامية، بينما كان الشيخ «القسام» يمارس وظائفه وأعماله فى «حيفا» ويظهر أمام الجميع. قام «القساميون» وتشكيلات الشباب المرتبطة بهم فور صدور قرار «القسام»، بسلسلة من الأعمال ضد المستعمرات الصهيونية، ودوريات الجيش البريطانى والشرطة، أشاعت هذه الأعمال القلق والذعر فى الأوساط الإنجليزية والصهيونية.

وانزعج الإنجليز واليهود، وأصابتهم حالة من التخبط، لعدم معرفة أصحاب هذه الأعمال ومن يقف وراءهم. ولم تقع معارك كبيرة مكشوفة بين القسامين والجيش، إذ اقتصرت أعمال المجاهدين على مهاجمة المستعمرات الصهيونية ودوريات الشرطة والجيش ثم الاختفاء، وهى من أساليب حرب العصابات.

وقد ألحقت هذه الأعمال خسائر كبيرة بالممتلكات والمزروعات الصهيونية، وأدت إلى قتل كثير من الإنجليز والصهيونيين، ووقعت اصطدامات شديدة وواسعة بعض الشىء بين المجاهدين وقوات السلطة فى كل من «أم الزيات» و «فرادة» و«عرابة» و «البطوف»، و «بيت جن» و «الناصرة»، و «جبل الكرمل» و «بلد الشيخ»، و «وادى الطبل بالكرمل» و «شعب» و «لوبية».

وفى عام ١٩٣٣ هاجم عدد من المجاهدين مستعمرة «نهلال» الواقعة قرب الطريق الرئيسى بين «حيفا» و «الناصرة»، وكان هجومًا مركزًا استعملت فيه القنابل والمتفجرات، مما ألحق بالمستعمرة خسائر كبيرة فى الأرواح والأموال.

خيانة وعقاب

أثار هذا الهجوم غضب الإنجليز والصهيونية فانطلقوا يُسخّرون مختلف وسائلهم للعثور على الذين قاموا بالهجوم على «نهلال». وبعد مرور ثلاثة أشهر على هذا الهجوم، وبفضل أعمال التجسس التى قام بها العملاء من رجال الشرطة تمكن الإنجليز من القبض على «صالح أحمد طه» ، «مصطفى على الأحمد»، و«خليل محمد عيسى» - أبى إبراهيم الكبير - ، و «أحمد الغلاينى» و «أحمد التوبة» وآخرين غيرهم، وقادوهم إلى المحاكمة، التى أصدرت حكمها بالإعدام على «مصطفى على الأحمد»، وبالسجن ٢٥ عامًا على «أحمد الغلاينى» وبرأت الآخرين.

ورغم كل الضغوط على المجاهدين فى أثناء المحاكمة، رفضوا الاعتراف بوجود منظمة سرية، ولم يرد ذكر «القسام» خلال المحاكمة.

وعندما تأكد المجاهدون أن ضابطى الشرطة «حليم بسطا» و «أحمد النايف» هما اللذان وشيا بالمجاهدين وحرّضا الإنجليز عليهم، وأنهما كانا ينشطان لمعرفة أسرار المنظمة نفسها، اغتالهما المجاهدون فى وسط مدينة «حيفا» بعد أيام من انكشاف أمرهما.

ومن العمليات التى قام بها المجاهدون من أنصار «القسام» هجوم على مستعمرة «عتليت» قتلوا خلاله عددا من الصهيونيين، وتصدوا لقافلة من السيارات كانت تقل عمالاً صهاينة وأجهزوا على عدد منهم.

ومن الأعمال الأخرى البارزة التى قام بها المجاهدون ملاحقة باعة الأراضى والسماسرة وعملاء السلطة من العرب، وأفراد الشرطة الذين كانوا يمضون فى اضطهاد الوطنين. وكان نصيب عدد كبير منهم الاغتيال.

واستمرت المصادمات بين الثوار وقوى السلطة، وازداد عدد الهجمات على المستعمرات الصهيونية، واتسعت عمليات اغتيال باعة الأراضى والسماسرة والعملاء. مما جعل الأعداء يكثفون جهودهم للكشف عن الجهة التى تقوم بهذه العمليات.

رفع معنويات الجماهير

حاول البريطانيون واليهود تصوير العمليات التى يقوم بها المجاهدون على أنها أعمال إجرامية هدفها السلب والنهب. مما دفع الشيخ «القسام» وجماعته إلى القيام بالثورة علنا، لرفع معنويات الجماهير، وإبراز الأهداف التى يجاهدون فى سبيل تحقيقها.

وقد أصبح الوضع فى عام ١٩٣٥ لا يحتمل مزيداً من تأجيل إعلان الثورة، فقد بلغ خطر الهجرة اليهودية حداً كبيراً، وأصبح تسلّح الصهيونية بمساعدة الإنجليز أمراً لا يمكن السكوت عليه. ولذلك كان لابد من بدء الثورة فى المنطقة الجبلية فى شمال فلسطين.

فى ليلة ١٢ نوفمبر ١٩٣٥ اجتمع القسّام مع أركان ثورته فى منزل «محمود سالم المخزومى» وقرروا إعلان الثورة، وكان أصحاب «القسّام» قد باعوا حلىّ زوجاتهم، وبعض أثاثهم، واشتروا به بنادق وذخائر، ثم قصدوا الجبال القريبة من «حيفا»، ولجأوا إلى أحراج بلدة «يعبد» من قضاء «جنين»، واختاروا قرية الشيخ «زيد» قاعدة لهم. فى ذات الوقت تسلل عدد كبير من جماعة «القسام» إلى مدينة «حيفا» لمساندة الهجوم المنتظر الذى سيشنه «القسام» وجماعته على المدينة، منطلقًا من أحراج «يعبد».

الجهاد أو الشهادة

علم الأنجليز أن «القسامين» موجودون فى أحراج «يعبد»، وأنهم يستعدون للدخول فى معركة مع القوات الحكومية، وأن أهل القرى المجاورة أعدوا أنفسهم لمساعدة «القساميين»، ولم يكن يعلم الإنجليز أن عز الدين القسام كان على رأس رجاله، لذلك راحوا يفتشون «حيفا» بحثًا عنه.

أرسل الإنجليز قوات كبيرة حاصرت أحراج «يعبد» واصطدمت بنقاط الرصد التى أقامها القسّام. فقُتل جندى بريطانى، وبعض رجال الشرطة، الأمر الذى أثار البريطانيين، فأصدروا أوامرهم لقواتهم بضرورة اقتحام الأحراج ومنازلة

«القسامين»، وتعاظم عدد القوات البريطانية، تدعمها المصفحات والدبابات، فى حين قامت الطائرات البريطانية بطلعات استكشافية متواصلة لمعرفة مواقع القسامين وأعدادهم.

واستمرت المناوشات بين الجانبين نحو خمسة أيام، وعندما علم البريطانيون بوجود «القسام» بين رجاله، شددوا من هجومهم، وأرسلوا إليه بعض رجال الشرطة العرب لإقناعه هو ورجاله بالاستسلام، لكن «القسام» وأصحابه رفضوا هذا الطلب واختاروا الجهاد والشهادة، عندئذ تحركت قوات الإنجليز بمصفحاتها ودباباتها وطائراتها فى هجوم واسع النطاق على «القسامين»، وحين أدرك الثوار قوة الزحف البريطانى، نصح بعضهم الشيخ «القسام» بمغادرة الأحراج، وكان فى استطاعته اختراق الحصار والنجاة بنفسه وبمن يرافقه من رجاله، على أن يبقى الآخرون لمناوشة القوات الزاحفة، ولكن «القسام» رفض هذه النصيحة، وهيأ نفسه للقتال وللشهادة.

المعركة الكبرى

وقعت فى ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥ المعركة الكبرى بين «القسامين» والأعداء، وقد استمرت أربع ساعات، هلك خلالها عدد غير قليل من رجال السلطة، واستشهد من القسامين الشيخ يوسف عبد الله، وأحمد الشيخ سعيد، وسعيد عطية أحمد، وأحمد مصلح الحسين، وجرح عدد آخر، وبعد الظهر استؤنفت المعركة، فاستشهد الشيخ «عز الدين القسام» وجُرِحَ عدد من رجاله، بينما سقط عدد منهم أسرى فى أيدى الإنجليز فنقلوهم إلى سجن نابلس. وقُتل من الجانب البريطانى أكثر من خمسة عشر جنديًا.

استطاع عدد من «القسامين» اختراق الحصار والوصول إلى منطقة الشمال الفلسطينية، وهم يحملون جثة قائدهم الشهيد، إلى مدينة حيفا.

وداع الأبطال

اضطرب الرأى العام الفلسطينى لدى سماعه أنباء المعركة، واستشهاد «القسام»، وأصاب الحادث فلسطين كلها بالألم والحزن، وخرجت الصحف تشيد

بالشهداء وبطولاتهم وثباتهم فى وجه الأعداء، وقد نُقل الشهداء إلى المدينة ملفوفين بالأعلام العربية.

وهُرع إلى «حيفا» عدد كبير من زعماء البلاد للاشتراك فى تشييع جثمان «القسّام» ورفاقه الشهداء، وغصت المدينة بوفود حضرت من جميع أنحاء فلسطين، فى حين قضى أهل «حيفا» ليلتهم بانتظار تشييع الجنازة وأعلنوا الإضراب العام فيها.

نُعى الشيخ «القسام» وصحبه من مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلّى الناس عليهم فى كل مكان صلاة الغائب، وحملت الجماهير نعش «القسام»، وصار موكب الجنازة مجللاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية.

ودُفن الشهيد فى مقبرة «الباجور» قرب بلدة «الشيخ» القريبة من «حيفا»، واستغرقت مسيرة الجنازة نحو ٤ ساعات، وتحولت إلى مظاهرة عاصفة، وقعت خلالها عدة اصطدامات دامية بين الجماهير وقوات الحكومة، جُرح فيها كثيرون من الجانبين.

استمرار الثورة

ترك استشهاد «القسام» ردود فعل عنيفة فى الأوساط الفلسطينية والعربية، فعمت المظاهرات الصاخبة مدن فلسطين وقراها، نادى خلالها المتظاهرون بوجوب الثأر للشهداء، والالتجاء إلى القوة المسلحة لمحاربة الأعداء، وجرت فى العواصم العربية مظاهرات ومهرجانات تحتفل بالقسّام ورفاقه الشهداء.

وكان لحركة «القسّام» واستشهاده أكبر الأثر فى إشعال نيران الغضب والثورة، وغدا الشعب برمته مؤمنًا بوجود النضال الفلسطينى المسلح.

لم يؤد استشهاد الشيخ «عز الدين القسام» وبعض زملائه فى معارك أحراج «يعبد» إلى ما كان يأمله الأعداء من توقف الجهاد، فما لبث القساميون أن أعادوا تنظيم أنفسهم، واختاروا «خليل محمد عيسى» ـ أبا إبراهيم الكبير ـ لقيادة

منظمتهم التى ازداد عدد أفرادها بشكل كبير، لما أثارته بطولة «القسام» ورفاقه من حمية فى النفوس، حيث بادر الكثيرون من الشباب بالإنضام إلى صفوف المجاهدين، يحفزهم إلى ذلك استشهاد «القسام» والروح الثورية التى بثها فى حياته وجسّدها فى مماته.

وأصبح رجال «القسام» وجعًا فى قلب السلطات، حيث اختاروا شمال فلسطين (أقضية حيفا وعكا وصفد والناصرة) قواعد لأعمالهم، واعتصموا بصورة خاصة فى الجبال الشاهقة المعروفة فى شمال البلاد.

واستأنفوا شن هجماتهم الشديدة الموجعة على المستعمرات الصهيونية وقوات الجيش البريطانى والشرطة.

وقد شهدت دالية الكرمل وشعبا والمغار ولوبيه وصفوريه وغيرها، معارك خطيرة بين القسامين والأعداء، استشهد فيها بعض المجاهدين، وهلك من الأعداء كثيرون.

روح القسام

نعم مات «القسام» شهيدًا، ولكن روحه أيقظت الشعور الوطنى وأشعلت نيران الثورة وأوقدت الحماس فى نفوس أبناء فلسطين، وأرهب «القساميون» قوات العدو طوال الأشهر الستة التى أعقبت استشهاد قائدهم، ولما نشبت الثورة الفلسطينية فى مطلع مايو «آيار» ١٩٣٦، انضموا إليها، وقاموا بأعمال مجيدة تُسجل لهم بغبطة وافتخار.

وتمر الأيام ويبقى «القسام» رمزاً وعلمًا باقيا مرفوعًا عاليًا فى سماء الجهاد الفلسطينى، تتجسد روح «القسام» فى كل طفل فلسطينى يرمى بحجر فى وجه العدو الإسرائيلى، وكل فدائى يفجر نفسه بركان غضب يزلزل كيان إسرائيل.

ذهب القسام إلى جنة الخلد وتبقى كتائبه تواصل النضال حتى النصر. وعودة فلسطين السليبة إلى أهلها.



عزيز على المصرى

«أبو الثوار»

- رأس أول جيش عربى وتولى وزارة دفاع الشريف حسين.
- خدم الجيش العثمانى ولم يخن القضية العربية.
- حارب الاستعمار فى ليبيا.. وحقن الدماء اليمنية.
- عرض الإنجليز عليه عرش اليمن فقال: اليمن لأهله وليس لكم.
- استشاره الضباط الأحرار واعتبروه المثل الأعلى.

من الأبطال رجال أثبتوا شجاعة فى زمن الحرب، ومنهم مَن أثبت شهامته ونخوته عند حاجة الناس إليه، ومنهم من اكتفى بالتمسك بأخلاقه فى زمن الشدّة، ومنهم مَن جمع تلك الصفات معًا.

من هؤلاء أبو الثائرين «عزيز على المصرى» الذى ترك بصماته الواضحة على صفحات الجهاد من أجل العروبة والإسلام، حيث شارك بحماسة فى تحرير بقاع غالية من الوطن العربى، ونذر كل ساعة من أيامه من أجل مكافحة الدخلاء المستعمرين.

كان عزيز المصرى إنسانًا فريدا من نوعه، حياته سلسلة من التضحيات والبطولات والمغامرات التى جعلت من اسمه أسطورة تجاوزت مصر والعالم العربى والإسلامى إلى بقاع أخرى من الدنيا.

تعرض الفريق عزيز المصرى لمخاطر وأهوال فى سبيل عقيدته ومبادئه، وصدرت أحكام بإعدامه، ولكنها لم تستطع أن تهز شعرة فى رأسه، وبقى صامدًا لا يلين، يجاهد من أجل مثله العليا، وفى سبيل أحلام بذل الكثير من أجل تحقيقها.

كان عزيز المصرى نموذجًا من الأبطال نادر الوجود، عاش بأخلاق وسلوكيات الفرسان فى تعامله مع كل من عاشرهم من الأهل والأصدقاء ورفاق السلاح، وكان إنسانًا شريفًا فى خصوماته وصداقاته، مسلمًا قولاً وعملاً، يكره الخيانة، ويتمسك بالخط المستقيم فى حياته العامة والخاصة مهما يكن صعبًا.

كان عزيز المصرى شاهدًا حيًا على عدة عصور، وصانعًا لعديد من الثورات أو مشاركًا فيها، شارك عن كثب فى صنع جزء كبير من تاريخ الشرق الأوسط كله

خلال مرحلة التحولات الكبيرة التى حفلت بها المنطقة منذ بدايات القرن العشرين.

كان عزيز المصرى رفيقًا لمصطفى كمال أتاتورك، وقاتل مع الجيش التركى فى الجبل الأسود والبوسنة والهرسك وقاتل الإيطاليين فى ليبيا، وفى أول وزارة للشريف حسين الذى بُويع ملكا على العرب فى أكتوبر ١٩١٦ عيّن رئيسًا لأركان أول جيش عربى فى الحجاز ثم وزيراً للدفاع.

وهو الأب الروحى للضباط الأحرار، عاش بداية الحركة والتمهيد للثورة، وعاصر الأيام الحاسمة قبل قيامها، وبعد أن وضعت أقدامها فى الحكم، وكان عبد الناصر والسادات والضباط الأحرار يستشيرونه فى أمور الثورة، وكان من المفروض أن يكون هو رئيسًا للثورة المصرية إلاّ أنه رفض ليحل محله اللواء محمد نجيب، وقد رسم للثوار خطوط الحاضر والمستقبل.

طفولة بطل

وُلِدَ «عزيز المصرى» فى عام ١٨٨٠م، واسمه الحقيقى «عبد العزيز زكريا على» جاء إلى الحياة ومصر تشهد حالة من الغليان دفعت الضباط المصريين ومنهم أحمد عُرابى للمطالبة بفتح باب الترقى أمامهم إلى المناصب العليا، وعدم قصرها على الضبّاط الشراكسة، وطالبوا أيضا بتحسين أحوال الجنود المصريين وصرف رواتبهم وإلغاء قانون السُّخرة، وكان يؤيد هذه المطالب ويدعو إلى الثورة على الاستعمار والخديوى توفيق قادة الفكر من أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم.

كانت مربيته «مبروكة» لا تفارقه، وكان فى العاشرة من عمره، عندما توفى والده، وكانت والدته تحنو عليه بشدة، لكنها فارقت الحياة بعد أبيه بخمس سنوات، فكفلته أخته من أمه، حرم «على باشا ذو الفقار» مُحافظ القاهرة.

درس المرحلة الابتدائية فى المدرسة التوفيقية، وكان اسمه فيها «عبد العزيز زكريا»، وقد أتم الدراسة الابتدائية عام ١٨٩٨م. وبعد عدة سنوات حصل على

البكالوريا، وكانت رغبته أن يلتحق بالكلية الحربية فى فرنسا، ولكنه كره هذه البلد الذى كان يحتل الجزائر، ورضوخا لرغبة شقيقته وزوجها التحق بمدرسة الحقوق، على غير رغبته ونزعته العسكرية.

وهناك التقى أمير الشعراء أحمد شوقى، الذى كان أحد أساتذته فى تعليم اللغة الفرنسية، وشكا له «عزيز» عدم رغبته فى استكمال الدراسات القانونية، فوعده أن يكون سفيره لدى شقيقته الكبرى زوجة على باشا ذو الفقار.

ونجح «شوقى» فى مسعاه والتحق «عزيز» بالمهندسخانة المصرية لدراسة الرياضيات وعلم المثلثات والعلوم الحديثة، استعداداً للالتحاق بالكلية الحربية فى اسطنبول.

فى سبيل المثل والمبادئ

وهناك أطلقوا عليه «قاهرة لى عزيز على» أى «عزيز على المصرى»، وهكذا أصبح اسمه فى التاريخ «عزيز المصرى»، وفى الكلية الحربية التركية كان دائما من الأوائل، وكان ترتيبه الحادى عشر فى مجموع سنوات الدراسة، مما ساعده على الالتحاق بكلية أركان حرب، التى تخرج فيها عام ١٩٠٥.

وأثناء سنوات الدراسة أُعجب بالضباط الألمان الذين كانوا يقومون بالتدريس، واحترم فيهم العقلية الجادة والتفكير السليم، واحترام الإنسان، وتقديس العمل، والتضحية بكل شىء فى سبيل المُثل والمبادئ.

وكان قد التقى أثناء وجوده بالكلية الحربية بعدد من الشباب العرب والأتراك الساخطين على الحكم العثمانى، من بينهم نورى السعيد، وجعفر العسكرى ومصطفى كمال أتاتورك، وكان أتاتورك قد كوّن مع مجموعة من الساخطين على السلطان العثمانى عبد الحميد «جمعية الوطن» عام ١٩٠٦م، ثم انُضمت هذه الجمعية إلى جمعية «الاتحاد والترقى»، التى كانت تهدف إلى خلع السلطان عبد الحميد، وإقامة دولة تركية ديمقراطية.

وهى الجمعية التى كان «المصرى» عضوا فيها، وانتهت جهود الجمعية بثورة شاملة عام ١٩٠٩م أسفرت عن عزل السلطان عبد الحميد، ونفيه وتعيين السلطان محمد الخامس بدلاً منه.

حامل لواء العروبة

بعد استيلاء الاتحاديين على أمور البلاد دبّ الخلاف بينهم وبين الضباط العرب، الذين كانوا يأملون فى الحصول على نوع من الحكم الذاتى لبلادهم، فلمّا لم يتحقق ذلك بدأت الدعوة إلى العروبة يشتد عُودها وكان لعزيز المصرى دور كبير فى هذه الدعوة، وقد عُرف أنه حامل لواء الوحدة العربية، وأول الداعين إلى إنشاء قومية عربية، والاستقلال عن الدولة العثمانية ولهذا اختاره الضباط العرب لقيادتهم لما لمسوا فيه من وطنية صادقة وشجاعة هائلة وقيادة حكيمة.

انفصلت العناصر العربية عن جمعية «الاتحاد والترقى» وكوّن المصرى جمعية «القحطانية»، إلاّ أن ثورة اليمن ضد الحكم العثمانى قامت عام ١٩١١م، وذهب «عزيز المصرى» على رأس الجيش التركى لقمع الثورة، وتمكّن من حقن دماء الطرفين، بعقد صلح مع يحيى حميد الدين إمام اليمن. ثم سافر «عزيز» بعد ذلك إلى ليبيا لمحاربة الإيطاليين.

جمعية العهد

عاد «المصرى» إلى «الأستانة» سنة ١٩١٣م، فى وقت بلغ العداء والاضطهاد التركيان للعرب ذروتيهما، فاستقال من الجيش، وتفرّغ للعمل ضمن صفوف الحركة العربية، وأسس فى العام ذاته بالتعاون مع مجموعة من الضباط العرب «جمعية العهد» التى ضمت فى عضويتها ٣١٥ ضابطا من جملة ٤٩٠ ضابطا عربيًا كانوا يخدمون فى الأستانة، وكان برنامج «العهد» يقوم على إنشاء اتحاد فيدرالى يضم كل الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية من الأتراك والألبان والبلغار والعرب، بما فى ذلك مصر والسودان وطرابلس والمغرب وتونس، على أن تنشىء

كل قومية فيها كيانًا إداريًا مستقلاً، ويكون السلطان العثمانى، أو من يُنتخب بدلاً منه رئيسًا رمزيًا لا فعليًا للاتحاد.

أما بشأن الدين، فقد دعا «عزيز المصرى» من خلال دستور الجمعية إلى وجوب التسامح الدينى إلى أبعد حد فى النظام الجديد. وأن معرفة الله من قبل جميع الطوائف يمكن أن يكون القاسم المشترك بينها ليستغنى عن بقية التفاصيل مع الزمن والرقى. وكان للجمعية فروع فى العديد من الدول العربية.

محاكمة واتهامات باطلة

تزايد النشاط القومى لعزيز المصرى دفع السلطات التركية لاعتقاله فى فبراير عام ١٩١٤، وقدمته إلى المحاكمة، ناسبة إليه عددًا من الاتهامات الباطلة، وحكمت عليه المحكمة العسكرية التركية بالإعدام وهو ما استثار حركة معارضة قومية فى كافة الأقاليم العربية، ووصلت البرقيات والخطابات من أنحاء العالم العربى، تطلب من السلطان محمد رشاد محاكمة أنور باشا الذى كان وراء المحاكمة وأن يطلق سراح البطل عزيز المصرى، وكتب أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدة إلى السلطان يشيد بالمصرى بطل اليمن وليبيا ومنها قوله:

قل للإمام محمد ولآله	صبر العظام على العظيم جميل
أن تفقدوا الآساد أو أشبالها	فالغاب من أمثالها مأهول
صبرا فأجر المسلمين وأجركم	عند الإله وأنه لجزيل
يامن خلافته الرضية عصمة	للحق أنت بأن يحق كفيل
والله يعلم أن فى خلفائه	عدلاً يقيم الملك حين يميل
والعدل يرفع للممالك حائطًا	لا الجيش يرفعه ولا الأسطول
هذا مقام أنت فيه محمد	والرفق عند محمد مأمول
بالله، بالإسلام بالجرح الذى	ما أنفك فى جنب الهلال يسيل

ألا حللــت عــن السجين وثاقه	إن الوثاق علـى الأسود ثقيل
أيقول واش أو يـــردد شامــت	صنديـد بـرقـة موثــوق مكـبول
هو من سيوفك أغمدوه لريبة	مــا كـــان يغمد سيفك المسلول
فـــاذكـــر أميـــر المؤمنـين بـلاءه	واستبـقـه أن الـسـيوف قـليـــل

واضطر السلطان إلى الإفراج عن «عزيز المصرى» الذى عاد إلى مصر، حيث وصل إلى الإسكندرية، ثم ركب القطار إلى القاهرة، وهناك كانت مظاهرة ضخمة من الرجال من جميع الأعمار، يتقدمهم رجال الدين والأعيان، فى استقباله وهم يهتفون:

«عاش عزيز المصرى، عاش بطل اليمن وبرقة وبنغازى وطبرق».

وحدة العرب

إلا أن الثائر لا يهدأ، فالمصرى لا همّ ولا تفكير له إلاّ وحدة العرب واستقلالهم، وما أن أعلن الأميران على وفيصل نجلا الشريف حسين فى الخامس من يونيو عام ١٩١٦م استقلال العرب عن الحكم التركى، واشتعلت شرارة الثورة العربية فى الحجاز، سافر «عزيز» إلى هناك للإسهام فى تنظيم الجيش العربى، وعينه الشريف حسين وكيلاً لوزارة الحربية، وقائدًا لجيش العرب، فحقق إنجازات كبيرة فى بناء الجيش وقيادته نحو النصر، وعندما ثبتت الثورة أقدامها، أعلن الشريف حسين نفسه ملكا على البلاد العربية فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٦، وشكل حكومته التى تولى فيها «عزيز المصرى» وزارة الحربية ورئاسة الأركان.

وفى الوقت الذى كان فيه «عزيز المصرى» حريصًا على تأمين الدعم البريطانى للثورة كشرط ضرورى لانتصارها، فإنه كان حذرًا تجاه الأطماع البريطانية فى الوطن العربى، لذلك نجده يسارع بتحذير الشريف حسين فى مارس ١٩١٧م، من إتفاق الإنجليز والفرنسيين على تقسيم العالم العربى بينهما فيما عُرف بإتفاق «سايكس - بيكو»، وهو الاتفاق الذى كانت أخباره قد وصلت إلى «عزيز

المصرى» قبل إعلانه بوقت طويل، ولكن بسبب الثقة المفرطة التى أولاها الشريف حسين للإنجليز، فإنه لم يصدق عزيزا، فآثر الإنسحاب، وعاد إلى مصر فى نفس الشهر، ليبرهن سير الأحداث بعد ذلك صحة موقفه وعمق بصيرته.

من إسبانيا إلى ألمانيا

كانت دسائس الإنجليز سببًا فى حدوث الخلاف بين «عزيز المصرى» والشريف حسين، لأن المصرى رفض مراراً عرضًا من الإنجليز بالتعاون معهم، وكان يعرف حقيقة أطماعهم فى البلاد العربية، ولذلك ما إن وصل إلى القاهرة، حتى بدأت مضايقاتهم له خاصة بعد أن رفض التعاون معهم فى العراق واليمن التى عرضوا عليه أن يكون ملكًا عليها، فرد عليهم بقوله: «كيف أجلس على عرش اليمن وهو ملك لأهله وليس ملكا لكم.. إننى أرفض جميع هذه العروض».

فما كان منهم إلا أن خيروه بين السفر إلى سويسرا أو أسبانيا فسافر إلى أسبانيا منفيًا، وكان هذا هو الإجراء المتوقع بعد أن فشلت محاولاتهم لإقناعه بالانضمام إليهم، وخوفًا من أن يثير القلاقل داخل مصر.

ومن إسبانيا سافر «عزيز» إلى ألمانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى استجابة لرغبة أصدقائه الألمان، خاصة «المارشال لوندروف» وبتوصية من «كمال أتاتورك» الذى أشاد بعبقرية «المصرى» وطالب بتذليل أية عقبة أمامه فى الحياة داخل ألمانيا.

وفى ألمانيا عمل «عزيز المصرى» مُدرسًا فى كلية أركان الحرب، حيث كان يُدرِّس تجربته فى حربه ضد البلغار، وأسلوب حرب العصابات الذى ابتدعه وسط المناطق الجبلية ووسط الصحراء والغابات فى ليبيا ضد الإيطاليين.

رشوة إنجليزية

ظل البطل «المصرى» منفيًا عن بلاده حتى عاد إلى مصر سنة ١٩٢٤. بعد أن وصل حزب الوفد إلى الحكم. وبعد شهور قليلة من عودته تلقى رسالة من

صديقه وزميله فى الجيش العثمانى الضابط «ياسين الهاشمى» الذى أصبح رئيسًا لوزراء العراق، يطلب منه سرعة التوجه إليه، فلبّى الدعوة، حيث التقى العديد من رجال «جمعية العهد» الذين كانوا ضباطا عراقيين فى الجيش العثمانى، ثم جاءوا للعمل فى الجيش العراقى.

أخبره «ياسين الهاشمى» أنه يفكر فى عمل إنقلاب عسكرى فى العراق، وتحقيق حلمهم القديم بجعل بغداد نقطة الإنطلاق كبلد عربى مستقلّ تكون البداية لتحرير البلاد الأُخرى. وطلب منه مساعدته على وضع الخطة المناسبة. ولم يسترح الإنجليز لوجود «المصرى» فى العراق، فاستدعاه المندوب السامى البريطانى، وسأله عن سر وجوده، فردّ عليه «عزيز» بتساؤل آخر عن الذى يفعله هو - أى المندوب السامى - فى العراق، وهو الإنجليزى الأجنبى، بينما «عزيز» يعتبر وجوده فى العراق وطنه العربى أمرًا طبيعيًا لا يُسأل عنه! وعرضوا عليه تعيينه رئيسًا لشركة نفط العراق براتب قدره خمسة آلاف جنيه وبيت عريق وأنيق فى لندن، ولكنه رفض، فكان من الطبيعى أن تصدر الأوامر بإبعاده عن العراق.

وكان خلال إقامته هناك قد تزوج من الأمريكية «فرنسيس» ابنة أحد أثرياء النفط الأمريكيين والتى كان قد تعرف عليها فى القاهرة قبل سفره.

العودة إلى القاهرة

وعاد «عزيز المصرى» إلى القاهرة عام ١٩٢٦م. وأقام هو وزوجته «فرنسيس دريك» فى شقة بالدور الأخير بإحدى العمارات المقابلة لدار المندوب السامى البريطانى، وكانت المشكلة التى تواجهه هى تدبير النقود التى يمكن أن تكفيه هو وزوجته وطفله القادم، خاصة وأنه لم يكن له عمل أو دخل ينفق منه، فاضطر إلى الإستدانة، إلى أن عُينت زوجته مُدرّسة للغة الإنجليزية فى كلية البنات.

وبدأ يكتب مقالات أدبية وسياسية فى مجلة السياسة الأسبوعية التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين، تناول فى بعضها تاريخ الإسلام والمسلمين، وفترات الصحوة والفتوحات فى عهد الدولة الأموية فى الشرق والغرب، كما

كتب عن الحال التى وصلت إليه الدولة العثمانية، وكيف فتح هذا الضعف الباب أمام الاستعمار الإنجليزى والفرنسى ليملأ فراغ الضعف العثمانى، كما نادى فى مقالاته بتجمع واتحاد الأفكار والمبادئ والمصالح بين المسلمين عامة والعرب خاصة.

مدير كلية الشرطة

وتقديرًا لدوره الوطنى والقومى، واعترافًا بعبقريته العسكرية اختاره محمد محمود باشا رئيس الوزراء المصرى عام ١٩٢٨ مديرًا لكلية الشرطة «البوليس»، فاستحدث فيها أساليب جديدة فى التعليم والتدريب والتربية لم يجر العرف على العمل بها، فوضع قوانين جديدة واختار أعضاء هيئة التدريس من بين الضباط الأكفاء فى مصر، وأدخل الدراسات القانونية والإدارية وعلوم الشرطة، واهتم باللياقة البدنية. وأدخل لأول مرة سلاح الكلاب البوليسية.

وكان يجلس مع الطلبة يحدثهم عن الإسلام والمسلمين، وضرورة التحلى بالأخلاق الكريمة، وأن يرعى القوى الضعيف ويساعده، وأن يحترم الصغير الكبير.

وقام باستضافة رجال الفكر والأدب وكبار الشخصيات للتحدث إلى طلبة الكلية فى مناقشات عامة، وكان من ضيوفه الذين شرفت بهم مدرسة البوليس: طه حسين، منصور فهمى، عبد الرحمن عزام، صالح حرب، ومحجوب ثابت وغيرهم.

وألغى عزيز المصرى من الكلية نظام المراقبة أثناء الامتحانات، وكان من رأيه أن الضابط الذى سيتولى مهمة حراسة الشعب والمحافظة على أمنه، هذا الضابط يجب عند دراسته فى المدرسة أن يتعلم ويتعود أن يثق فى نفسه حتى يثق فيه الناس، ويجب أن يتعلم الأمانة ليكون أمينًا مع نفسه ومع جميع المواطنين.

ومن العلوم الأخرى التى أدخلها «عزيز المصرى» إلى كلية البوليس؛ التصوير والرسم ومبادئ الطب الشرعى.

وأصبح لهذه الكلية صيت واسع نظرًا لما بذله عزيز المصرى من جهد واضح، وما عُرف عنه من الحزم والجدية، وعبقرية التنظيم والإدارة والمعرفة الموسوعية. مما أثار انتباه وإعجاب الملك فؤاد، ملك مصر، فزار الكلية وأثنى على كل شىء شاهده، ولم يصدق أن هذه الكلية فى مصر.

مُعلم الملك

ولشدة إعجاب الملك فؤاد بعزيز المصرى وما أحدثه فى كلية البوليس من تطوير اختاره ليكون الرائد الأول للأمير «فاروق» ولى العهد عندما أرسله إلى إنجلترا سنة ١٩٣٥ ليستكمل دراسته بها.

ويومها قال الملك فؤاد لعزيز المصرى: «يا عزيز لقد اخترتك لأننى أعجبت بطريقتك وأسلوبك وعسكريتك فى قيادة مدرسة البوليس، وأنا أريد لولى العهد رجلاً على مثل شاكلتك، وإننى أعطيك كافة الصلاحيات لمباشرة هذه المهمة، كما أعطيك حق مراسلتى بشكل دائم لأقف على حياته وسلوكياته وانتظامه فى الدراسة، وأنا لا أطلب الحجر على حريته، ولكننى لا أريد لشبابه أن يصب فى قنوات تسىء إليه، وإلى بلده، لأنه يومًا ما سوف يجلس على عرش مصر، وبقدر العطاء الذى يحصل عليه منك، بقدر ما سوف يقربك إليه ويثق فيك وهذا ما أريده».

واعتقد «المصرى» أنه يمكن أن يجعل من الملك القادم حاكما يحب ويحترم شعبه، ويحبه الشعب، ولكن أحمد حسنين الذى كان يرافق فاروق حال دون تحقيق ذلك، وأفسد ولى العهد، مما جعل عزيز المصرى يكتب إلى الملك فؤاد ليعفيه من هذه المهمة.

أكثر من خصم

فى وزارة «محمد محمود باشا» التى شكلها عام ١٩٣٨، خاض رئيس الوزراء الذى كان يؤمن بوطنية «عزيز المصرى» وعبقريته العسكرية معركة ضد القصر والإنجليز لتعيين المصرى رئيسًا لأركان حرب الجيش المصرى، وهدد بالاستقالة إن لم يحدث ذلك.

وكسب محمد محمود المعركة وتم تعيين «عزيز المصرى» بعد أن رُقى إلى رتبة الفريق مفتشًا عامًا للجيش المصرى، ليكون بذلك أول مصرى يشغل هذا المنصب، بعد أن كان يشغله دائمًا انجليزى.

كانت مهمة «المصرى» تطوير وتحديث الجيش المصرى، وحاول أن يقوم بها خير قيام وهو القادر على ذلك، ولكنه وجد معارضة شديدة من الملك فاروق ومعه أحمد حسنين الذى أصبح رئيسًا للديوان الملكى من جهة والإنجليز من جهة ثانية، وهم لا ينسون له رفضه التعاون معهم عبر تاريخه الطويل. وأيضا الأحزاب التى كان يرى أنها فشلت فى تحقيق أى مطلب وطنى أو تحقيق طلبات طبقات الشعب المطحونة ورفع المعاناة عن الفلاحين. مما أدى إلى تجميد مهمته وسحب جميع اختصاصاته، مما دفعه إلى الجلوس فى بيته وخلع رداء العسكرية، الذى تحول إلى مجرد ذكريات كلها ندم وحسرة على الدولة الضعيفة، التى توضع سياستها فى إنجلترا، لضعف عام فى رجالها وأحزابها وجيوشها وحاكمها الذى نسى نفسه أمام شهوة الحكم، وبالتالى نسى شعبه.

الثائر دوما

ولكن قدر «عزيز المصرى» كان أن يكون ثائرًا باستمرار، بعد عزله من منصبه الذى لم يقض فيه أكثر من سنة. كان يكره الإنجليز ويرى فى التعاون مع الألمان ضرورة للانتقام من الإنجليز، خاصة بعد إعلان الحرب، وبعد أن علم أن الإنجليز فى حربهم ضد الألمان كانوا يخططون لإغراق الدلتا بالمياه ونسف جميع الكبارى والقناطر، ومعنى ذلك إغراق شعب مصر بالمياه، وتعريضه للموت غرقًا ونقص الغذاء وتفشى جميع الأوبئة، وكل ذلك من أجل صالح وعيون الإنجليز وبحجة منع تقدم القوات الألمانية داخل الأراضى المصرية وقد وضع هذه الخطة ونستون تشرشل.

صديق هتلر

من أجل ذلك أراد «المصرى» أن يلتقى برومبل وهتلر ومحاولة إقناعهما بأهمية العون المصرى ضد الإنجليز، وأن يقابل هذه المعونة شرط

استقلال مصر. ومن هنا كان من الضرورى أن يغادر مصر من أجل اللقاء مع الألمان.

وكانت المحاولة الأولى للقاء الألمان كما خططوا لها أن تهبط طائرة ألمانية فى «الخطاطبة»، ثم تغيرت الخطة لتهبط الطائرة جنوب غرب أهرامات الجيزة، وركب «عزيز» سيارة إلى المكان المحدد، واقتربت العربة وسط الظلام الحالك، وفجأة على غير انتظار تعطلت العربة، وفشلت محاولات إصلاحها، لتفشل معها محاولة اللقاء الأولى.

محاكمة عسكرية

أما المحاولة الثانية فكانت سنة ١٩٤١ بالاتفاق مع ضابطين من سلاح الطيران، هما حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف، واستقلوا الطائرة بالفعل. ولكنها سقطت لخلل فنى بها، وتم القبض عليهم بواسطة البوليس السياسى، ويحال الفريق «عزيز المصرى» إلى محاكمة عسكرية، ورغم الرقابة الصارمة على أنباء المحاكمة، لقيت تعاطفا كبيرًا من الشعب الذى التف حوله، وتشكلت هيئة للدفاع عنه، كان من بينهم فتحى رضوان، أثارت الهيئة مسألة عدم دستورية قانون الأحكام العسكرية الذى يحاكم «عزيز» بموجبه، لكونه عند صدوره عام ١٨٨٤م لم يُعرض على البرلمان ليأخذ الصفة القانونية الرسمية، مما أدى إلى إيقاف المحاكمة، مع بقاء اعتقال «عزيز المصرى» ولم يُفرج عنه إلا بعد تشكيل حكومة مصطفى النحاس فى ٤ فبراير ١٩٤٢م.

وكأنما الاعتقالات بعد ذلك كانت جزءًا من شريط حياة «عزيز المصرى» فقد تم القبض عليه بعد اغتيال أمين عثمان فى يناير ١٩٤٦، ومن قبلها فى فبراير ١٩٤٥ بعد اغتيال أحمد ماهر رئيس وزراء مصر، ومن بعد اغتيال النقراشى فى ديسمبر ١٩٤٨، كما كان هناك تفكير جدى فى القبض عليه بعد حريق القاهرة فى يناير ١٩٥١.

كتائب التحرير

الوطنية والدفاع عن البلاد والعمل الجاد ضد المستعمر دفع «عزيز المصرى» رغم تقدم عمره أن يقدم مذكرة إلى الحكومة الوفدية يعرض فيها خدماته العسكرية مع كتائب التحرير، التى تشكلت بمباركة الحكومة لمقاومة قوات الاحتلال على امتداد خط ومدن قناة السويس، بعد أن ألغى مصطفى النحاس فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ معاهدة ١٩٣٦، واتفاقيتى مصر والسودان بين مصر وبريطانيا عام ١٨٩٩م. وتم إسناد المهمة إليه.

واستطاع بخبرته العسكرية الطويلة تقديم المئات من المتطوعين الذين يصلحون للقتال ضد الإنجليز، وقامت الكتائب بأعمال باهرة زلزلت الوجود الإنجليزى، ونسفت العديد من المعسكرات وقطعت إمدادات المياه، ودمرت عشرات العربات، وباتت هذه الكتائب شوكة فى ظهر القوات الإنجليزية إلى أن أصدر فؤاد سراج الدين قراراً بضم الكتائب إلى الحكومة، فشعر «المصرى» أن ذلك يهدف إلى الإقلال من فاعليتها، فأصدر بيانا أدان فيه هذا القرار وهاجم القصر والإنجليز.

ثورة ٢٣ يوليو

كانت المحطة الأخيرة من حياة «عزيز المصرى» العسكرية والسياسية هى ارتباطه بالضباط الأحرار فى الجيش المصرى، وكان أنور السادات أول من التقى به من الضباط الأحرار، حيث كان يزوره فى بيته ضمن غيره من شباب مصر، الذين كانوا يناقشونه فى أمور البلاد السياسية وكان يهمهم أمل ومستقبل مصر. وكان قد تنامى إلى علمه وجود تنظيم شبابى بالجيش يعمل لتخليص البلاد من الملك والإنجليز متأثراً بأفكاره، وإن السادات ضمن هذا التنظيم، ويومها قال له: «لن أسألك من معك؟. ولن أقول لك ماذا تفعلون؟ ولكن على بركة الله ما تعملون وما تخططون وما تدبرون من أجل خلاص مصر من أبطال اللعبة السياسية القذرة، لقد حقق نابليون بونابرت ما حققه وهو فى السابعة والعشرين، لقد

اعتمد على نفسه، ومن هنا يجب أن تعتمدوا على أنفسكم، وتأكدوا أن الله معكم مادمتم قد اتجهتم إليه، بنية خالصة، ومن خلال عمل مخلص أساسه الإيمان العميق بالتغيير، فلن يتخلى الله سبحانه وتعالى عنكم، لأن يد الله مع الجماعة».

وأصبح أنور السادات هو ضابط الاتصال بين «عزيز المصرى» والضباط الأحرار الذين كانوا يذهبون إليه بمقر إقامته بعين شمس، وقد طلب منه جمال عبد الناصر أن يكون قائدًا للثورة، ولكنه رفض رغم سعادته بهذا الطلب لأنه يحب أن تكون القيادة من بينهم، وألا يسلبهم هذا الشرف لأنه يرى فيهم شبابه، ونصحهم بأن يكون صاحب رأى ومشورة ومساعد فى اتخاذ أى قرار وأن يقوم بمهمة الأب الروحى لهم.

وبعد نجاح الثورة نصح «عزيز» جمال عبد الناصر بعدم محاكمة الملك فاروق، والاكتفاء بتنازله عن العرش.

وعرفانًا بالجميل وبأبوته الروحية لهم، اختارت الثورة الفريق «عزيز المصرى» ليكون أول سفير لهم فى الاتحاد السوفيتى، ليعمل على إعادة تسليح الجيش المصرى وأن يكون السلاح الروسى بدلاً للسلاح الغربى، وخلقت جسرًا من التفاهم بين المسئولين هناك وبين قادة الثورة المصرية، أثمرت بعد ذلك عن اتفاقية لتزويد مصر بالأسلحة المتطورة، وكانت بداية علاقات متميزة بين الجانبين.

جهاد مستمر

وأثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ على مصر أسهم فى وضع خطة انسحاب الجيش المصرى من سيناء، وحققت الخطة أهدافها، وتم إنقاذ جزء كبير من الجيش والمعدات. وقد اعترض على دخول الجيش المصرى لحرب اليمن. وظل رغم تقدم العمر به متابعًا لأحوال الوطن حتى وافاه الأجل فى ١٥ يونيو ١٩٦٥. فذهبت روحه إلى الله راضية مرضية، بعد أن قدم لمصر والأمة العربية

والإسلامية أجل الخدمات، وفرض نفسه على التاريخ، وإن كان كتاب التاريخ المتحيزين لم يفوه حقه، ولم يفه أبناء بلده ما يستحق من التكريم والاحتفال، وكأنما كان قدره أن يواجه العقوق حيًا وميتًا، وهو البطل الذى حمل رأسه على كفه دفاعًا عن حرية العرب واستقلالهم.

تحية إلى روح هذا البطل الذى يجب أن يستمد منه شبابنا القدوة فى جهاده وتضحياته فى سبيل حب مصر والعروبة.

أقول الحق حتى لو فقدت حياتى

يقول عزيز المصرى:

«علمتنى الأيام أن أقول الحق حتى لو فقدت حياتى، إن من يقول الحق يعلم خصمه أن يرد عليه بالحق، إن من يقول الحق ينام مستريح البال ويغمض عينيه وهو مستريح الضمير، لقد قلت دائما الحق لأن الله سبحانه وتعالى يطالبنا بذلك، ولأنه يريح الأعصاب، ويخلق المجتمع الصادق».

وصيته إلى الشباب

يقول عزيز المصرى عن الشباب إنهم جيل المستقبل الذى يجب أن نقف وراءهم بكل الحب والحنان والصرامة إذا كان ذلك ضروريًا، ويجب أن نحيط هذه الصرامة بسياج الحكمة والصبر حتى لا يضيع الشباب، فالشباب الضائع نكسة لوطنه، وكم من شباب ضائع قاد وطنه وأهله إلى الضياع والانحلال.

وعلى الشباب أن يتعلم ويقرأ وأن يكون لديه أخلاق، إن أول كلمة وأول حوار، وأول الرسالة المحمدية كانت قول جبريل عليه السلام لسيدنا محمد ﷺ «إقرأ» القراءة هى البداية ويجب أن تكون النهاية».

نعيم الدنيا والآخرة

يقول عزيز المصرى:

«علمتنى الحياة أن أعرف الله سبحانه وتعالى.. أن الناس والبشر الذين ينسون الخالق يعيشون فى وهم كبير، وهذا الوهم يجرهم إلى مزالق كثيرة أبعد ما تكون عن الاستقرار النفسى والروحى. فمن يبتعد عن الله يعش طوال حياته فى صراع عقلى جبار، يحارب فيه أشباحًا مخيفة صنعها تفكيره المظلم، يجب أن نراعى الله فى القول والفعل فى السر والعلانية لنفوز بنعيم الدنيا والآخرة».



عمر المختار

شيخ الشهداء

- خاض ١٠٠٠ معركة، منها ٢٦٣ فى ٢٠ شهراً.
- جاهد ضد الفرنسيين في السودان.
- كان يقوم باستكشاف مواقع العدو بنفسه.
- يوم استشهاده يومٌ للحداد الوطنى فى ليبيا.

في سجلات البطولة والجهاد ضد المستعمر واستقلال الأوطان، يحظى المجاهد الليبي عمر المختار بحظ وافر من صفحات النضال والكفاح، وبذل الروح والنفس محاربًا غطرسة الإيطاليين، الذين أرادوا طمس الهوية الليبية وتحويل ليبيا إلى مستعمرة تابعة لهم يتحول فيها أهل البلاد إلى عبيد يخدمون السادة الطليان.

استمر عمر المختار رافعًا راية الجهاد طوال ٢١ عامًا، خاض خلالها أكثر من ألف معركة مع الإيطاليين، منها ٢٦٣ معركة فى مدة لا تتجاوز عشرين شهراً، وهى المدة التى تبدأ بتولى «غراتسيانى» قيادة الجيش الإيطالى فى برقة، وتنتهى بموت عمر المختار (سى عمر) يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١.

ذهب عمر المختار ذلك اليوم، ضحية الغدر وشهيد الوفاء، نتيجة غدر الطليان به، وقد وقع أسيراً فى أيديهم طاهر الصحيفة، لم يدنس تاريخه العسكرى بأى جريمة ولا عمل صغير مخالف لأصول الشرف ومقتضيات المروءة. وشهيد الوفاء، فقد قال حينما توجه للجهاد سنة ١٩٢٣، بعد أن اشتد حوله الحصار وأصبح الجهاد ميئوسًا منه: «ما الفائدة من العيش مهاجراً ذليلاً؟ يجب أن أعود لأموت وأؤدى بذلك آخر حق علىّ لله ولبلادى».

وقعت ليبيا فريسة فى أيدى الإيطاليين فى ٢٩ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩١١. رفع الليبيون رايات الجهاد أمام حملات الاستيطان والتبشير والتطهير العرقى ومحاكم التفتيش التى أقامها الإيطاليون. على غرار ما حدث فى إسبانيا إبان العصور المظلمة فى القرن الثانى عشر.

نشأة المختار

كان عمر المختار أحد أهم رايات الجهاد الليبى ضد الاستعمار. ولم يكن

المجاهد الوحيد ولا الشهيد الوحيد فى قوافل وجيوش المجاهدين والشهداء الليبيين. وإنما شكلت ظروف استشهاده حالة فريدة، سجلت سطوراً متلألئة فى صفحات التاريخ العربى والإسلامى ضد محاولات النيل منه وطمس هويته ومعالمه. فقد كان عمر المختار شيخ المجاهدين أثناء الجهاد. وتحول باستشهاده إلى شيخ الشهداء فحاز الحسنيين. كان المختار علمًا مشهوراً. فهو ابن مختار بن عمر المنفى من قبيلة «المنفة» أهم القبائل الليبية، ضمن قبائل أولاد على الكبيرة، المنتشرة فى أراضى مصر وبرقة الليبية. وكان مولد عمر المختار سنة ١٨٦١ فى قرية جنزور، التابعة لمنطقة «دفنه». وتقول رواية أخرى إنه ولد فى برقة عام ١٨٥٨، وتوفى والده المختار ووالدته عائشة، وهما فى طريقهما إلى أداء فريضة الحج.

رجاحة وصلابة

بلغ عمر السن، التى تؤهله لحفظ القرآن الكريم، فبعثه والده المختار إلى زاوية السنوسية فى الجغبوب ليقرأ فيها القرآن وما تيسر من العلوم، وقد ظهر عليه من دلائل النجابة ورجاحة العقل مما لفت إليه انتباه المهدى السنوسى، وكان صاحب الجاه العريض والسلطان النافذ فى برقة، فصار موضع اهتمامه وأحله من عنايته أعلى مراتبها. فما كاد يُتم حفظ القرآن ودراسة بعض العلوم حتى انتشر ذكره وتناولته الألسن بالثناء، واحترمته قبائل العرب لعراقة بيته ولمكانته السنوسية. ولاّه المهدى شيخًا على زاوية القصور فى الجبل الأخضر قرب مدينة المرج، حيث قام بتعليم أولاد المسلمين وإكرام من يأوى إلى تلك الزاوية من الفقراء وعابرى السبيل، وفض المنازعات بين قبائل العرب والسعى فى مصالحهم، وكان اختياره شيخًا لزاوية القصور لغرض نبيل، ذلك أن تلك الزاوية تقع فى حوزة قبيلة العبيدات، التى اشتهرت بالاستقلالية وفيها أفراد صعب مراسهم. وكان المختار لدماثة خلقه وصلابة عوده أهلاً لترويض هذه النفوس.

ونال عمر المختار لقب «السيد» من انتسابه إلى السنوسية، ووقعت أمور

عارضة اقتضت سفر المهدى إلى السودان، فاختار عمر المختار لمرافقته فى ذلك السفر الطويل. وكان عمر محل ثقة المهدى، الذى عينه شيخاً لزاوية فى السودان، واستمر نائبًا عن المهدى هناك، حتى عاد إلى برقة شيخًا لزاوية «القصور» مرة ثانية، واستمر يدير شؤونها حتى احتل الإيطاليون ليبيا، فكان أول من لبى نداء الوطن وباشر الجهاد.

شيخ المجاهدين

كان عمر المختار فى طليعة المجاهدين الليبيين، حيث أسهمت نشأته الدينية وجهاده فى السودان ضد الفرنسيين فى غرس قيمة الجهاد والكفاح من أجل الاستقرار والاستقلال والدفاع عن الدين والوطن داخل نفسه، برز مردود عمله أثناء التصدى للعدوان الإيطالى عام ١٩١١، عندما أنذرت إيطاليا السلطنة العثمانية بعدم معارضة احتلال الأراضى الليبية، وشنت بعد إنذارها الحرب فى ٢٩/٩/١٩١١ وساعدتها القوات الإنجليزية، بمنع عبور الإمدادات العثمانية إلى ليبيا عبر الأراضى المصرية، مما سهل على الطليان احتلال طرابلس الغرب وبعدها درنة وبنغازى وطرابلس، وبدأت معركة الجهاد الإسلامى الليبى ضد الإيطاليين، وقاد العلماء طلائع المجاهدين ضد الغزاة، وتصدى الفرنسيون للتونسيين، بعد أن قاد حزب «تونس الفتاة» حملة للتضامن مع الشعب الليبى ضد الاحتلال. ومن هنا بدأ التحالف الإيطالى الفرنسى ومعهما الإنجليز والإسبان، للسيطرة على شمال أفريقيا، حيث سيطرت إسبانيا على جزء من المغرب، وسيطرت فرنسا على تونس والجزائر، وسيطرت إيطاليا على ليبيا والحبشة، وسيطرت بريطانيا على مصر والسودان.

لم يهدأ العدوان الإيطالى على ليبيا، حيث استهدف المناطق العامرة بالسكان بغية القضاء عليهم تمهيدًا للاستيطان، ونتج عن ذلك نزوح آلاف الأسر عن ديارها إلى بلدان أخرى، لكن ذلك لم يحد من متابعة رسالة الجهاد. وبدأ تفعيل المقاومة بشكل أكبر ومنظم. لكن الفتن الداخلية والنزاعات العشائرية أضعفت

موقف المجاهدين فى عدد من مناطق المقاومة. وبرغم ذلك تجدد الجهاد فى «برقة» فى شرق ليبيا بقيادة الشيخ عمر المختار.

استنزاف

ازدادت شراسة المعارك، وشعر شيخ المجاهدين بخطورة الموقف، فشكل قيادة عليا للمجاهدين تكونت برئاسته وضمت القبائل العربية الليبية، التى جاءت من شبه الجزيرة العربية أيام الفتوحات الإسلامية، والقبائل الأخرى، ولم يقتصر الجهاد على أبناء القبائل، بل انضم إليهم أيضًا، عدد كبير من المجاهدين، الذين قدموا من غربى ليبيا ووسطها وشمالها. وتعاضد الليبيون ضد العدوان، مما أجبر الإيطاليين على اتخاذ خطوات إرهابية قتالية، وظن الإيطاليون أنهم بذلك قد يصلون إلى بغيتهم ويحققون هدفهم، ولكن ما أبداه عمر المختار من النشاط فى الغزو والهجوم والثبات والإقدام وشدة البأس والإيمان، أفشل مخططهم.

وقد حصل انقلاب سياسى فى الحكومة الإيطالية، بسبب الخلاف على السياسة، التى يجب اتباعها للتعجيل بالقضاء على عمر المختار.

ففى ديسمبر ١٩٢٨ استقال وزير المستعمرات فى روما وحاكم طرابلس وحاكم برقة، وأعلن موسولينى توحد الإدارة فى طرابلس وبرقة، وعين «الجنرال بادوليو» حاكمًا عليها، وكان من أشهر القادة الطليان فى الحرب العالمية الأولى واشتهر بالثبات والإقدام. وكان موسولينى يرى فيه المنقذ الوحيد للسياسة الإيطالية فى طرابلس، مما حل بها من الفشل والتذبذب طوال ثمانى عشرة سنة. وبدأ «بادوليو» مهمته بدعوة المجاهدين إلى الاستسلام للحكومة الإيطالية، ووزع منشورات فى جميع المناطق يدعو لذلك ويهدد بالعقاب الصارم، بلا رحمة لكل من يستمر فى الخروج على الحكومة. وأصدر بادوليو عفوًا عن السياسيين المبعدين، وأخذ يستعد لتنفيذ خطته، التى جاء من أجلها، وهى القضاء على حركة «السيد عمر» تمهيدًا لاستقرار السياسة الاستعمارية الإيطالية فى طرابلس. وأراد «بادوليو» أن يقضى على ثورة المختار عن طريق المفاوضات، فدعاه إليها.

وكان يعتقد أن عمر المختار قد يرضخ مقابل إصدار عفو يكفل له حياته هو ومن معه، نظرًا لموقفه الحرج من انقطاع المواصلات من كل جهة والحصار المفروض عليه.

وظن عمر المختار أن هذه المفاوضات قد تأتى بخير، وليقيم الدليل العملى على حبه للسلام أجاب طلب «بادوليو»، لبدء المفاوضات، وكان من شروط عمر المختار أن يحضر مندوب من طرف الحكومة المصرية وآخر من الحكومة التونسية ليشهدا الشروط المتفاوض عليها، وألا تتدخل الحكومة الإيطالية فى الأمور الدينية للشعب الليبى، وأن تكون اللغة العربية معترفًا بها رسميًا، وأن تفتح مدارس خاصة يُدرَّس فيها التوحيد والتفسير والحديث وعلوم الدين، وألا يُحرم الوطنيون من التعليم العالى، وأن يكون للبلاد رئيس من أهلها ويكونوا أحرارًا فى حمل السلاح للدفاع عن الوطن. لكن «السيد عمر» اكتشف أن هدف المباحثات الإيطالية سواء فى الخارج مع المجاهدين الليبيين أم فى الداخل، ترمى إلى المراوغة وكسب الوقت وتمزيق وحدة المجاهدين، وتأكد «المختار» من نياتهم فأصدر نداءه المشهور عام ١٩٢٩، ودعا مواطنيه إلى المضى فى طريق الجهاد باذلين دماءهم الزكية فداء للوطن وفى سبيل الوصول لتحقيق غايتهم المنشودة. وكان المنشور فى حيثياته يدل على صراحة عمر المختار فى سبيل الوصول إلى التفاهم، فلبى الدعوة إلى المفاوضات وطرح شروطه الأولية وقبل مد الهدنة وانتظر رد الإيطاليين، لكنهم أبوا أن يردوا عليه مع أنهم هم الذين طلبوا الهدنة، ولكنهم لم يطلبوها لتبادل الآراء، بل لتكون طريقا من طرق الخداع الحربية.

عودة القتال

وقد استعمل عمر المختار حقه فى جباية الزكاة من العرب بمقتضى شروط الهدنة، التى سقطت، وعاد القتال بين الطرفين، وامتدت أيدى الطليان إلى كل من أعطى زكاة أمواله لعمز المختار وحُكم على بعضهم بالإعدام، ودارت المعارك الحربية على الأراضى الليبية وتوافق معها حملة إعلامية قادها بشير السعداوى وشكيب أرسلان ضد العدوان الإيطالى. وتكاملت الوحدة الجهادية بين المقاتلين

والكُتاب المناضلين، واشتد سعير الحرب الجهادية، فأرسل الإيطاليون السفاح «غراتسيانى» إلى ليبيا، فاستخدم ما توافر لديه من أسلحة برية وجوية فى الحرب لإبادة الليبيين، وحاصر الحدود الليبية وزرع الألغام ووضع الأسلاك الشائكة وأطلق أيدى حكامه لتنكيل بالليبيين عن طريق «المحاكم الصورية»، التى طبقها لاحقًا. واستمرت المعارك الضارية بين قوى الحق وقوى العدوان فى ظروف غير متكافئة من حيث العدة والعدد.

احتلال الكفرة

وقامت القوات الإيطالية آنذاك بحشد قواتها، وكانت أكبر حملاتها فى تاريخ الاحتلال الإيطالى، لاحتلال «الكفرة» وهى مجموعة واحات فى صحراء ليبيا، وهى أكبر معقل للسنوسية، وفيها من الخيرات الكثير، وجاء احتلال «الكفرة» كالصاعقة على الرؤوس، وأحس بخطرها كل من يهمه أمر طرابلس.

ولم يبق منفذ لعمر المختار يتصل منه بالعالم، بعد احتلال الكفرة إلا الحدود المصرية المخفورة بجيوش إيطاليا وطائراتها، ولكن هذه الجيوش وتلك الطائرات ما كانت تمنع عمر المختار من الاتصال بالأسواق المصرية ليرسل إليها ما يغنمه المجاهدون من الطليان، ويختار منها مايلزم المجاهدين.

وعاد «غراتسيانى» من الكفرة لحصار المجاهدين من ناحية الحدود المصرية، فرأى أن وجود الجنود والطائرات لا يكفى لمنع اتصال المجاهدين بالأسواق المصرية، فأضاف إلى ذلك قوة ثالثة، هى الأسلاك الشائكة لمسافة ثلاثمائة كيلومتر، أصبح المجاهدون بعدها معزولين عن الخارج من جميع الجهات. وقد حاولوا عدة مرات اختراق هذه الأسلاك، لكنها كانت مانعًا قويًا استحال عليهم اختراقها.

المجاهد الأسير

وكان من عادات عمر المختار أن يقوم باستكشاف مواقع العدو بنفسه، ولمعرفة آفاق الهجوم عليها بغتة. وكان يرافقه من أصحابه المجاهدين ما لايزيد على

الأربعين فارسًا، وبينما هو يسير مساء يوم جمعة فى سَرِيَّة من أصحابه فاجأته جيوش الطليان، بعد أن علموا بخبره، وحاول هو وأصحابه الخروج من الوادى الذى هُم فيه، لتفادى محاصرتهم، ففاجأته طليعة أخرى من جنود المعتدين، ونشب القتال بينهم وبين العدو، وقُتِلَ كثير من أصحاب عمر، كما قُتل حصانه فأوقعه على الأرض، وبينما كان يحاول النهوض رآه أحد الجنود فتقدم إليه وقبض عليه. وحضر حاكم المرج فى طائرة خاصة، وقد عرف عمر لمجرد رؤيته، لأنه اجتمع به عدة مرات فى المفاوضات، ونُقِلَ إلى مرسى سوسة، ونُقِلَ منها بحرًا إلى بنغازى ثم إلى السجن، وبقى فيه إلى يوم محاكمته فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣١ حيث عُقِدت محاكمته فى القاعة الكبرى للحزب «الفاشيستى» وهى دار مجلس النواب (السابق) فى بنغازى، وبعد أن اكتملت هيئة المحكمة نودى بالدعرة ضد عمر المختار لاعتدائه على سلامة الدولة، وعلى أمن البلاد ولقطعه الطريق، ثم نودى عليه لاستجوابه.

وكان أول سؤاله: لماذا حاربت الإيطاليين؟ وكان الجواب: «حاربت من أجل دينى ووطنى. . .».

إعدام البطل

وبعد محاكمة قصيرة مدتها نصف ساعة صدر الحكم بإعدام عمر المختار، وفى اليوم التالى مباشرة، صباح يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر ١٩٣١ اتُخذت التدابير اللازمة بمركز «سلوق» لتنفيذ الحكم فيه، وحضر جمع غفير من سكان تلك الناحية والبوادى القريبية منها، وأُحضر جميع المعتقلين السياسيين خصيصًا من أماكن مختلفة لمشاهدة تنفيذ الحكم، وحشد الإيطاليون حشدًا كبيرًا من القوات البحرية والجوية والمشاة لهذا الغرض. وفى التاسعة صباحًا سُلِّم عمر المختار إلى الجلاد، فوضع حبل المشنقة فى عنقه. وبعد بضع دقائق صعدت روحه الطاهرة إلى ربها تشكو إليه ظلم الظالمين، وجور المستعمرين.

وبعد موته رثاه كبار الشعراء كخليل مطران وأمير الشعراء أحمد شوقى الذى قال:

ركـزوا رفاتـك فـى الرمال لواء

يستنهـض الـوادى صبـاح مسـاء

يا ويحهـم: نصبـوا منارًا من دم

يـوحى إلى جيل الغد البغضاء

ما ضر لو جعلوا العلاقة فى غد

بين الشعــوب مـودة وإخـــاء

خُيِّرت فاخترت المبيت على الطوى

لــم تـبن جاهًــا أو تـلــم ثــراء

إن البطولـة أن تمـوت مـن الظمأ

ليـس البطولـة أن تـعـب المـاء

وتخليدًا لذكرى هذا الرجل العظيم، واعترافًا بفضله فى استقلال ليبيا، واستنكارًا لإعدام الإيطاليين هذا البطل، أصدرت اللجنة الشعبية الليبية، قرارًا يقضى باعتبار يوم استشهاده يومًا للحداد الوطنى فى البلاد.



عبد القادر الجزائرى

المجاهد والفقيه الشاعر

- حارب الفرنسيين وكان مثالا للتسامح الدينى.
- هادنه الفرنسيون بعد انتصاره فى معارك ضدهم.
- خان المحتلون العهد فدحرهم إلى السواحل.
- بويع حاكما وعمره ٢٥ عاما، وحكم ١٥ سنة بالشورى وسداد الرأى.
- جمع أخلاق المتصوف المثقف مع العسكرى المغوار ورجل الدولة.



كان ظلام القرنين التاسع عشر والعشرين، حالكا فى عالمنا العربى والإسلامى. ففى أولهما انحدرت الدولة العثمانية إلى أدنى درك، وتفتتت فى مطلع الثانى، ورزح العالمان العربى والإسلامى تحت نير الاستعمار الغربى.

وما عبد القادر الجزائرى، سوى نجم سطع ولمع وتألق فى سماء ذلك الزمن الحالك السواد.

وبيئتنا العربية غنية بالشخصيات الفذة التى طبعت عصرها وكان لها تأثيرها فى معاصريها وفى الأجيال اللاحقة، بما قامت به من أعمال وما سجلته من مواقف، وما أسهمت به من منجزات، مما جعلها قبسات مضيئة فى ذاكرة الشعوب العربية والإسلامية، وحافزا متجدداً لذوى النفوس الأبية الرافضة للاستعباد، وأصبحت مع تعاقب السنين نموذجا يقتدى به كل من يعمل لصالح وطنه وشعبه، ومن هذه الشخصيات رجل ارتبط اسمه بالجزائر، وهو يعرف بالجزائر والجزائر المعاصرة تبدأ به، وتستمر من خلاله، هو الأمير البطل عبد القادر الجزائرى.

حياة هذا الأمير بما تمثله من قيم هى تاريخ الجزائر المعاصرة، فبالأمير يبدأ العصر الحديث فى الجزائر، وبه يرتفع التاريخ ارتفاع الساق والأغصان والأوراق من الجذر.

لقد عبر الأمير عبد القادر عن موقف الشعب الجزائرى الرافض للهيمنة الأجنبية، كما استجاب لتطلعاته فى إنشاء دولة حديثة فى إطار قيمه العربية ومبادئه الإسلامية، فكان بحق ابن بيئته البار، ونتاج ثقافته الأصيلة، ولسان عصره الصادق.

لم يسع عبد القادر الجزائرى إلى الإمارة، بل هى التى سعت إليه، عندما

بحثت الجزائر عن شخص يقودها وهى تواجه خطر محو هويتها وكيانها، فى هذه اللحظات الحاسمة يفتش الوطن عن الشخص الأمة الذى يستطيع أن يستوعب الأمة فى كيانه ويجسدها بأقواله وأفعاله، وكان الاختيار موفقًا، وحتى يعطى الأمير الشرعية لاختيار وجهاء الوطن له أصر على البيعة الشرعية التقليدية، فكانت البيعة الخاصة ثم العامة. وهذا أول درس يعطيه الأمير لكل المتطلعين إلى السلطة فى وطننا العربى، فالسلطة هى اختيار شعبى بإرادة حرة وبإجماع وطنى، وليست كنزًا يستأثر به أصحاب الشوكة.

رمز المقاومة الوطنية

ولم تغير السلطة شيئًا من نمط حياة الأمير، لم يغير الجاه والثروة والقوة من طبيعته ولم تفصله عن الإنسان العادى، ظل بين شعبه لا يفصله عنه أى فاصل، أى أنه تجاوز قرون الظلام وعاد إلى شفافية السلطة فى زمن الخلفاء الراشدين، حين لم يكن بإمكان أحد أن يميز الخليفة عن باقى أفراد الشعب.

وخلال خمسة عشر عامًا تولى فيها الأمير السلطة لم يكن ينفرد بالقرارات المصيرية، بل كان يستشير العلماء ورؤساء القبائل، ويأخذ فتاوى رجال الدين فى مواقفه، ليؤكد أن الحاكم ليس صاحب القرار الوحيد، وإنما القرار هو مسئولية الشعب من خلال ممثليه المعترف بهم.

وحين وجد الأمير أبواب المقاومة قد أُغلقت أمامه، ولم يعد قادرًا على الوفاء بأمانة السلطة، وهى حمل راية الجهاد لإنقاذ الوطن، فضل بعد أن استشار رفاقه أن يتخلى عن السلطة ويستسلم للعدو مرفوع الرأس، ولم يرض - كما رضى غيره - أن يحتفظ بمظاهر السلطة تحت حراب الأجنبى، فهو يرى أن السلطة أمانة ورسالة، وعندما يعجز عن تحملها، فإن التمسك بها يصبح خيانة وتحويلا لها من التكليف إلى التشريف وكانت هزيمته فى المعركة انتصارًا حقيقيًا لشخصه، وتحويل اسمه إلى رمز خالد للمقاومة الوطنية.

سيرة حياة وجهاد

عاش الأمير عبد القادر ثلاث مراحل متميزة بخصوصيتها وأحداثها ودلالاتها، الأولى قضاها فى طلب العلم، وتعرّف فيها على أوضاع البلاد العربية من خلال رحلته لأداء فريضة الحج، وقضى الثانية فى الجهاد ومقاومة العدو، وكانت الثالثة مرحلة غربة، حيث عاش أسيراً فى فرنسا، ومجاهداً محتبسا فى بورصة بتركيا ثم دمشق.

وُلِدَ الأمير عبد القادر فى (١٥ من رجب سنة ١٢٢٢ هجرية/ سبتمبر ١٨٠٧م) بمقر أسرته بالقيطنة، الواقعة على سفح جبل إستانبول على الجانب الأيسر لوادى الحمام، وعلى بعد حوالى ٢٠ كيلومتراً عن مدينة معسكر. وكان رابع إخوته.

ونشأ فى رعاية والده الأمير محيى الدين الحسينى الذى يتصل نسبه بالإمام الحسين، وكان والده مقدم الطريقة القادرية وشيخ زاوية «القيطنة»، وتلقى تعليمه الأولى فى كُتاب الزاوية عن أبيه وبعض شيوخها، فأجاد حفظ القرآن، واستوعب مبادئ العلوم الدينية واللغوية، ثم ارتحل إلى «آرزيو» وهو فى الخامسة عشرة من العمر ليدرس على يد قاضيها الشيخ أحمد بن الطاهر، وانتقل منها إلى مدينة «وهران»، لينتسب إلى مدرسة «أحمد بن خوجه» المخصصة لأبناء الأعيان، حيث أمضى فيها ما يقرب من سنة انكب خلالها على توسيع معارفه اللغوية ومعلوماته الفقهية، وصقل ملكاته الأدبية والشعرية.

واشتهر فى السابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية، حتى كان يشار إليه بالبنان بين الفرسان، لمهارته فى ركوب الخيل.

وفى سنة (١٨٢٣) زوجه والده من ابنة عمه «لالاخيرة»، وصحبه فى (نوفمبر سنة ١٨٢٥)، إلى الديار الحجازية، لأداء فريضة الحج والزيارة، ومرا فى رحلتهما بالإسكندرية وزارا القاهرة، فى عهد محمد على باشا الذى أكرمهما وحاشيتهما ثم واصلا رحلتهما إلى الحجاز عن طريق السويس، وعرجا بعد الحج

على دمشق فأمضيا فيها زمنًا، ثم سارا منها إلى بغداد لزيارة مقام سيدى عبد القادر الكيلانى (مؤسس الطريقة القادرية)، وغادرا بغداد نحو دمشق ومنها إلى المدينة المنورة ومكة لتأدية مناسك الحج والعمرة، ثم عادا إلى وطنهما فى أوائل سنة (١٨٢٨م).

وازداد عبد القادر بعد هذا السفر شغفًا بالعلم، فاعتزل لتحصيله، ولزم الخلوة، حيث عكف على مطالعة كتب العلم والفلسفة، ودرس رسائل أفلاطون وفيثاغورس وارسطاطاليس، وتعمّق فى درس الفقه والحديث والجغرافيا والفلك والتاريخ، وكُتب العقاقير.

مبايعة الأمير عبد القادر

استولى الفرنسيون على الجزائر سنة ١٨٣٠ ووزعوا منشورات أعلنوا فيها امتلاكهم للبلاد، وإخراجها من أيدى العثمانيين، ورغم مقاومة القبائل سيطر الفرنسيون بقيادة «برمونت» على جبال الأطلس ومدينة «وهران»، وكان من نتيجة الاحتلال الفرنسى لتلك البلاد أن اختلّت الأحوال فيها وسادت الفوضى، فاجتمع المرابطون ورؤساء القبائل، وفى مقدمتهم الأمير محيى الدين، وتشاوروا فى الأمر، فاستقر الرأى على الانضمام إلى سلطان مراكش «مولاى عبد الرحمن»، فدخلت الجزائر فى سلطانه، مما أدى إلى غضب الفرنسيين، وبعثوا إلى سلطان مراكش مهددين بالحرب إذا لم يسحب جنوده من الجزائر، فآثر الانسحاب.

واجتمع كبار الجزائريين إثر ذلك للتشاور فى الأمر، واستقر رأيهم على إقامة الأمير محيى الدين سلطانا على البلاد، وذهبوا إليه فى بلدته «القيطنة» حيث عرضوا عليه الأمر وأرادوا مبايعته، ولما أمسك عن الإجابة هددوا بقتله إن لم يقبل فاستجاب لرغبتهم، على أن تكون السلطة لولده عبد القادر، فقبلوا ذلك راضين مرضيين.

كان الأمير عبد القادر فى ذلك الوقت يحارب الفرنسيين فى حصن «فيليب»

فبعثوا إليه وبايعوه، وسنه إذ ذاك ٢٥ سنة، تمت له البيعة على الجهاد عند شجرة الدردارة بسهل غريس فى (رجب ١٢٤٨هجرية/ ٢٧ من نوفمبر ١٨٣٢) وحصلت له البيعة العامة بمعسكر فى (١٧ رمضان ١٢٤٨هجرية/ ٤ فبراير ١٨٣٣م) وعلى إثر مبايعته قصد إلى المسجد الجامع حيث صلى بالناس وخطب حاثًا إياهم على الطاعة، والعمل بمقتضى الشرع الشريف، والاقتداء بالخلفاء الراشدين.

وجمع كلمة القبائل، وضم بعضها إلى بعض لكى تقوى على مقاومة الفرنسيين وإخراجهم من البلاد. وخاض عدة وقائع فاز فيها عليهم، ولاسيما موقعة «وهران» التى انتصر فيها انتصارا كبيرًا، فهابه الفرنسيون، وأخذوا يخشون بطشه منذ ذلك الحين. وعقد قائدهم «ديمشيل» معه معاهدة صُلح سنة (١٨٣٤م).

كرٌ.. وفرٌ

ولما هدأت الأحوال، تفرغ الأمير عبد القادر لإصلاح الشئون الداخلية فى بلاده، وواصل فى الوقت نفسه إعداد العُدة لمواجهة الحرب، فأنشأ مصانع للأسلحة وصب المدافع وإنتاج البارود، ونظم الجيش مما أتاح له النصر فى عدة مواقع منها معركة المقطع فى (١٨ يونيو ١٨٣٥م) التى أرغم خلالها القوات الفرنسية على الرجوع إلى «وهران». وبعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة هاجم الفرنسيون مدن الأمير عبد القادر الرئيسية فاستولوا على «معسكر» ثم «تلمسان»، لكن ذلك كان دافعًا ليواصل الأمير ضغطه على القوات الفرنسية وتكبيدها خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد، مما اضطر الفرنسيين للصلح معه، لما تأكدوا من بسالته وقوة احتماله، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة «التافنة» فى (٣٠ مايو ١٨٣٧) التى تقضى بتبادلهما التمثيل القنصلى، وبألا يسلم الأمير أى ساحل من سواحل بلاده لدولة أجنبية إلا بعد مشاورة فرنسا.

اهتمام بالشئون الداخلية

وجه الأمير عنايته بعد ذلك إلى إصلاح الشئون الداخلية لبلاده وبناء مؤسساتها، كما واصل الاستعداد العسكرى كعادته لمواجهة الطوارئ، وأنشأ مدينة تجارية سماها «تقدمة»، كما أنشأ كثيرًا من المعاقل واستعان بقواد أوربيين لتنظيم جيشه، وأنشأ مصانع لإنتاج المدافع ومختلف الأسلحة فى تلمسان وغيرها، وعمل لاستخراج المعادن، وتنشيط الصناعة والزراعة والتجارة، ونشر التعليم بالإكثار من المدارس، واعتزم إنشاء جامعة كبيرة فى «تقدمة» تجمع بين العلوم الدينية الإسلامية والعلوم الحديثة، وضرب نقودًا فضية ونحاسية.

معارك وانتصارات

وكان شديد التيقظ، دائم السهر على مصلحة بلاده، حريصًا على تفقدها بنفسه، ولكن الظروف لم تسمح باستقرار الأمن فى الجزائر، إذ طمع الفرنسيون بعد استيلائهم على «قسنطينة» فى مد سلطانهم على المناطق المجاورة لها، برغم وقوعها فى حدود سلطة الأمير بمقتضى معاهدة «التافنه»، وعبثًا حاول الأمير حمل حكومة باريس على احترام المعاهدة، فأخذ فى تحصين المناطق المختلف عليها والاستعداد للدفاع عنها، وعندما نشبت الحرب تمكن الأمير من دحر القوات الفرنسية وطردها إلى السواحل.

وعظم الأمر على الحكومة الفرنسية، وأرسلت إلى قواتها المندحرة فى الجزائر نجدة كبيرة، فاستأنفت الهجوم على الأمير ورجاله، ودارت بين الفريقين معركة شديدة بالقرب من جبال الأطلس، فتغلب الفرنسيون أول الأمر، لكن الأمير سرعان ما تدارك الموقف، وأعاد تنظيم رجاله ثم كرّ على القوات الفرنسية، فما لبث أن هزمها واضطرها إلى الانسحاب.

وتوالت المعارك بعد ذلك طيلة ست سنوات، واضطرت فرنسا فى نهايتها إلى تغيير قائد قواتها فى الجزائر بقائدها القديم الجنرال «بوجيه»، وبعثت معه

بإمدادات كثيرة من الجند والأسلحة، ولكنه لم يثبت فى هذه المرة أيضا أمام الأمير المغوار.

ولما رأى الأمير أن البلاد أصبحت كلها ميدانا للحرب، أنشأ مدينة متنقلة سماها «الزمالة»، وهى مؤلفة من خيام تقام على نظام شوارع المدن وتتبع الجيش فى حله وترحاله، حيث يعمل فيها الصناع، ويُحتفظ بالأسرى ويلجأ إليها المتعبون من الجند، كما يقيم بها النساء والأطفال، وتُعدّ الأسلحة للجنود العاملين. وقد انتفع الأمير بهذا النظام إلى حد كبير، حمل الفرنسيين على توجيه الجانب الأكبر من نشاطهم إلى حرمانه من تلك المدينة واستطاعوا الوصول إليها بواسطة بعض الخونة فأحرقوها، كما أحرقوا قبل ذلك مدينة «تقدمة»، ونهبوا يوم ١٦ مارس ١٨٨٣ ما كان فى «الزمالة» من مؤمن ومُعدات كما قتلوا عددًا كبيراً ممن كانوا بها.

حرب العصابات

ولم يحقق الفرنسيون النصر النهائى على الجزائريين باستيلائهم على العاصمة المتنقلة «الزمالة»، وهذا ما أكده الأمير عبد القادر بنفسه فى رسالته إلى المارشال بيجو بقوله: «إن الضرر الذى اعتقدت أنك الحقته بنا لم يكن سوى بمثابة أخذ كأس ماء من بحر، وإن عملكم لا يتجاوز الأثر الذى يتركه الطائر عندما يلامس بجناحيه موجة من أمواج البحر».

واضطر بعد سقوط عاصمته المتنقلة «الزمالة» وتناقص عدد جيشه إلى ألفى فارس وعشرة آلاف من المشاة، إلى اتباع أسلوب الكر والفر، فكان يتنقل سريعًا من مكان إلى آخر، ويباغت العدو على حين غرة، ثم يتراجع بعيدًا، فأرسى بذلك أول تجربة كبرى فى حرب العصابات فى التاريخ الجزائرى المعاصر، واجه أثناءها مُطاردة ثمانى عشرة فرقة عسكرية فرنسية طوال خريف وشتاء عامى (١٨٤٥ و ١٨٤٦)، كما فرض عليه الانتقال على ظهر جواده وبصحبة فرسانه

آلاف الكيلومترات، تجول فيها من بلاد القبائل إلى جهات الريف بالمغرب الأقصى، ومن نواحى تلمسان إلى تخوم الصحراء بالعقيق والأغواط.

ومع استمرار الضغط الفرنسى عليه، طلب الأمير عبد القادر من أسرته التوجه إلى المغرب الأقصى، وكان يأمل أن يقف السلطان المغربى إلى جانبه فلم ينجده، فى حين تلقى الفرنسيون نجدات كبيرة وتمكنوا من حمل سلطان مراكش على معاونتهم ضده. لكن هذا كله لم يثن عزمه عن مواصلة الجهاد، فظل يقاتل بشجاعة فى مختلف ميادين القتال التى شملت الجزائر كلها، حتى نهاية (سنة ١٨٤٦م).

وحاول الأمير أن يثنى سلطان مراكش عن محاربته مذكرا إياه بصداقتهما القديمة، وبما بين بلديهما من علاقات وروابط دينية ولغوية وتاريخية، ولكنه لم يستجب له وخيره بين التسليم، أو الرحيل إلى برارى الجزائر.

وعندما توجهت القوات المغربية لمحاصرته بنواحى ملوية، دخل معها فى ثلاثة اشتباكات دامية نواحى قلعة سلوان فى شهر (محرم ١٢٦٤هـ/ ديسمبر ١٨٤٧). وعندما صمم المغاربة على مواجهته والقضاء عليه تنفيذا لمعاهدتهم مع الفرنسيين «لا لا مغنية ١٨ مارس ١٨٤٥». عقد الأمير آخر اجتماع لمستشاريه.

حكمة قرار التسليم

جمع الأمير عبد القادر رجاله على ظهور الخيل وفى ظلمة الليل حتى لا يفطن إليهم المغاربة أو ينتبه لأمرهم الفرنسيون الذين كانوا يراقبون تحركاتهم من بعيد. وخطب فيهم مصرحًا بحقيقة الخطر المزدوج المحيق بهم، قال فى صوت كله إيمان وصبر: «لم نجد مستندا نستند إليه إلا الله.. وصرنا نتأمل ونتيقن بعد المشورة أن المصير إلى جند الفرنسيين أولى إلى التولى للمغاربة، لأنهم لا عقد عندهم ولا قانون يضبطون به أحوالهم مع أصدقائهم أو مع عدوهم! الفرنسيون يعرفون قدر الرجال الأبطال، فيعطونهم قدرهم من التعظيم والحرمة ولو كانوا أعداء، فالميل إليهم أولى وأفضل من هؤلاء المتبدين «البدو» الذين لا يعرفون

قدراً ولا يفرقون بين سليم وسقيم، ولقد وفيتم بما بايعتمونى عليه، وبذلتم جهدكم فى معاضدتى. أما وحالتنا الآن تقتضى التسليم، فأرى أن التسليم للفرنسيين خير لنا من التسليم للمراكشيين، والرأى لكم فى الحالين»، فأجابوا بأنهم على رأيه.

وحُددت ليلة ٢١ ديسمبر سنة (١٨٤٧) للتوقيع على شروط التسليم، وفى مقدمتها أن يغادر الأمير وحاشيته البلاد إلى الإسكندرية أو مدينة بورصة التركية للإقامة بها، وكانت ليلة ممطرة، شديدة العواصف، فأناب الأمير رجلين من خاصته وحملهما خاتمة للتوقيع على الشروط فى معسكر الفرنسيين، وما علم القائد الفرنسى برغبة الأمير فى التسليم طبقًا لهذه الشروط حتى وافق فوراً. ولما ذهب الأمير بعد ذلك إلى المعسكر الفرنسى قوبل بالتكريم والاحترام.

ولم يكن توقف الأمير عبد القادر والمجاهدين معه عن مقاومة العدو صادراً عن خوف أو تخاذل أو تخل عن أداء الواجب، وإنما كان بفعل تفوق العدو عدة وعدداً، وعداء الصديق وتخاذل الحليف، وتحول الأهل والقريب.

بداية رحلة الاغتراب

وأبحر الأمير فى ٢٥ من ديسمبر، ومعه حاشيته البالغة ثمانون فرداً على سفينة حربية، أقلتهم إلى طولون، حيث قوبل الأمير بترحاب، وعُرض عليه أن يقيم بفرنسا ضيفًا مكرمًا على حكومتها هو ومن معه، ولكنه لم يقبل، وأثناء ذلك وقع الإنقلاب فى فرنسا وتحولت من ملكية إلى جمهورية، فطال الأخذ والرد بين الأمير والمسئولين الفرنسيين الجدد، ثم وافقوا على مغادرته فرنسا إلى حيث شاء، على أن يتعهد هو ورجاله كتابة بعدم رجوعهم إلى الجزائر، وكُتب هذا العهد فى مارس (١٨٤٨م).

وكان الأمير يستعد للرحيل هو ورجاله عندما صدرت الأوامر من الجمهورية الفرنسية الجديدة باعتباره أسيراً، ثم زُج به وبرجاله إلى السجن فى «أبيس»، فلبثوا فيه حتى اكتوبر (سنة ١٨٥٢)، حيث عكف الأمير على الكتابة والتأليف.

وبعد أن زاره نابليون فى معتقله ببضعة أيام، صدرت الأوامر بإطلاق سراح الأمير عبد القادر ورجاله، وأقام له نابليون مأدبة كبيرة فى قصره، وأهدى إليه جوادآ عربيًا أصيلاً، وفى ٢١ من ديسمبر (١٨٥٢)، غادر الأمير فرنسا مودعًا باحتفال كبير قاصدًا، مدينة بورصة فى تركيا للإقامة بها حتى سنة (١٨٥٥)، حيث انتقل فى هذا العام للإقامة بدمشق حيث قوبل بترحيب شعبى كبير، وأقام فيها بمبنى يدعى «العمارة» حيث تفرغ للقراءة ومراجعة كتب الفقه والتصوف والتفسير والحديث، مقسمًا وقته بين العبادة والمطالعة والتأليف ومجالسة العلماء والفضلاء.

موقف إنسانى نبيل

ومن المواقف الإنسانية المشرفة للأمير فى أثناء إقامته بدمشق، حمايته للمسيحيين عندما اشتعلت الفتنة الطائفية ضدهم فى لبنان عامة ودمشق خاصة سنة (١٨٥٦)، لم يتردد الأمير فى حماية أهل الذمة حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ففتح مقر إقامته وإقامة أتباعه لاستقبال النصارى المهددين فى حياتهم، ويرجع إليه الفضل فى إنقاذ حوالى ١٥ ألفا منهم، وفى أثناء ذلك تصدى للفتنة، وذهب به إقدامه إلى حد التوجه سرًا إلى زحلة حيث التقى بقائد الجند الفرنسى الذى نزل جبل لبنان، وأقنعه بالعودة إلى قواعده وعدم التقدم إلى دمشق ريثما تحل الدولة العثمانية مشاكلها الداخلية بنفسها. فحال دون حدوث مذبحة كبيرة فى دمشق، وكانت وساطته خيرًا للجميع.

كان موقف الأمير عبد القادر هذا مثار تقدير السلطان العثمانى، وإكبار وإجلال ملوك أوروبا وحكوماتها، فمنحه العديد من ملوك ورؤساء الدول الأوسمة والنياشين، إعترافًا بموقفه الإنسانى النبيل.

كان الأمير مدة إقامته بدمشق يميل إلى التأمل والدراسة والذكر، وكان من حين إلى آخر يشد الرحال للقيام بزيارة أو سفر، حيث زار بيت المقدس والخليل، (١٨٥٧)، وسافر إلى حمص وحماة (١٨٦٠)، ثم سافر إلى

الإسكندرية (١٨٦٢) ومنها إلى السويس، ثم جده، وأدى مناسك الحج وزار الطائف والمدينة، وقضى هناك سنة ونصفًا فى العبادة والذكر والتأمل، وفى ربيع سنة (١٨٦٥) توجه إلى إستانبول للتوسط لدى السلطان عبد العزيز للتخفيف عن المتورطين بالفتنة الطائفية بالشام، ثم سافر إلى باريس ولندن.

أصبح الأمير عبد القادر شخصية عالمية تحظى بالتقدير والاحترام فى كل مكان تحل به، وقد لقى كل حفاوة وتكريم عندما دعاه خديوى مصر لحضور احتفال افتتاح قناة السويس سنة (١٨٦٩).

تفرغ الأمير بعد ذلك للعبادة وعمل الخير، والتأليف، والاطلاع، وعُرف بين الناس بعلمه وتقواه وورعه ومعيشته البسيطة، فعاش ما تبقى له من حياته بدمشق معظمًا مكرمًا من الجميع، حتى اعتبره الصوفيون من أهل الكشف وأنزلوه منزلة ابن عربى والنابلسى.

وفى منتصف ليلة السبت (١٩ من رجب ١٣٠٠ هـ/ ٢٦ من مايو ١٨٨٣) توفى الأمير عبد القادر الجزائرى عن عمر يناهز ستًا وسبعين سنة، قضاها فى العلم والعبادة والجهاد فى سبيل الله والوطن.

أخلاق العالم وتصرفات البطل

كان الأمير عبد القادر مربوع القامة، معتدل الجسم، أبيض اللون، أسود الشعر، كث اللحية، أقنى الأنف، أشهل العينين، أضبط، يستعمل بيساره ما يمكن أن يؤديه بيمينه، متواضعًا، متئدًا فى مشيته، جهورى الصوت، قوى اللهجة، أجش النغم، وهو مع ذلك كان يتصف بالبشاشة والتأدب ولين الطبع، ويفضل الابتعاد عن مظاهر التكلف والفخامة والأبهة، ويميل إلى حياة التقشف والبداوة.

وقد عُرف عنه أنه يكره الجشع والإسراف ويميل إلى التقشف ويقلل من الأكل، وقد يقنع بشىء من الحليب والسويق (الدقيق المطهى مع شىء من الماء

والملح) وقد يكتفى فى بعض الأحيان بما يصطاده من طريدة، وهذا ما ساعده على اعتدال مزاجه والمحافظة على صحته وقواه العقلية والجسمية إلى آخر عمره. أما لباسه فيقتصر على قميصين أحدهما من القطن والآخر من الصوف، مع عمامة ولحاف من الوبر يغطى رأسه ويلف رقبته، وقد يضع عند الحاجة برنسا أبيض.

أما فيما يختص بسلوكه وتصرفاته، فقد جمع فيها بين أخلاق العالم، وتصرفات البطل، وسلوك زعيم الجماعة وشيخ الطريقة عن سجية، وفى تواضع وبدون تكلف كان متمسكا بتقاليد أسرته، ودودًا لأهله، معروفا بطاعته لوالديه.

وتتميز نظرة الأمير عبد القادر إلى الحياة بتأثره بالعواطف النبيلة، فهو يقدر عاطفة الحب، كما يُعجب بالطبيعة، وقد عبر عن كل ذلك فى شعر رقيق جميل.

والجانب اللافت للنظر فى شخصية الأمير عبد القادر هو فروسيته وما يتصل بها من شجاعة وإقدام وحنكة، فقد ولع الأمير منذ شبابه بركوب الخيل، ومارس منذ صغره الصيد، فكان يقضى ساعات طوالا من يومه على ظهر فرسه الذى كان أعز شىء عنده، ولم يكن يشغله عن هواية الفروسية سوى قراءة الكتب والإنزواء للعبادة والذكر.

ومن الملامح المميزة لشخصيته تصوفه، وخاصة فى دار هجرته، وإن كان قد تشربه منذ طفولته فى زاوية أبيه باليقطنه، وتعمقت هذه النزعة فى نفسه أثناء سجنه بفرنسا وبعد إقامته بالحجاز مدة سنة ونصف.

سر عبقرية الأمير

لقد كانت حركة الأمير عبد القادر الجهادية ومحاولته بناء دولة حديثة استجابة موفقة لتجاوز العجز الذاتى الذى عاشه العرب والمسلمون لعدة قرون بعد أن تحطمت قدراتهم الذاتية. فالمحلل لمعطيات التاريخ الجهادى للأمير عبد القادر يرى أن هذه التجربة كانت موفقة إلى أقصى حد، بالرغم من قصر مدتها، لأن الأمير استطاع أن يحقق تلاحم العوامل الدينية والثقافية والعسكرية فى وضع التصور

وتنفيذ القرار. جمع الأمير هذه الأبعاد الثلاثة فى سلوكه وثقافته وتصرفاته، وحقق بذلك تكامل القوة العسكرية مع نظرة الإنسان المثقف ومع الدافع الدينى، فسر عبقرية الأمير عبد القادر يكمن فى أنه استطاع أن يكون قائدًا عسكريا محنكًا قادرًا على جمع الكلمة، وفقيهًا عارفًا بأحكام الشرع وملتزما بتطبيق الشريعة، وعالما واسع الفكر متسامحًا مع الآخر ومتفتحا على واقع مجتمعه ومقتضيات عصره.

إن ملحمة الأمير عبد القادر الجهادية بالرغم من قصر مدتها الزمنية ونجاح الفرنسيين فى وضع نهاية مأساوية لها، إلا أنها فى مجال الذاكرة التاريخية للأجيال العربية كانت وستظل تجربة رائدة للإسهام العربى فى صنع الأحداث وتغيير الواقع.

فقد جمعت بين مواجهة العدو وبناء الذات فى آن واحد، ووافقت بين القيم الحضارية والأحكام الدينية، ومتطلبات المجتمع وحاجاته، بحيث يتكامل عمل الفقيه فى المدينة مع نشاط المرابط فى الريف، وتتلاحم مهمة موظف الإدارة فى المدينة والجندى فى ثكنته، مع طبيعة عمل المشتغل فى الحرف والقائم على فلاحة الأرض، وهذا أساس نجاح الأمم وسر تقدم الشعوب.

رب السيف والقلم

لقد كان الأمير عبد القادر فارسًا بالسيف والقلم، سطر بسيفه الأحداث الوطنية والمعارك العسكرية، وخط بقلمه الصفحات الفكرية والوقائع التاريخية.

تربى منذ نعومة أظفاره على الأدب العربى القديم وتأثر بشعرهم، وقال الشعر فى أغراضه المختلفة من فخر وحماسة وعاطفة نبيلة، يعبر عن عاطفة المحبة والإخلاص التى يكنها لزوجته من خلال هذه الأبيات:

جفانــى مـن أم البنين خيـــالُ

فقلبى جريح والدموع سجالُ

وما هى إلا الروح، بل إن فقدتُها

فـإنَّ بقائـى دونـهـا لمحـالُ

فقولوا لها إن كُنتِ ترضين عيشتى

فجودى بطيف إن يعز وصالُ

كما قال شعراً فى جمال الطبيعة وتأثيرها على النفوس، وقال القصائد الكثيرة فى وصف الأماكن التى زارها أو أقام بها، كما سجل معاركه مع الفرنسيين فى أبيات شعر تنطق بطولة وفداء، ومن جميل شعره فى الفروسية قوله:

فخيلنا دائما للحرب مسرجـهُ

من استغاث بنا نبشره بالظفر

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً

وأى عيش لمن قد بات فى خفر

وله العديد من القصائد فى التصوف منها هذه الأبيات:

أنـا حـق، أنـا خلـقُ

أنـا رب، أنـا عـبـدُ

كـل كـون ذاك كـونـى

أنـا وحـدى أنـا فـردُ

أنا الحب والمحبوب والحب جملة

أنا العاشق المعشوق سراً وإعلانا

وللأمير عبد القادر بعض المؤلفات فى التصوف والعقيدة والأخلاق ومن مؤلفاته:

* «المقراض الحاد لقطع لسان الطاعنين فى دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد».

* «ذكرى العاقل فى تنبيه الغافل».

* «المواقف فى التصوف» ويتضمن مقدمة وثلاثة أجزاء.

* إضافة إلى ديوان شعر صدر فيما بعد بعنوان: ديوان الأمير عبد القادر شرح وتحقيق ممدوح حقى.

وعمومًا يمكن القول إن الأمـير عبد القادر كان ابن الحضارة الإسلامية التى ظـل اسهـامـهـا الفكـرى ونزعـتهـا الصـوفيـة تتميـز بالرقـى الـروحـى والجسـدى والعقلى.

عودة البطل

بعد أن تحررت الجزائر من الاستعمار الفرنسى، وتحقق الأمل الذى ناضل وجاهد من أجله البطل الأمير عبد القادر الجزائرى، وباعتباره رمز للنضال وبطل الكفاح، ونظرًا لأن ثورته تعد تجربة تاريخية تؤكد استمرارية الدولة الجزائرية، بادرت حكومة الجزائر المستقلة سنة ١٩٦٦ إلى نقل رفاته، من دمشق إلى الجزائر، فى جو من الاحتفالات الوطنية المدوية والمهرجانات الشعبية الصاخبة، ليعود المجاهد إلى الأرض التى شهدت جهاده وكفاحه لأكثر من خمسة عشر عامًا، لترقد روحه فى أمن وسلام فى ثرى البلد الذى عاش ومات يناضل من أجله.

عشرة أولاد وست بنات

تزوج الشيخ محيى الدين الحسينى من أربع نساء هن: وريدة ولدت له محمد العبد ومصطفى، والزهراء ولدت له عبد القادر «الأمير» وخديجة، وفاطمة ولدت له الحسين، وخيرة ولدت له المرتضى.

أما الأمير عبد القادر فقد ارتبط فى أول الأمر و «لا لا خيرة» التى أشار إليها فى شعره بـ «أم البنين» وعندما استقر بالشام كان له أربع زوجات، وكان مجمل أولاده من بنين وبنات ستة عشر، منهم عشرة ذكور، وهم: محمد، محيى الدين، الهاشمى، إبراهيم، أحمد، عبد الله، على، عمر، عبد الملك وعبد الرازق، بالإضافة إلى ست إناث.



محمد نجيب

الزعيم الذى أكلته الثورة

- تم ترشيحه لوزارة الحربية فى عهد فاروق ورفض من أجل الثورة
- قدّم استقالته وعاد بناء على طلب الشعب المصرى
- كان عسكريًا وصحفيًا ويجيد خمس لغات
- قال عنه عبد الحكيم: الجوهرة التى ستقود الثورة
- ولد فى السودان وانضم للجيش المصرى وأصبح رئيسًا ثم مات وحيداً



لو كان حتما على التاريخ أن يذكر قائداً وطنيًا عظيمًا سيذكر محمد نجيب وإن كان التاريخ قد أنكر اسمًا عظيمًا فذلك هو محمد نجيب قائد ثورة يوليو ١٩٥٢، ذلك الزعيم الذى أكلته الثورة وبدلاً من ذلك حمل كل خطاياها واستدرجه التاريخ فى مؤخرة صفوفه بدلاً من وضعه فى المقدمة.

محمد نجيب رئيس جمهورية برتبة لواء كما كان يُعرف نفسه ويقدمها للجدران والاثاث العتيق فى قصر «زينب الوكيل» بالمرج الذى مكث فيه مسجونًا سنوات لم يحصها، كانت الجدران تصدقه بعكس حفيدة الصغير، الذى كان يسكن معه ويسأله مستنكرا: كيف تقول لى يا جدى أنك أول رئيس جمهورية بينما لا تذكر كتب التاريخ التى ندرسها فى المدرسة حرفًا واحداً من اسمك؟!

كان محمد نجيب فارسًا نبيلاً ولم يكن ساذجًا، اختاروه ليتقدم الرجال ويقف فى وجه المدفع، ولأن القيادة الحقيقية تعنى تحمل المسئولية والمغامرة مهما تكن عواقبها، فقد تقدم الرجل الصفوف وهو يدرك أن فشل الثورة سيؤدى به إلى حبل «المشنقة» بدون شك، ونجحت الثورة وفشل صانعوها فى تجاوز بريق السلطة، فعلقوه على «مشنقة» نصبوها فى المرج لتبقى شاهدة على نبل الفارس الصامت الذى سالت دماؤه ثلاث مرات. اثنين على تراب مصر وواحد فى الغربة.. قاتل فى حرب فلسطين فجُرِحَ وسال دمه فى معركة «التبة» فكانت الأولى دفاعًا عن العرب. وفى ٢٥ فبراير ١٩٥٤ أعلن مجلس قيادة الثورة قبول استقالته كرئيس للدولة على الرغم من أنه لم يقدمها، فاندلعت المظاهرات فى انحاء مصر تطالب بعودته، مما اضطر رجال الثورة لإعادته لمنصبه فى اليوم التالى، يومها شعر نجيب أن النهاية حانت ولم يبق سوى تحديد الميعاد المناسب، وفى ١٤ نوفمبر من العام نفسه ذهب معهم فى صمت حيث قرروا اعتقاله فكانت الثانية فى حب مصر.

ولم تكن هذه الليلة هى آخر عهده بالوفاء، فبعد سنوات سال دمه من عروق ابنه الذى أغتيل فى ألمانيا.. ولم يسأل: من قتل ابنى؟ فالروح لن تعود للجسد.

تاريخ مصر المكتوب لم يألف وجه هذا الرجل فقد بدا غريبًا فى زمن لا يحتفى بأمثاله.

مولده .. حياته

وُلدَ محمد نجيب فى الخرطوم فى ٢٠ فبراير عام ١٩٠١ من أسرة عريقة عسكريًا، وكان والده يوزباش بالجيش ثم مأموراً بحكومة السودان، وأصل بلدته النحارية بكفر الزيات بالوجه البحرى، ووالدته مصريه وُلدَت ونشأت بالسودان، وقد نشأ محمد نجيب بالسودان إلى أن أتم دراسته الثانوية، ثم سافر إلى مصر ودخل المدرسة الحربية بالقاهرة فى إبريل ١٩١٧ وتخرج فيها ٢٣ يناير عام ١٩١٨م.

حصل على أجازة الحقوق عام ١٩٢٧، ودبلوم الدراسات العليا للدكتوراة فى الأقتصاد السياسى فى مايو ١٩٢٩، ودبلوم الدراسات العليا للدكتوراة فى القانون الخاص فى مايو ١٩٣١، وقد حصل على هذه الدبلومات وهو ضابط صغير. ونال بعد ذلك شهادة كلية أركان حرب فى مايو ١٩٣٩، وأُرسِلَ فى رحلة تعليميه لإنجلترا لمشاهدة منشآتها الحربية، كما أُرسِلَ إلى فرنسا لزيارة ميادين القتال فى حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ «الحرب العالمية الثانية».

واشترك فى حرب فلسطين وجُرح فيها ثلاث مرات، فقد عمل قائداً للواء الأول فى معارك فلسطين، وفى الفترة الثانية تولى قيادة اللواء العاشر «الضارب» ومعه جميع الأسلحة المساعدة، ثم ضم إلى ذلك قيادة اللواء الرابع بخان يونس، وكانت معركة «التبة» فى دير البلح التى جُرح فيها آخر مرة يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٤٨، من أهم المعارك التى خاضها فى فلسطين وعددها ٢١ معركة، وقد أُصيبَ فيها برصاصة اخترقت صدره من اسفل ونفذت من الظهر، ومُنِحَ نجمة فؤاد الأول مرتين تقديراً لبسالته مرة قبل هذه المعركة ومرة بعدها.

خدم فى مختلف أسلحة الجيش من مشاة، وفرسان، وهجانة، وسيارات مسلحة ومدافع ماكينة، وتنقل فى ٢٥ وحده من مختلف أسلحة الجيش. نُقِلَ فى أثناء الأزمات الأخيرة قبل الثورة من وظيفة المدير العام لسلاح الحدود، إلى وظيفة مدير سلاح المشاة، اثر خلاف مع الملك السابق «فاروق» وبعض أعوانه، ورشح نفسه لرئاسة نادى ضباط القوات المسلحة، فانتخب بأغلبية الأصوات، ولم يفقد سوى ٣٩ صوتًا من ٤٠٠، ولكن الملك فاروق عزله من رئاسة النادى.

وفى أواخر نوفمبر عام ١٩٥١ بدأت الأزمات تشتد وتتكرر بينه وبين السراى، وقد رُشِحَ ثلاث مرات لتولى وزارة الحربية والبحرية وذلك فى عهد وزارات على ماهر و«الهلالى» و «حسين سرى» ولكن الملك السابق كان يقف دائماً دون إتمام ذلك، لما يعلمه عن حب الجيش «لمحمد نجيب»، ومبلغ مكانته عند أفراد القوات المسلحة، وقد اقترح قبل قيام حركة الجيش فصله من الخدمة ولكن الحركة سبقت ذلك، وكان محمد نجيب يجيد العديد من اللغات وهى الانجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والعبرية.

اشتغل اللواء «محمد نجيب» على مدى تاريخه الطويل بالعمل الصحفى فعمل فى صحف منها «اللواء» التى أصدرها الحزب الوطنى القديم بزعامة «مصطفى كامل» ثم فى «السياسى» التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين ثم «أخبار اليوم».

كما ألف العديد من الكتب منها: رسالة عن السودان « أو مصير مصر» بالانجليزية و «كلمتى للتاريخ» و «كنت رئيسًا لمصر».

نجيب فى بيته

كان نجيب يعيش فى بيت متواضع «بحلمية الزيتون» وكان المنزل عبارة عن طابق واحد مكون من أربع حجرات، ومؤثث بالضرورى من الأثاث فقط، وكان اللواء نجيب في الأحوال العادية يقابل الصحفيين فى الشرفة الملحقة بالبيت،

وكان منزله لا يحتوى علي أى معلم للثراء من أثاث فخم أو أوانى للزهور أو نجف وخلافه، وبات هذا المنزل البسيط يمثل شخصيته القنوعة، المتصفة بالرضا بما يمنحه الله للإنسان من بساطة العيش.

انجب اللواء أربعة أبناء وهم سُمية التى توفيت قبل الثورة و «على» الذى اغتيل فى ألمانيا الغربية و «فاروق» الذى مات منذ سنوات و «يوسف» الذى توفى مؤخراً. وحياة نجيب الأسرية تشبه حياة الرئيس الأمريكى «جون كيندى» الذى أغتيل فى «دالاس» بأمريكا عام ١٩٦٣ اثر مؤامرة دُبرت له ونُفذت فى الحال. كما أغتيل معظم أفراد أسرته، ومن عائلة «كيندى» إلى عائلة «نجيب» فقد مات فاروق الابن الأكبر لمحمد نجيب الذى اسمته أمه على اسم الملك فاروق عام ١٩٦٩ بعد أن خرج من المعتقل السياسى بشهور، واغتيل الأوسط وهو «على» عام ١٩٦٨ فى ألمانيا ولم يسمح لأبيه بحضور جنازته وكان «على» زعيمًا طلابيًا له نشاط واضح ضد اليهود فى ألمانيا، وكان يقيم المهرجانات السياسية التى يدافع فيها عن مصر وعن الثورة وعن حق الفلسطينين فى العودة إلى بلادهم.

أما الأبن الأصغر «يوسف» فقد كان ضحية الظروف التى فرضها الضباط الأحرار على والده فعمل فى بداية حياته سائقًا بشركة النصر للتليفزيون، لكنه طُرد منها عام ١٩٦٧ على إثر مشادة بينه وبين أحد المسئولين حول دور والده السياسى، وعاش عاطلا إلى أن اشترى سيارة تاكسى وتكسب من عمله عليها ثم عمل سائقًا لسيارة نقل، ونتيجة لظروف والده حاول «يوسف» الانتحار أكثر من مرة ودخل مستشفى الأمراض العقلية أربع مرات خلال حياة أبيه إلى أن توفى مؤخراً.

الجوهرة

كان محمد نجيب مديراً لسلاح المشاة الذى يضم كتائب القوات المسلحة ذا الفاعلية المباشرة فى القتال والتصدى للمعركة، وكان أركانُ حربه الصاغ «عبد الحكيم عامر» الذى رُقىّ إلى هذه الرتبة الاستثنائية لبلائه الحسن فى حرب ١٩٤٨م ومن ثم قامت رابطة وثيقة ومتبادلة وعميقة بين الطرفين، القائد وأركان

حربه. وفى ذلك الوقت أبلغ عامر صديقه البكباش «جمال عبد الناصر» عندما خططوا للتنفيذ الفعلى لثورة يوليو أنه وجد الجوهرة التى يجب أن يستعينوا بها لقيادة هذه الثورة. وكان هذا مدخلاً مفتوحاً ومُغريا لتجمع الضباط عمومًا والأحرار خصوصاً حول اللواء «محمد نجيب» فذاع صيته وانتشرت مكانته وهيبته كانتشار النار فى الهشيم، ومن ثم كان هو الورقة المضمونة والرابحة، كما طُلب منه الترشيح رئيسًا لإدارة نادى ضباط القوات المسلحة، وعندما علم نجيب بتنظيم الضباط الأحرار وافق فداء للوطن ولمبادئ كان يود تحقيقها أن يكون قائدهم.

وعندما عُرضت عليه وزارة الحربية من قبل «الملك فاروق». بواسطة الدكتور «محمد هاشم» وزير الداخلية، وزوج ابنة «حسين سرى» رئيس الوزراء فى هذا الوقت رفضها بإباء وشمم وقال: لا، وتحركت الثورة ونجحت بعد تحديد محمد نجيب لموعدها فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

اختطاف الرئيس

كانت بداية المؤامرات ضد نجيب سببًا رئيسيًا فى تقديم استقالته، ففى الوقت الذى كان ينوى فيه زيارة السودان فى ٢٤ نوفمبر ١٩٥٤ لتوطيد العلاقات. عقد أعضاء مجلس قيادة الثورة اجتماعًا، ولم يدع إليه اللواء نجيب ولم يكن يدرى ما السر وراء الاجتماع، بالرغم من وجوده فى المبنى.

ولما استفسر الرئيس نجيب من السكرتير العسكرى الخاص «اليوزباشى اسماعيل فريد» لماذا لم يخطره بإنعقاد المجلس، فذهب «اسماعيل» إلى الاجتماع وأخبر أعضاء الثورة بملاحظة الرئيس إلا أنهم لم يردوا عليه، وإثر ذلك قدم نجيب استقالته وعلمت الصحف ونشرت الخبر فى اليوم التالى، ولما استقال «نجيب» فى ٢٥ فبراير ١٩٥٤ ذهب البكباش «محسن أبو النور» بصحبة سيارتين نقل محملة بالجنود إلى منزل الرئيس «نجيب» بحلمية الزيتون، وقام بسحب الجنود الموجودين واستبدلهم بمن أتى بهم، وفوجى نجيب بضباط يقودونه فى سيارة جيب إلى

سلاح المدفعية فقال لهم: يا أولادى يجب أن تعلموا نتيجة تصرفكم هذا بما سوف يجر على البلاد والقوات المسلحة من دمار وآثار، وكان من الممكن أن يعاجلهم جميعًا فقد كان مسلحًا ولكن هذا ليس اسلوبه فى معالجة تهورات الضباط الشبان. يقول نجيب عن هذا الموقف: «دخلت فى غرفة وسألتهم ماذا يريدون؟ فقالوا: انتظر سنخبرك، وعلمت أن أحدهم إتصل بالبكباش «جمال عبد الناصر» وأخبره أن اللواء «محمد نجيب» رهن الاعتقال وأنه بين أيديهم الآن، فرد عليه «عبد الناصر» بأن أعيدوا اللواء إلى منزله حتى لا تتعقد الأمور» بعدها خرجت الجماهير تهتف في الشوارع مطالبة بعوده الرئيس نجيب، وقد اشترك فى هذه المظاهرة الإخوان المسلمين بزعامة «عبد القادر عودة» وعلى الفور قرر أعضاء الثوره وعلى رأسهم «جمال عبد الناصر» عودة الرئيس «محمد نجيب» درءاً لغضب الجماهير واستجابة لشعبيته الجارفة

القضية الأولى

بعد نجاح الثوره فى تحقيق اهدافها وتثبيت أقدامها طفت على السطح قضية «الديمقراطية» التى كانت القضية الأولى التى تشغل بال نجيب والتى كانت مثار خلاف بينه وبين أعضاء مجلس الثورة، وحاول نجيب فرض هذه القضية بعد رجوعه إلى السلطة وبعد أن تبين ولاء الشعب المصرى وحبه له. وجرت بالفعل اجتماعات فى أوائل مارس ١٩٥٤ بمجلس الثورة لتحقيق مطالب الرئيس نجيب فى عودة الأحزاب والبرلمان والحياة النيابية وترسيخ النظام الديمقراطى، وبعد عدة اجتماعات خرجت من بين أنيابهم قرارات ٥ مارس ١٩٥٤ تنص على عوده الأحزاب وعودة البرلمان وإلغاء الرقابة على الصحف.

وقد أثارت هذه القرارات حفيظة عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة وبخاصة «جمال عبد الناصر» الذى كان يعلم خطورة تطبيق هذه القرارات على الحياة السياسية فى مصر وخاصة بعد الثورة.

لقد كان ايمان محمد نجيب بالديمقراطية نابع من إيمانه بأن الأحزاب التى كانت

تعمل قبل الثورة من بينها أشخاص وقيادات سياسية على درجة عالية من الكفاءة، وكان «نجيب» مخلصًا اخلاصاً عميقًا لمصر، ويؤمن بأن هناك ساسة قدامى مخلصين يحبون كل ما من شأنه رفعة مصر.

معتقل المرج وسنوات العذاب

كانت أزمة مارس مقدمة للإطاحة بـ «نجيب» عن السلطة ونهاية لحقبة قصيره فى تاريخ مصر، ونهاية الديمقراطية، وقد استمرت هذه الأزمة حتى خروجه من السلطة فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ واعتقاله فى المرج لمدة عشرين عامًا، وأثناء الإقامة تبارت الحراسات المعينة عليه والآمرون بهذه الحراسة فى التنكيل به، وذاق نجيب عشرين عامًا من العذاب والشقاء والعنت من جانب أناس لا يعرفون إلا القهر طريقاً لتحقيق أهدافهم. وفى هذه الأثناء مرضت زوجته وانتقلت إلى مستشفى المعادى للعلاج، وظلت هناك مدة طويلة، وعاش نجيب أيامًا مُضنية شاقة، سوداء وحيدًا فى هذا المسكن الذى أصبح بمثابة «زنزانة» فردية لم يجد فيها سوى القطط والكلاب، التى وجد فيها وفاء لم يجده فى بنى الإنسان. ولك أن تتخيل معاناة ذلك الرجل الذى قاد ثورة يوليو والذى كاد يضحى بحياته من أجل مصر، كان يعيش حيث لا كتب ولا إذاعات وليس هناك أى وسيلة تبدد الوحشة والعزلة التى كان فيها، حتى ضباط الحراسة الصغار كانوا يخشون الاقتراب منه، حتي لا ينالهم عقاب أليم، ووصلت قمة المأساة عندما علم أن ابنه قد مات قتيلاً وأُحضر جثمانه إلى مصر ولم يره نجيب قبل أن يُدفن!

وظل نجيب بالمرج إلى أن أفرج عنه السادات وسمح له بمغادرة المعتقل، فانتقل إلى منزل بحدائق القبة وليس له رصيد فى البنك سوى ٩٠٠ جنية وعربة قديمة جداً.

اللحظات الأخيرة

عاش نجيب وحيدًا راقدًا فى سريره لا يراعيه غير عناية الله وإيمانه وصبره، وعجوز طاعنة فى السن، وبعد أن ساءت حالته نُقِلَ إلى مستشفى كوبرى القبة،

وفى مساء ٢٨ أغسطس ١٩٨٤م لبى الرئيس محمد نجيب نداء ربه عن عمر يناهز ٨٣ عاما بعد أن كتب تاريخ مصر فى فترة من أحرج فترات حياتها، وجنى عليه التاريخ وأنكره.

الثروة بعد الرحيل

بعد رحيل الرئيس محمد نجيب كان رصيده فى البنك الأهلى المصرى فرع مصر الجديدة ٦٢٤ جنيها مصريًا فقط لا غير. وقبل أن يدخل معتقل المرج وتُحدد إقامته كان رصيده فى نفس البنك ٨٩٩ جنيهاً و ٦١ مليما فقط لا غير دخل الرئيس من راتبه كرئيس جمهورية وهو مرتب فى حدود ٦ آلاف جنية، تنازل عن نصفه فى خطاب رسمى لوزير المالية، كما سبق وتنازل عن رتبة الفريق. ولأنه تنازل عن نصف مرتبه، فقد انخفض معاشه الذى تقرر له بعد خروجه من الحكم، وكان هذا المعاش بالضبط ١٨٣ جنيهًا و ٨٦٦ مليمًا، وكان هذا المعاش هو دخله الوحيد وزاد هذا المعاش ١٠٠ جنيه بعد قرار الرئيس أنور السادات بالأفراج عنه عام ١٩٧١، ولم يكن هذا المعاش البسيط يكفيه لأنه بجانب مصاريف بيته الشهريه، كان ينفق مبلغًا من المال على علاج زوجته ومبلغ على تعليم أولاده فى الخارج، ويبدو أن ضغط المصاريف عليه، جعله يقوم بعمل ميزانية دقيقة لبيته، يوقع عليها بعد مراجعتها، بعبارة «صحيح» ـ يعتمد. لواء محمد نجيب.

الأخلاق

عند وصول اللواء نجيب ليودع الملك فاروق أثناء إتجاهه للمنفي بالباخرة المحروسة، لاحظ وجود عصا تحت إبط قائد الجناح جمال سالم، فأشار إليه أن ينزل العصا، فالتقاليد العسكرية تقضى بذلك فى مواجهه ضابط برتبة أعلى، فما الحال إذا كان الملك؟!

وبعد أن أدى نجيب التحية للملك فاروق قال له «كنت أنوى تقديم إستقالتى من الجيش فى ٤ فبراير ١٩٤٢، دفاعاً عنك وعن اعتراضى لأى مساس بعرشك، ولكن اختلفت الظروف بعدها وأدت إلى أن أودعك اليوم.

الأوفياء الثلاثة

كان محمد نجيب يتميز عن الآخرين فقد كان أقرب المقربين له ثلاثة من الكلاب، وكان محمد نجيب يحبهم ويرعاهم ويخاف عليهم ويقدم الطعام والدواء بيديه لهم، ولم يكن مثيراً للدهشة أن يفرد الكثير من صفحات يومياته التى كان يكتبها فى الصحف عنهم، وكان نجيب يعتبر موت أحدهم يوم حداد ويوم غم ونكد.

وعندما سأله الصحفيون فى حوار معه: لماذا كل هذا الحب والأهتمام بهذه الحيوانات، قال نجيب: لأنهم بقايا الوفاء فى عالم لم أعرف فيه الوفاء وبقايا الحب فى زمن أنعدم فيه الوفاء والحب.. ولأنهم بقايا الحنان، فى عالم غرس فى صدرى كل الأشواك، وأسماء الكلاب الثلاثة «توته، هدهد، لايكا»

زيجات نجيب

بعد وفاة جميع أولاد نجيب وقبل وفاة يوسف كان الخلاف قائماً بإستمرار بين نجيب وابنه يوسف بسبب تعدد زيجات يوسف الذى تزوج سبع مرات. وفى حوار لنجيب مع آحد الصحفيين قال: يبدو أن تعدد الزوجات داء فى عائلتنا.. أو وراثة.. وكان أول من فعل ذلك هو أبى، يوسف نجيب فقد تزوج من امرأة قبل أمى سوادنية من قبيلة الشفايفية، أسمها «سيدة محمد حمزة الشريف» وانجب منها أخى الأكبر «عباس»، ثم طلقها، حتى أنا تزوجت أكثر من مرة، وكانت أول مرة من ام ابنتى الكبرى «سميحة» التى ماتت وهى فى ليسانس الحقوق ١٩٥١ بسرطان الدم، وثانى مرة تزوجت من أم أولادى «عائشة» عام ١٩٣٤ بعد أن طلقت أم سميحة بأربعين يومًا، والمرة الثالثة من سيدة تدعى «عزيزة» كانت قريبة لى وفى حاجة لمن يساعدها ويقف بجوارها.



رواد التنوير

- رفاعة الطهطاوى.. (الأزهرى الثائر)
- جمال الدين الأفغانى.. (المُطَارَدْ فى كل مكان)
- .. محمد عبده.. (العالِمُ العَلَمْ والوطنى الفقيه)
- جمال حمدان.. (عاشق مصر ومكتشف شخصيتها)
- طلعت حرب.. (حامل راية استقلال الاقتصاد المصرى)
- قاسم أمين .. (شمعة تنوير المرأة)





رفاعة الطهطاوى

الأزهرى الثائر

● اكتشف الشيخ العطار نبوغه فألحقه بأول بعثات محمد على إلى أوروبا.

● «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» تسجيل لدهشة الطهطاوى أمام حضارة جديدة.

● تعمد فى وثيقة زواجه أن لا يجلب لزوجته ضَرة.

● قال: «الأمة بحاجة إلى نوعى العلوم» «الجوانى» و«البرانى».



تقاس عظمة الرجال بقدر ما يُحدثونَه من تحولات فى ظروف وتاريخ مجتمعاتهم. وهذا ما فعله رائد عصر التَنوير، الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» الذى حرك مياه الفكر المصرى والعربى الراكدة، وأخرجها من أسر التقليد والتسجيل، إلى رحابة الحركة والتحديث والتفكير فى الغد.

عاش الطهطاوى (٧٢عامًا)، أنار خلالها ظلام خمسمائة عام سبقته، ومهد بأفكاره لنهضة علمية وفكرية، وأسس مدرسة تنويرية أمدت الأمة بمفكرين وثوار ومصلحين عظام.

ولد رفاعة عام ١٨٠١م، وهو العام الذى خرجت فيه فلول الحملة الفرنسية من مصر، وكان مولده فى «طهطا»، إحدى مدن صعيد مصر الصغيرة فى محافظة سوهاج.

من طهطا إلى الأزهر

تلقى رفاعة الطهطاوى، علومه الأولى فى بلدته «طهطا»، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وحفظ القرآن الكريم، ثم جاء إلى القاهرة، بعد وفاة والده، للدراسة فى الأزهر، وباعت والدته بعض حليها وعقارها لتوفر لابنها نفقات دراسته، التى استمرت خمس سنوات، من عام ١٨١٧ إلى ١٨٢٤م. وفى القاهرة يركز رفاعة كل جهده لتحصيل العلم، على أيدى مشايخ الأزهر، وفى مقدمتهم الشيخ حسن العطار، الذى أُعجب بهذا التلميذ النجيب، فقربه منه، واستقبله فى بيته، وشجعه على محاولة اكتساب المعارف العصرية، التى كان الشيخ العطار مولعًا بها.

وكان رفاعة، بعد أن أتم تعليمه الأزهرى فى سن الحادية والعشرين، أصغر وأنبغ من عُهد إليهم بالتدريس فى تلك الجامعة العريقة.

وعندما فكر محمد على، حاكم مصر فى ذلك الوقت، فى تأصيل الجانب الدينى عند جنود الجيش المصرى، عين فى الجيش مجموعة من الوعاظ، كان منهم رفاعة الطهطاوى.

إمام البعثة

كان رفاعة فى الخامسة والعشرين من عمره، سنة ١٨٢٦م، عندما خاض محمد على، غمار فكرة ثورية، تمثل نقلة حضارية كبيرة فى تاريخ مصر والشرق العربى، بقراره إرسال بعض الشباب إلى باريس ليتلقوا العلم هناك، ثم يعودوا لتنتفع بهم بلادهم.

وأراد أن يختار للبعثة إمامًا وواعظًا، وطلب من الشيخ حسن العطار أن يرشح له أحد علماء الأزهر، فاختار العطار تلميذه «رفاعة» وأوصاه أن يسجل ما يراه فى هذه الرحلة فى كتاب.

كانت مهمة «رفاعة» أن يؤدى بأعضاء البعثة شرائع الدين، ولم يكن مطلوبًا منه أن يدرس أو يتعلم، وكان من أفراد هذه البعثة بعض النابهين من الشباب المصريين،

الجانب الخاص

كان الطهطاوى، قصير القامة، واسع الجبين، متناسب الأعضاء، أسمر اللون، حازمًا مقدامًا، عالى الذكاء، وعلى قدر كبير من الثقة بالنفس، وهذا ما نهض به من حضيض العسر إلى مراتب المجد والفخر، حتى أصبح ممن يشار إليهم بالبنان، وكان فى أوائل حياته، إلى أن عاد من فرنسا، يلبس اللباس العربى، الخاص من الجبة والعمامة والقفطان، ثم بدله باللباس العصرى.

وكانت أسرة الطهطاوى، تتكون من زوجته كريمة الأنصارى، ابنة خاله قاضى القضاة، أحمد الأنصارى، وأنجب منها ولديه: بدوى بك رفاعة، وعلى باشا فهمى رفاعة، الذى كان وزيراً للمعارف فى حكومة الشاعر محمود سامى البارودى باشا.

وقد أنجب بدوى بك رفاعة، ابنا هو محمد، وست إناث، بينما أنجب على باشا فهمى ابنة واحدة، تزوجت ابن عمها، ومن أحفاد الشيخ رفاعة الطهطاوى الموجودين حاليًا: سفير مصر الأسبق فى طهران، محمد فتحى رفاعة، والصحافى على رفاعة، ورجل الأعمال عمرو محمود رفاعة.

بينهم: محمد أفندى بيومى من دهشور، وأحمد دقلة بك، من بسيون غربية، وأحمد طائل أفندى من بلتان قليوبية مركز طوخ، وأحمد بك السبكى من سبك التلات، وحسن بك نور الدين، من سنهور غربية، ومحمد على البقلى بك من زاوية البقلى فى المنوفية، وإبراهيم بك النبراوى من نبروة ـ دقهلية، وحماد عبد العاطى بك من أبو تيج، وعبد الله بك السيد، من الفيوم، وآخرون.

مع البعثة

أبحر رفاعة مع البعثة إلى باريس، وركب السفينة الحربية «لاترويت» من الإسكندرية، ومن ذلك الحين أصابته دهشة متواصلة مدة ست سنوات، هى سنوات رحلته وإقامته فى فرنسا، وسجل يوميات دهشته فى كتابه العظيم «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز».

كان عليه أن يثبت الدور الحقيقى للتدين والدين فى حياة المسلم، وأن يبذل لذلك، جهداً فوق العادة، فهو لم يكتف أن يكون واعظًا وإمامًا للبعثة، وإنما أظهر إرادة قوية ليشبع شوقه إلى العلم، وليكون جديرًا بثقة الشيخ العطار به. لم يكن مجرد رجل جاء ليؤم طلاب البعثة فى الصلاة، وإنما تحول إلى إمام لتحصيل العلم والمعرفة، وكان يقضى وقته متنقلاً بين غرفة الدرس والمحاضرات ينهل من العلوم كلها، ويتقن الفرنسية، ويتبحر فى آدابها وفنونها، وكل ما أبدعه الفرنسيون فى شتى المجالات.

عاش رفاعة فى باريس، مفتوح العينين، ومفتوح القلب والعقل والوجدان أيضا، ولم يقنع بأن تحمله قدماه إلى مسارحها ومقاهيها وحدائقها وطرقاتها، بل حمله طموحه إلى لب ثقافتها وعلمها وفكرها. وتنقل بين العلوم التطبيقية والإنسانية، وتأثر بأفكار مونتسكيو وفولتير وجان جاك روسو، الثلاثة الذين شغلوا الناس فى القرن الثامن عشر، «عصر العقل الأوروبى».

واستوعب الطهطاوى نظرية «سيادة القانون» التى جاء بها مونتسكيو، ودعت إلى أن يكون لكل أمة دستور يعطى لكل ذى حق حقه، ويفصل فى ما قد

ينشب بين الأمة وحكامها من نزاع، ويقوم على مبدأ الفصل بين السلطات. وآمن بما نادى به فولتير، بأنه لا حجة ولا حكم إلا للعقل، وألا تخضع إرادتنا وتصرفاتنا إلى الأفكار الجاهزة أو التقاليد المسيطرة.

وأدرك أهمية نظرية «العقد الاجتماعى» التى أتى بها جان جاك روسو. على أن يرعى الحكام مصالح المحكومين، لكى ينهض المجتمع ويتقدم ركب الحياة البشرية.

أكثر من مهمة

عاد رفاعة سنة ١٨٣١م إلى وطنه مصر بعد تلك السنوات الست، من الدهشة، والتعلم، وإعمال الفكر، متنقلاً بين الجغرافيا والتاريخ والفلك والهندسة وغيرها من العلوم الحديثة، والأفكار الثورية الإصلاحية، ليعيد صياغة أشياء كثيرة، وليغير مسار تاريخ أمته.

وظل فى حركة دائبة، حتى وفاته عام ١٨٧٣م، ولم يهدأ طوال أربعين عامًا. ولم يكتف بنجاح حققه، بل كانت إرادته تدفعه ليتبع النجاح بالنجاح.

وبلغ محمد على ما أظهره رفاعة، من النباهة والرغبة فى العلم من تلقاء نفسه، فسر به سرورًا عظيمًا، واستبشر بطالعه، وما أن عاد إلى أرض الوطن حتى ولاه مسؤولية الترجمة فى المدرسة الطبية التى كان أنشأها سنة ١٨٢٦م فى قرية «أبى زعبل»، قرب القاهرة برئاسة كلوت بك الفرنساوى، وبمساعى الطهطاوى وبمساعدته تم إنشاء أول جريدة عربية فى المشرق، وهى جريدة «الوقائع المصرية»، التى مازالت تصدر منذ سنة ١٨٣٢م، وانتقل سنة ١٨٣٢ من المدرسة الطبية فى أبى زعبل إلى مدرسة الطوبجية «المدفعية» فى طره، لترجمة الكتب الهندسية والفنون العسكرية، وعندما افتتح محمد على مدرسة الألسن الأجنبية سنة ١٨٣٥، عهد بإدارتها إلى رفاعة الطهطاوى، وكانت تُدعى عند فتحها «مدرسة الترجمة»، وأدار الشيخ رفاعة المدرسة باقتدار، واختار لها تلاميذ من سائر جهات القطر المصرى، ثم عُهد إليه بعد ذلك بإدارة المدرسة التجهيزية

للطب فى الأزبكية مع مدرسة الألسن، ومدارس أخرى فرعية، منها مدرسة للفقه والشريعة، وأخرى للمحاسبة، وأخرى للإدارة والأحكام الإفرنجية.

وتألف «قلم الترجمة» سنة ١٨٤٢م، من أول فرقة تخرجت فى مدرسة الألسن، برئاسة رفاعة، وبعد سنة ونصف السنة، نال الطهطاوى رتبة قائمقام، ثم أميرالاى، فصار يدعى «رفاعة بك»، وكان رفاعة مازال ناظرًا لمدرسة الألسن، حتى أغْلقت فى عهد الخديوى عباس الأول، الذى أمر بإرساله إلى السودان لنظارة مدرسة الخرطوم، وعاد رفاعة إلى القاهرة بعد موت الخديوى عباس، وتولى وكالة مدرسة الحربية، ثم أصبح ناظرها مع نظارة قلم الترجمة، وتولى إدارة جريدة «روضة المدارس»، مع مثابرته على التأليف. وظل قائمًا بهذه المهام حتى توفاه الله سنة ١٨٧٣م (١٢٩٠ للهجرة).

تعليم المرأة

كان الطهطاوى رائدًا فى ميدان التعليم عامة، واهتم بصفة خاصة بتعليم وتربية المرأة، حيث دعا إلى إعادة النظر فى كل القيم التقليدية بالنسبة إلى المرأة، وبشر بالحرية والمساواة والإخاء بين الجنسين كوسيلة لتقدم الوطن، ووضع الأساس القوى لتحرير المرأة، وحقها فى العلم والعمل. وسبق لذلك دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة، بخمسين عامًا، فقد كان صاحب أول دعوة لتعليم وتربية البنات، وفتح أول مدرسة نسائية، وهى «المدرسة السنية»،ودعا إلى وجوب السماح للمرأة بالعمل، وتحصيل العلم، وكان ذلك موضوع كتابه المهم «المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين». وفى ميدان حقوق المرأة، كان الطهطاوى، صاحب رؤية متقدمة على زمانه، فهو أول رجل يتعهد فى وثيقة زواجه من كريمة الأنصارى، بأنه لن يتزوج عليها بامرأة أخرى.

الديمقراطى الثورى

كان رفاعة، إمامًا للتجديد، وحاول فى كل كتبه أن يحث المسلمين ويدفعهم إلى البحث فى العلوم العصرية، وأن يتعلموا الفنون والصنائع المختلفة، التى

سبقنا إليها العالم المتقدم، ولا يعنى هذا أنه تخلى عن قيمه ومبادئه، والاهتمام بعلوم الدين. فقد كان يرى أن هناك نوعين من العلوم: علوم «جوانيه» تعنى بالروح الإنسانية، كعلوم الدين والفقه، وعلوم «برانية»، وهى العلوم التى لم تكن تعرفها مصر فى ذلك الوقت، وهى علوم تعنى بتجربة الإنسان، وحياته على الأرض، وتيسر له أموره ومسعاه، وتنظم له مسيرته وخطاه، وهى علوم الهندسة والكيمياء والمساحة والطب والفلك والصيدلة، وهى ما حاول رفاعة، الثائر، أزهرى النشأة، أن يستنبتها فى تربة مصر.

كان رفاعة الطهطاوى، ديمقراطى التفكير، مؤمنًا بأن وظيفة الحاكم هى العمل لمصلحة الشعب، وكان جريئًا فى طرح أفكاره، التى تدعو إلى أن يكون هناك دستور ينظم علاقة الأمة بحكامها، وهو أول من أرسى فكرة الوطن والوطنية خلال حياته العلمية والتعليمية.

أشاد رفاعة بالحرية التى يعيش فى ظلها الفرنسيون، وبرر تمتعهم بها، بأن فى بلادهم قانونًا مكتوبًا يوضح حق الحاكم والمحكوم، ويتراضى عليه الفريقان، وهو الدستور.

أهم مؤلفات رفاعة الطهطاوى

١- «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز»، ويصور فيه رحلته إلى فرنسا.
٢- «التعريفات الشافية لمريد الجغرافية».
٣- «جغرافية ملطبرون».
٤- «قلائد المفاخر فى غريب عوائق الأوائل والأواخر».
٥- «المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين».
٦- «التحفة المكتبية فى النحو».
٧- «مواقع الأفلاك فى أخبار تليماك».
٨- «مناهج الألباب المصرية فى مناهج الألباب العصرية».
٩- «مختصر معاهد التنصيص».
١٠- «المذاهب الأربعة».
١١- «شرح لامية العرب».
١٢- «القانون المدنى الإفرنجى».
١٣- «توفيق الجليل وتوثيق بنى إسماعيل».
١٤- «هندسة ساسير».
١٥- «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز».
١٦- «جمال الأجرومية».

وقد بلغ من ولع رفاعة بهذا الدستور، أن ترجم فصوله الرئيسية كاملة فى كتابه «تخليص الأبريز فى تلخيص باريز». ولم يكتف بذلك، بل عرض للمعارك التى دارت فى فرنسا، من أجل الدستور وتعديله، مشيرًا إلى ثلاثة أنواع متصارعة من الحكم هى: الملكية المطلقة، والملكية المقيدة، والجمهورية «التى ترد لأول مرة بهذا المعنى فى اللغة العربية».

وأشار الطهطاوى إلى قول جان جاك روسو، «بأن الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة، ويجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم»، ووصلت به الاستنارة إلى القول إن شريعة الإسلام، التى عليها مدار الحكومة الإسلامية، تشمل الأنواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها.





جمال الدين الأفغاني[1]

المُطارَدُ فى كل مكان

- المنفى طلبا للحق سياحة والسجن فى سبيله رياضة.
- كأن حاله كان من حالنا: المسلمون مختلفون على الاتحاد متحدون على الاختلاف.
- منهجه قام على الثوابت الإسلامية المتكاملة مع الحياة والكون والحرية.
- التعاون الوثيق مع الإمام محمد عبده أسس لتيار تنويرى إسلامى جديد.
- رفض عرضا إنجليزيا لتتويجه سلطانا على السودان.



عندما طاف المصلح جمال الدين الأفغانى، عدداً من مناطق العالم الإسلامى، في النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وجد فيها أحوالاً تثير الحزن والخوف، وتصعب على كل ذى ضمير.

فقد كان المسلمون والعرب نهبًا للاستعمار وغارقين فى الجهل والتخلف والفقر. وكتب الأفغانى فى وصف دائهم والدواء اللازم، ما يكشف عن عبقرية متميزة.

ولم تُستجب دعوة الأفغانى، وكأننا مازلنا اليوم كما كنا فى زمنه، مع إضافة صفة جديدة إلى أوضاعنا، وهى تهمة «الإرهـاب» وشراسة تكالب الآخرين علينا.

وفى وسط هذا النفق المظلم الذى تسير فيه الأمة العربية والإسلامية، وتلك الأوضاع المأساوية التى جعلت الأعداء ينقضون عليها من كل صوب، ويتداعون عليها يقتلون الأبرياء المدافعين عن حقوقهم فى فلسطين، ويحاصرون الأطفال والنساء فى العراق، ويرفعون عصا التهديد فى وجه كل من يحاول الذود عن الكرامة العربية الجريحة.

فى هذه الأوقات العصيبة، يطل علينا وجه بطل من أبطال التاريخ الإسلامى، يصرخ فينا شعوبًا وحكامًا يطالبنا بنبذ الخلاف والتوحد فى مواجهة العدو.

حدد جمال الدين الأفغانى رسالته وهدفه بقوله:

«لقد جمعت ما تفرّق من الفكر ولمت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفنى الأفغان، وهى أول أرض مس جسمى ترابها، ثم الهند وفيها تثقف عقلى، فإيران بحكم الجوار والروابط، فجزيرة العرب، من حجاز هى

مهبط الوحى، ومن يمن وتابعتها، ونجد، والعراق، وبغداد وهارونها ومأمونها، والشام ودُهاة الأمويين فيها، والأندلس وحمراؤها وما آل إليه أمرهم، فالشرق.. الشرق، فخصصت دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه، فوجدت أقتل أدوائه انقسام أهله، وتشتت أدائهم واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم، وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم».

نظرة للحياة

يُعتبر «جمال الدين الأسد أبادى الأفغانى»، من أعلام النهضة الفكرية الحديثة، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، واجتمع له من الصفات العقلية، والعلمية، والأخلاقية، النادرة، والزهد فى الدنيا والقوة فى طلب الحق لكل مظلوم، فرداً كان أم جماعة أم دولة، ما جعله محطّ الأنظار شرقًا وغربًا. وهو الذى قال حين طُلب منه أن يكتب سيرته الذاتية، «وأى نفع لمن يذكر أنى ولدت سنة ١٢٥٤ للهجرة، وعمّرت أكثر من نصف عصر، واضطررت إلى ترك بلادى الأفغان مضطربة، تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأُكرهت على مبارحة الهند، وأُجبرت على الابتعاد عن مصر، أو إن شئت، قل: «نفيت منها ومن الأستانة»، مقر الخلافة العثمانية وقتها، ومن أكثر عواصم الأرض، كل هذه الأحوال خاطرات لا تسرنى، وليس فيها أدنى فائدة للقوم. أما القول إنها لا تسرّنى لا بمعنى أنى نُفيت من البلاد أو سجنت، كلاً. لأنى أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العُتاة «رياضة». والنفى فى سبيل ذلك السبيل «سياحة»، والقتل «شهادة»، وهى أسمى المراتب، فأنا عن نفسى غير راض، ذلك لأن الخمول قد قعد بى، فلم يوصلنى إلى أسمى مرتبة وهى «مرتبة الشهداء» وحطنى فى مصاف المنفيين من أرض إلى أرض، فما أبعدنى فى كل ذلك عن أولى الهمم، ومن قاموا بالأعمال الخطيرة، أو المطلب الجلل».

كان جمال الدين الأفغانى، مثالاً للمناضل، مثالاً من أجل بعث إسلامى جديد، وحركة إسلامية ناهضة تستعيد للمسلمين مجدهم السالف، وعزهم الغابر، متمسكين بالجذور الأصيلة للإسلام فى مواجهة الهجمة الغربية

الاستعمارية الشرسة. وكان يرى أن تحقيق هذا الهدف يتطلب قيام جامعة إسلامية، تضم كل المسلمين فى وحدة سياسية للعالم الإسلامى، حيث ترتبط دوله ببعضها بعضًا، بروابط سياسية، واقتصادية محكمة، إمامها القرآن والشورى، ولا تتخلّى عن الأخذ بأسباب التقدم العلمى الذى برع فيه الغرب.

من سلالة الحسين

وُلِد جمال الدين الأسد أبادى الأفغانى سنة ١٨٣٩ للميلاد، فى قرية «أسعد آباد» من قرى منطقة كنر القريبة من كابول، العاصمة الأفغانية، لأُسرة تنحدر من أُصول عربية حجازية، يرجع بها النسب إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب، مرورًا براوى الحديث المشهور الإمام «الترمذى». وكانت أُسرته ذات نفوذ سياسى وإدارى فى منطقتها.

انتقل فى الثامنة من عمره، مع الأسرة إلى العاصمة كابول، عندما خشى دوست محمد خان، حاكم البلاد وقتها، من نفوذ أسرة جمال الدين، فسلبهم أرضهم وإمارتهم وأرسلهم إلى العاصمة، حتى يكونوا بين يديه وتحت عينيه. وأخذ والده «صفتر»، يشرف على برنامج تعليمه فى تلك السن.

وبلغ الثامنة عشرة، وكان قد درس مبادئ العلوم العربية، وعلوم الشريعة من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وكلام، وتصوّف، ومنطق وأخلاق، وسياسة، وسافر إلى الهند، فأقام هناك سنة ونصف السنة استطاع أثناءها أن يلم ببعض المعارف الحديثة، من حساب وهندسة وفلك وجبر، وحتى نظريات الطب والتشريح. كما تعلم مبادئ اللغة الإنجليزية، فجمع بين الحكمتين. ثم سافر من الهند إلى الحجاز سنة ١٨٥٧م، لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى كابول موظفًا فى حكومة الأمير الحاكم، دوست محمد خان، إلى أن نشبت الحرب الأهلية، إثر انقسام أبناء الأمير على أنفسهم بعد وفاته، وانضم جمال الدين إلى «محمد أعظم» أحد هؤلاء الإخوة، الذى كُتب له النصر، وارتفع شأن جمال الدين عند ذلك الأمير، فاتخذه كبيرًا لوزرائه.

وتجددت الحرب الأهلية، وناصر الإنجليز الأمير «شيرعلى» وأمدوه بالمال والسلاح، فانتصر على أخيه، واضطره ذلك إلى الفرار من البلاد، فانتقل جمال الدين إلى الهند منفيًا، سنة ١٨٦٩م. وأحاطه الإنجليز بعملائهم، ولم يسمحوا له بالاتصال بزعماء المسلمين، ولم يقم فى الهند أكثر من شهر، ثم طلبوا منه مغادرة البلاد.

الاتجاه إلى مصر

اتجه جمال الدين إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٦٩ للميلاد/ ١٢٨٦ للهجرة، وكانت شهرته قد سبقته إلى الديار المصرية، وسعى الإمام الشيخ محمد عبده، إلى لقائه. وكان هذا اللقاء مقدمة للصلة الوطيدة بينهما. ولكن جمال الدين، لم يمكث فى مصر أكثر من أربعين يومًا ذهب فيها إلى الأزهر، وألقى دروسًا فى النحو والحكمة على الطلبة الشوام (أبناء بلاد الشام) الدارسين فى الأزهر. وذهب من القاهرة إلى استانبول، فرحب به العلماء وأصحاب المناصب، وأكرم السلطان عبد الحميد وفادته. ولم يضيع جمال الدين الفرصة فى الدعوة إلى الإصلاح الدينى والسياسى، فطار صيته فى أنحاء تركيا، غير أن هذا النجاح، الذى لقيه، أوغر عليه صدور الحاقدين العاجزين، فطلب السلطان من جمال الدين، أن يغادر البلاد تسكينًا للخواطر، فرحل عنها إلى مصر من جديد، سنة ١٨٧١م.

وتعتبر فترة إقامة الأفغانى فى مصر من (١٨٧١ -١٨٧٩)، من أهم فترات كفاحه السياسى، والتنويرى، فوجد الشباب المصرى والعربى عند جمال الدين، روحًا جديدة غير مألوفة عندئذ، وجدوا عنده مذهبًا متكاملاً عن الدين والحياة، والكون، والإنسان، والحرية، ومقاومة التغريب، وضرورة التمسك بالمنبع الأصيل للثقافة الإسلامية، وهو القرآن الكريم. وقد استطاع الأفغانى بخطبه الملتهبة، أن ينفث فى النفوس نزوعًا إلى الحرية، ورغبة فى العدالة، وخطب مرة فى الإسكندرية، قبل خلع الخديوى إسماعيل، فقال: «أنت أيها الفلاح المسكين

تشق قلب الأرض لتنبت ما تسدّ به الرمق، وتقيم أود العيال، فلم لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة تعبك؟». وبذل جهدًا كبيرًا فى تنبيه المصريين إلى مضار الاستكانة لتدخل الأجانب فى شؤونهم، فخطب فيهم: «لو كان فى عروقكم دم ينبض، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر، فتبعث النخوة والحمية، لما رضيتم بهذا الذل، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم تضحكون، تناوبتكم أيدى الغزاة من كل جنس، وأنتم كقطع الصخر الملقاة فى الفلاة، لا صوت لكم ولا حس».

ولم يكتف الأفغانى بالخطابة، الدروس، واللقاءات مع القوى الوطنية فى ذلك الوقت، وإنما أخذ يكتب فى الصحف كتابات نارية، كان ينشرها باسمه أحيانًا، أو بأسماء تلاميذه، أو بأسماء مستعارة، فاتخذت حكومة الخديوى توفيق، قرارًا بنفيه، بحجة «أنه رئيس جمعية سرية من الشبّان ذوى الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا؟».

إلى الهند

غادر جمال الدين مصر متجهًا إلى الهند، وأقام فى مدينة حيدر آباد، حيث ألّف باللغة الفارسية كتابه «الرد على الدهريين»، الذى نقله الشيخ محمد عبده إلى العربية، وردّ فيه على أصحاب المذهب الطبيعى، الذى انتشر فى الهند، بتأييد من المستعمر الإنجليزى، وقال فى الكتاب: «ومقصد أرباب هذه الطريقة «الدهرية»، محو الأديان وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية»، ثم يقول: «إذ لا ريبة فى أن الدين مطلقًا هو سلك النظام الاجتماعى، ولن يُستحكم أساس للتمدن من دون الدين البتة. وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان وطرح كل عقيدة دينية، أما عدم شيوع هذه الطريقة وقلّة سالكيها، مع طول الزمن على نشأتها، فسببه أن نظام الألفة الإنسانية، وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية، كانت له الغلبة على أُصولها الواهية، وشريعتها الفاسدة».

وقامت الثورة العُرابية فى مصر، إبَّان إقامة الأفغانى فى الهند، فأبعدته

الحكومة الهندية من حيدر آباد، وفرضت عليه أن يقيم فى كلكتا» إلى أن انتهت الثورة العُرابية، باحتلال الإنجليز مصر، وعندئذ سُمح له بمغادرة الهند إذا شاء، فذهب إلى باريس، وأقام فيها ثلاث سنوات حافلة بالنشاط السياسى فى الدعوة إلى تخليص البلاد الشرقية من تدخل الحكومات الغربية فى شؤونها، وفى الدفاع عن عقائد الإسلام كلما تعرضت للهجوم عليها، من المغرضين.

العروة الوثقى

والتقى الأفغانى فى باريس بتلميذه وصفيِّه، الإمام الشيخ محمد عبده، الذى أُبعد عن مصر لاشتراكه فى الثورة العُرابية، وفى العمل ضد المحتل الإنجليزى، والحكام المتعاونين معهم، وأصدر الشيخان فى باريس، مجلة «العروة الوثقى»، ولخَّصا فى العدد الأول، الصادر فى الخامس من جمادى الأولى عام ١٣٠١ للهجرة (الثالث من مارس ١٨٨٤م)، أهدافهما من إصدار هذه المجلة فى عدد من المبادئ هى:

* بيان الواجب على الشرقيين، وأسباب فساد حالهم.

* إشراب النفوس عقيدة الأمل، وترك اليأس.

* الدعوة إلى التمسك بالأصول، التى كان عليها أسلافهم وعزّوا بها.

* الدفاع عمّا يُتهم به الشرقيون عمومًا، والمسلمون خصوصًا، خاصة أنهم لن يتقدموا ماداموا متمسكين بدينهم.

* إخبارهم بما يهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.

* تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، وتمهيد الطريق إلى جامعة إسلامية (تجمُّع)، تُعيد شأن الإسلام الأول، وتقوية فكرة الرابطة الشرقية، بتقوية العلاقات السياسية، والتجارية بين شعوب الشرق، صدًّا لتيار الغرب وزحفه.

ولم يصدر عن هذه المجلة سوى ثمانية عشر عددًا، قبل أن تتوقف. فقد صُودرت فى الهند، ومصر، وفُرضت غرامات مالية باهظة على كل من يقرأها أو يقتنيها.

السودان وإيرلندا

وزار الأفغانى لندن، أثناء وجوده فى باريس، ليناقش جوانب الثورة المهدية، التى قامت فى السودان، وحاول محاوروه الإنجليز، التعرف على رأيه فى المسألة السودانية، أوضح لهم خطأ سياسة إنجلترا نحو الإسلام، ومصر والشرق عمومًا، فاقترحوا عليه تتويجه سلطانًا على السودان، لاستئصال ثورة المهدى، وتحقيق أهداف بريطانيا فرفض، لأن بريطانيا تعطى ما لا تملك من لا يستحق، والأولى ببريطانيا إصلاح إيرلندا، فأُعجب به الإيرلنديون الأحرار.

ثم استدعاه ناصر الدين، شاه الفرس إلى طهران، وقرّبه إليه وعهد إليه بوزارة الحربية مع لقب «مستشار خاص للشاه». لكن الشاه ما لبث أن خاف من شعبيته، وخشى على سلطانه منه، فتنكر له، ولمّا شعر جمال الدين، بأنه غير مرغوب فيه، استأذن الشاة فى السفر إلى روسيا القيصرية.

وأقام فى مدينة بطرسبرغ، أربع سنوات، نشر فيها عدة أبحاث عن العالم الشرقى، والسياسة الدولية، والتقى القيصر، لكنه سرعان ما اختلف معه حول دور الشورى والشعب فى تسيير دفة الأمور، فأمر القيصر بإخراجه من روسيا. وتجول فى أوروبا، والتقى صدفة مجددًا، الشاه الفارسى فى «ميونيخ» عام ١٨٨٩م، واعتذر له الشاه، وطلب منه أن يعود إلى طهران، فرجع معه لتنظيم الدولة، فسنَّ لها قانونًا تكون فيه الحكومة ملكية شورية، ثم دخل فى صراع ضد الشاه، الذى تواطأ مع الاستعمار ضد دولة الخلافة، وضد الحركة الوطنية الإيرانية، وأجبر الشاه على سحب امتياز شركة «التبغ» البريطانية «ريجى». بعد أن نجح فى جعل الشعب يقاطع إنتاجها، وهو ما جعل الشاه يرسل خمسمائة من فرسانه يقتحمون على الأفغانى فراش مرضه، ليقودوه على محفة خشبية، وهو

ينتفض من الحمّى، إلى البصرة فى العراق، فقامت ثورة من مريديه أخمدها الشاه، الذى طعنه رجل من أهل فارس وقتله ثأراً لجمال الدين.

الأسد المكبل بالذهب

استدعاه السلطان عبد الحميد؛ الذى كان حريصًا على استبقائه على مقربة منه ليتيسر له مراقبته، ولما وصل خبر اغتيال الشاه فى إيران، أظهر الأفغانى سروره، فزاد السلطان عبد الحميد فزعًا منه، وأمر بتشديد الرقابة عليه، وظل الأفغانى فى مدينة استانبول خمس سنوات، قضاها كما وصفه سائح ألمانى، زاره سنة ١٨٩٦، «فى سجن النعمة، خلف قضبان من ذهب»، ولم يتزوج جمال الدين الأفغانى، تخففًا من أعباء الأسرة، وتفرغًا لكفاحه. وعندما أهداه السلطان إحدى جواريه الجميلات، ليقيد حريته بالزواج، رفض. وعندما أحس بضغط الحاشية، هدَّد بأن يزيل من نفسه مؤهلات الرجل للزواج. وقال له الطبيب: «إنك بذلك تعاند الطبيعة»، فأجابه: «إن الطبيعة أقدر منى ومنك على تنظيم نفسها بنفسها».

الوفاة

توفى جمال الدين الأفغانى، صبيحة التاسع من مارس سنة ١٨٩٧م، متأثراً بمرض السرطان، الذى أصاب فكه، وقيل إن السلطان عبد الحميد دس عليه من ساعد على موته، ودُفن فى قبر متواضع جداً، ظل مهجوراً حتى شيده العالم الأمريكى كرين، سنة ١٩٢٦، ونقل الرفات سنة ١٩٤٤م إلى بلاده أفغانستان، عبر البلاد العربية، فى موكب رسمى وشعبى.

من أقواله:

الاستعمار الثقافى

● نبه الأفغانى الشعوب الإسلامية إلى خطر جديد هو الاستعمار الثقافى فقال: «يتخذ الغربيون فى الشرق أساليب عجيبة للقضاء على الروح القومى، وقتل

التربية الوطنية، وتقويض الثقافة الشرقية: فتراهم يزيفون للشرقيين أن ينكروا على قومهم كل مأثرة وكل فضيلة، ويلقون فى روعهم أنه ليس فى لغاتهم العربية أو الفارسية أو الهندية آداب تؤثر، ولا فى تاريخهم مجد يذكر، ويوهمونهم بأن قصارى المجد للشرقى النابه أن ينفر من سماع لغته، وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها، وإن ما تعلمه من الرطانة الغربية هو غاية ما يستطاع بلوغه من الثقافة الإنسانية: ألا ليت الشرقيين يدركون أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مآثر رجالهم».

الوصول إلى القمر والأجرام السماوية الأخرى

● وكأن جمال الدين كان يستشرف المستقبل واختراعاته حين قال «. . . وعندى، إذا ظفر العقل فى هذا الحراك والجدال، وتغلب إقدامه على الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح، لا يلبث طويلا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان، وغاص فى البحار يسابق الحيتان، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره، كأنه قاب قوسين أو أدنى، وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر، أو الأجرام الأخرى؟!».

الاتجاه العقلى فى الإسلام

● وكان الأفغانى يهيب بالمسلمين على اختلاف مذاهبهم أن يستعملوا هذا المبدأ العقلى الذى امتاز به الإسلام على سائر الأديان فيقول: «هذا الدين يطالب المؤمنين بأن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل: تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة، وإخمال العقل وإنطفاء نور البصيرة».

الحث على الجهاد ضد المستعمر

● كان يردد دائمًا «أنرضى ونحن المؤمنين، وقد كانت لنا الكلمة العليا، أن

تضرب علينا الذلة والمسكنة؟! أو أن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة؟! بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء، حتى يخلى منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته؟!!».

● وعندما يناقش العلاقة بين الشعب ومستعمريه، ويحدد معالم «الخيانة»، فإنه لا يراها مقصورة على «المتعاونين» مع الأعداء بل ويراها كذلك عارا لاصقا بالسلبيين، والمتهادنين فى المعركة ضد هؤلاء الأعداء فيقول: «لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس، وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس - بل خائن الوطن من يكون سببا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها».

العقل مرة أخرى

● ثم يعود الأفغانى ليتحدث عن العقل مرة أخرى فيستعير كلمات ابن عربى التى يقول فيها: أيحسب الإنسان أنه جرم صغير؟ وفيه إنطوى العالم الأكبر ثم يمضى قائلا «نعم.. إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلى بعقله ما غمض وخفى من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا، وما صوره جحوده وتوقف عقله عنده بأنه (خيال) قد أصبح حقيقة».

معنى الإرهاب

● ثم يتحدث الأفغانى فى مقال له عن حرب الشعب مهاجما الذين يصفونها بأنها (إرهاب) فيقول: «إنما ننادى على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه، وماله، وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه، وهى سنة جرى عليها دعاة الحق فى كل أمة».

ونعتقد أن خير ما يصور شخصية الأفغانى، فى طموحه وإبائه هو ذلك المعنى الذى أشار إليه هو نفسه فى بيت الشاعر العربى:

«عش عزيزا أو مت وأنت كريم   بين طعـن القنـا وخفـق البنـود»

ثم يقول: إن مقاومة الأهالى أشد أضعاف مضاعفة من القوى العسكرية - النظامية - ... وما جرى لحكومة إنجلترا مع الأفغانيين أعظم شاهد على ما نقول. دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكرى، واستولت على المدن، وكاد قدمها يرسخ فى البلاد، فلما قام الأهالى من كل صقع، والتحمت المقاتل فى جميع أنحاء أفغانستان عجز الستون ألفا عن الوقوف موقف الدفاع، واضطرت حكومة إنكلترا بعد تسلطها سنتين، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترلينى إلى ترك البلاد!!

وما أشبه الليلة بالبارحة فى فلسطين وأفغانستان.

رحم الله جمال الدين الأفغانى ذا البصيرة النافذة التى كانت تستشرف آفاق المستقبل وتعبر عنه.





الشيخ محمد عبده

العالم العَلم والوطنى الفقيه

● قال عنه الأفغانى:

« كفى بمحمد عبده لمصر عالما ».

● السلطان العثمانى توسط له عند الإنجليز ليتخلص منه.

● الشيخ درويش أخرجه من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة

● أفتى بعزل الخديوى وانضم لثورة عرابى

● رأيه فى الغرب:

« عطفكم كعطف الذئب على الحمل »

وسط الظلمة الحالكة التى عاشها العالم العربى والإسلامى فى القرن التاسع عشر، برزت أسماء مضيئة بعقول متفتحة وبصائر نافذة نغيطهم عليها نحن أبناء القرن الحادى والعشرين. ففى تلك الأيام الصعبة ظهرت أسماء عظيمة فى فضاء العالم الإسلامى، منها جمال الدين الأفغانى، وعبد الرحمن الكواكبى، ومحمد عبده وبعدهم محمد رشيد رضا وغيره.

آثار الشيخ محمد عبده كرائد عظيم للإصلاح الدينى والاجتماعى. الطريق أمام دعاة الإصلاح للسير قدما نحو استعادة المجد الضائع للحضارة الإسلامية. وكشف الإمام للناس عن كثير من وسائل النهضة وسُبل التقدم، فرفع راية الجهاد ضد مظاهر التخلف، ودعا الشباب إلى نبذ أسباب الجمود والتخلف، وسار يناهض سطوة الحكام الإنجليز ويزيل ظلام الغشاوة من عيون الناس، ليقاوموا الفساد. ويطردوا عن أنفسهم عوامل اليأس والقنوط، اللذين أصاباهم بسبب الاحتلال الأجنبى البغيض لأرض «الكنانة» الذى أدى إلى تخلفهم عن اللحاق بالركب الحضارى العالمى الناهض.

وأدرك محمد عبده، ببصيرته النافذة أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صَلُحَ به أولها. فالدين هو أساس الإصلاح فى كل زمان ومكان، فشرع فى تطوير الأزهر، مناهجه ومدارسه وراح يعقد الحلقات التعليمية ليوضح للناس مراد الله من خلقه. وأخذ يكتب المقالات التنويرية فى الصحف، ليرقى بعقول الناس ويعلو بثقافاتهم. وكان له فى كل وظيفة تقلدها أو عمل تولاه بصمات تجديدية واضحة، غايتها نبذ التقليد العقيم السائد وتحقيق الإصلاح الدينى والأجتماعى والفكرى.

ولم يكن الطريق الذى سلكه «محمد عبده» لتحقيق الإصلاح مفروشاً بالورود. بل كان مليئا بالأشواك مرصوفاً بالوعورة.

وهو الذي وصفه مستشرق أمريكي فقال: «كان محمد عبده فلاحاً صميما. وليد تربة مصر العريقة، قبل أن يغدو فقيهاً وإماماً للمسلمين، وإننا لنلمح فيى إخلاصه لبلده وفى دعوته إلى الوطنية مزاجاً عجيباً من الوفاء للماضى المجيد، والاستمساك بيقين الدين».

كان شخصية منفتحة على العالم، وهذا ما جعل البعض يعترض عليه قائلاً: «ما هذا الشيخ الذى يتكلم بالفرنسية، ويسيح فى بلاد الإفرنج، ويترجم مؤلفاتهم، وينقل عن فلاسفتهم، ويباحث علماءهم، ويُفتى بما لم يقل به أحد من المتقدمين؟».

نشأة مثابرة

كانت حياة الإمام مثل شخصيته خصبة، حافلة صنعها بقلبه، وقالبه، فكان يطالع ويتعلم، ويحرر جريدة الوقائع المصرية، ويلهم الثورة العرابية وينشر دعوة العروة الوثقى فى العالم الإسلامى كله، ويشتغل بالقضاء، فى المحاكم ويُعَلم فى الأزهر، ويُصدِرُ الفتاوى المستنيرة، ويشترك فى جلسات مجلس شورى القوانين. وفى مجلس الأوقاف الأعلى، ويُؤلف الرسائل الدينية، وينشر المقالات السياسية والفلسفية، ويفسر القرآن من خلال رؤيته الثاقبة، التى ترى أن إصلاح الأمة لا يكون إلا بإصلاح عقول وقلوب أبنائها.

وُلِدَ الشيخ محمد عبده عام ١٨٤٩ فى قرية «محلة نصر» فى محافظة البحيرة، لأسرة متوسطة الحال تعمل فى الزراعة، وتوسم أبوه فيه ذكاء ونبوغاً، فأراد أن يجعله من رجال الدين، فأدخله كُتّاب القرية ليحفظ القرآن الكريم. وجاوز العاشرة من عمره، وأتم حفظ القرآن الكريم. وذهب إلى الجامع الأحمدى فى طنطا، ليُتِم تجويد القرآن ودراسة قواعد اللغة العربية، لكن منهج التعليم فى الجامع الأحمدى، كان شاقاً على الصبى الصغير. الذى كاد يعتريه اليأس، ففكر فى أن يعود إلى قريته ويشتغل مثل إخوته فى الزراعة لولا أن التقى أحد أخوال أبيه، الذى أعاد إليه ثقته بنفسه، وقد وصف الإمام الأثر الذى

تركه فيه قريبه ذاك، وكان يُدعى الشيخ درويش فقال: «تفرقت عنى جميع الهموم، ولم يبق إلا هم واحد، هو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس، ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه نفسى، سوى ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة». وانتقل الشيخ إلى الدراسة فى الجامع الأزهر، عام ١٨٦٦م وحصل منه على شهادة العالمية عام ١٨٧٧ فأصبح من حقه التدريس فى الأزهر، وراح يلقى دروساً فى التوحيد والمنطق والأخلاق، إلى أن عُيِّن مدرسًا للتاريخ الإسلامى فى مدرسة دار العلوم، «كلية دار العلوم» حالياً وعُيِّن فى الوقت ذاته مدرسًا للغة العربية فى مدرسة «الألسن».

التقاؤه الأفغانى

مرت بمحمد عبده خلال دراسته الأزهرية، ظروف نفسية جعلته ينقطع عن الدرس والتحصيل، ويحاول اعتزال العالم، وأخذ يمارس ضروب الزهد والخلوة مع النفس، إلى أن وفد إلى مصر عام ١٨٧١ «الإمام الثائر» جمال الدين الأفغانى، وكانت شهرته قد سبقته، كداعية للتحرر من الاستعمار الأجنبى ووحدة الأمة الأسلامية، ومجدداً للفكر الدينى معلياً من شأن العقل. فصار الشيخ محمد عبده من أقرب تلاميذه إليه، وأقدرهم علي فهمه. فلما صدر قرار إبعاد جمال الدين الأفغانى عن مصر للمرة الأولى. قال يوم وداعه لبعض خاصته: «لقد تركت لكم محمد عبده وكفى به لمصر عالماً».

وبدأ الشيخ محمد عبده يكتب فى صحيفة لأهرام، معبراً عن أفكاره، متأثراً بأفكار أستاذه جمال الدين الأفغانى، وكان مما كتبه عام ١٨٧٧ مقال بعنوان «العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية». جاء فيه: «فعلينا أن ننظر إلى أحوال جيراننا من الملل «الشعوب» والدول، وما الذى نقلهم من حالهم الأول، وأدى بهم إلى أن صاوا أغنياء أقوياء، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم، إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل فإذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع إليه، حتى نتدارك ما فات وها نحن بعد النظر، لا تجد سببا لترقيهم فى الثروة

والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فى ما بينهم، حتى قادتهم إلى رشادهم، فإذن أول واجب علينا هو السعى بكل جد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا».

ومضى الشيخ فى كتاباته إلى جانب عمله فى التدريس إلى أن تولى الخديوى توفيق عرش مصر، فشعر بخطر أفكار الأفغانى وتلميذه محمد عبده، على عهده وحكمه، فعزل محمد عبده من التدريس في دار العلوم عام ١٨٧٩ وحدد إقامته فى قريته، وبعد عام من تحديد إقامته صدر عنه العفو.

الصحافى الثائر

أراد رياض باشا إصلاح جريدة الوقائع المصرية وتطويرها، وكانت لسان الحكومة الرسمى، فعين الشيخ محمد عبده محرراً فيها، ثم جعله رئيساً لتحريرها، وسار الشيخ فى تحرير الصحيفة سيرة إصلاحية حقيقية، فانضم إليها الزعيم سعد زغلول وغيره من كبار المصلحين، المثقفين المستنيرين الذين يحلمون بوطن متطور، يتمسك بأصول الدين من دون قشوره داعين إلى التقدم العلمى، من دون تقليد الظواهر المادية الغريبة البراقة.

ثم قامت الثورة المصرية بقيادة الضابط أحمد عرابى، فسارع الشيخ محمد عبده بتأييدها ومناصرتها بعزيمة وإخلاص، تحقيقا لحرية الشعب المصرى واستقلاله فى الداخل الخارج.

وبعد أن تدخل الإنجليز وتم القضاء على ثورة الجيش بقيادة أحمد عرابى؛ وُجهِّت إلى الشيخ محمد عبده تهمة التآمر مع الثوار، فحكِم عليه بالسجن ثلاثة أشهر، ثم بالنفى ثلاث سنوات لأنه أفتى بعزل الخديوى توفيق، فاختار الإقامة فى سوريا، رحل إليها عام ١٨٨٣ فرحب به أهلها، واعجبوا بعلمه وفضله، فأقام هناك فترة فاغتنموا إقامته بينهم وعهدوا إليه بالتدريس فى بعض مدارسهم.

فى المنافى

ومن سوريا إلى باريس، مستهل العام ١٨٨٤، ليلتقى أستاذه وصديقه جمال

الدينى الأفغانى، وكانا قد تواعدا على اللقاء هناك، لينشئا معاً جريدة «العروة الوثقى» فكانت بذلك أو لجريدة تصدر بالعربية فى أوربا، وكان مكتبها فى باريس ندوة لجميع الشرقيين، من المقيمين والزائرين ولكنها لم تعمر طويلاً، حيث طوردت من الاستعمار البريطانى والسلطات الحاكمة فى البلاد الإسلامية المحتلة، وإن كانت قد تركت صداها لدى المسلمين كافة، لما حملته من أفكار متحررة تناقض ما هو مستقر في أذهان البعض.

وسافر محمد عبده عام ١٨٨٥ إلى بيروت، وعُهِدَ إليه بالتدريس في المدرسة السلطانية فألقى فيها دروسه المشهورة «فى علم الكلام»، وهى الدروس التى كانت ركيزته الأساسية لرسالة كتبها بعنوان «رسالة التوحيد» عن صفات وأفعال الله سبحانه وتعالى. ويبدو أن نشاط الشيخ فى بيروت لم يكن على هوى الخلافة العثمانية فسعى السلطان عبد الحميد لدى الحكومة البريطانية إلى إصدار العفو عن الشيخ محمد عبده، ليعود إلى وطنه مصر، وعاد محمد عبده إلى مصر عام ١٨٨٨ ،حيث عيِّن قاضياً فى المحاكم الشرعية، وعمل فى محاكم بنها والمنصورة، والقاهرة، وعيِّن عام ١٨٩٥ نائبا لرئيس محكمة الأستئناف فى القاهرة. وقد عُرف أثناء عمله فى القضاء باستقلال الفكر، وكان يتوخى فى أحكامه إيقاظ الورعى وإصلاح ذات البين وديا بين المتقاضين قبل أن يصدر أحكامه.

المفتى

عيِّن الإمام محمد عبده، سنة ١٨٩٩ مفتياً للديار المصرية، وامتازت فتاواه بالبعد عن التقليد، وكان يضع أمام ناظريه دائماً، الملاءمة بين روح الإسلام، ومطالب العصر، وكان من أشهر الفتاوى التى أثارت عليه سخط الشيوخ المتزمتين، وجلبت عليه ضروباً من القدح والتشهير: إباحته للمسلمين أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة القصوى.

وأفتى بالسماح للمسلمين بأن يتزيوا يزى غير زيهم التقليدى. تيسيراً لهم فى أمور معاشهم

كما أصدر فتواه التى أعتُبرت تجديداً مهما فى الفقه، وهى الفتوى الخاصة بصحة «نظام التوفير فى البريد بالأرباح»، وصحة نظام التأمين، وهو ما ساعد على تأسيس النهضة الأولى للأقتصاد المصرى، عن طريق الأدخار الاجتماعى، واستثمار المدخرات لمصلحة المجتمع. وبضرورة تعلم لغات الأمم الأخرى طلباً للعلم والحكمة، وتجنبًا للشرور الوافدة أو الثابتة.

وعُيِّن الشيخ محمد عبده، يوم الخامس والعشرين من شهر يونيو (حزيران) سنة ١٨٩٩، عضواً فى مجلس شورى القوانين، فسار على نهجه الخاص فى السمو عن الأغراض الخاصة، واستهداف المصالح القومية الكبرى، كما كان من أوائل مؤسسى «الجميعة الخيرية الإسلامية» التى كانت تهدف إلى التعاون بين الأفراد ومد يد العون للمحتاجين. وتوفير فرص العمل للقادرين عليه. ويرجع إليه الفضل فى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى، وتأسيس جمعية «إحياء الكتب العربية القديمة».

ونشر وزير خارجية فرنسا «جبريل هانوتو» مقالاً فى صحيفة «لوجورنال» الباريسية، سنة ١٩٠٠. بعنوان موقفنا من الإسلام والمسألة الإسلامية، فلما تُرجم المقال ونُشر فى صحيفة، المؤيد، بادر الإمام إلى الرد مفنداً ما زعمه «هانوتو» من فوارق بين المسيحية والإسلام، فى ما يتصل بالخالق سبحانه، وحقيقة القضاء والقدر وحرية الأفعال، ورفض ما زغمه «هانوتو» من قيام التعارض بين الساميين والآريين ولامه فى النهاية، لاستخدام معلوماته التاريخية المغلوطة فى محاولة التأثير فى أفكار الفرنسيين الذى يجهلون حقيقة الإسلام.

وقد اشتهر هذا الرد، كما أشتهر رده على فرح أنطون، الذى نشر مقالا عن الفيلسوف «ابن رشد» ورد فى سياقه تعريض بالإسلام والمسلمين، وقد نشر الإمام رده هذا فى كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» والذى لازال يُطبع حتى اليوم.

وكان الإمام محمد عبده يردد دائماً مقولته الشهيرة: «إنما بقاء الباطل فى غفلة

الحق عنه» وكانت هذه المقولة شعاراً لحياته، التى أفناها فى خدمة وطنه ودينه فتعرض لحملات ظالمة رموه فيها بمخالفة العرف، والخروج على طاعة السلطان.

بهذه الروح الثائرة وضع لجريدة «الوقائع المصرية» التى رأس تحريرها ميثاق شرف يقضى بإلزام الصحف جميعاً بالوقوف عند حدود الوقار فى ما تكتب، مع إطلاق الحرية لها، فى تبيين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب من دون خوف.

عطف الذئب على الحمل

وحمل فى مقالاته على الرشوة والمحسوبية، والإسراف والتفاخر بالمظاهر، وشدد على ترك البدع الضالة لمنافاتها الشرع والعقل، ونادى بوجوب إبطالها وتطهير الإسلام منها. ولم ينس الاستعمار واذنابه، فكتب بقول: «لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة، إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة وقهرتها بقوة السلاح، وإنما العار الذى لا يمحوه الدهر، هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها، أو طائفة منهم إلى تمكين أيدى العدو من نواصيهم، إما غفلة عن شؤونهم، أو رغبة فى نفع وقتى».

وزار بريطانيا عام ١٨٨٤، وقال لمندوب جريدة بريطانية قابلة: «إننا نرى أن انتصاركم للحرية إنما هو انتصار لما فيه مصلحتكم، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل، لقد قضيتم على عناصر الخير فينا، لكى يكون لكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا».

وكان الإمام يرى أن الخطوة الأولى فى كل مسعى فلسفى هى تنبيه الوجدان، وايقاظ الضمير وإثارة روح النقد تمهيداً للفهم. ولذلك وجدناه فى جميع أقواله ومؤالفاته دائباً على مهاجمهة «التقليد» أى تقبُّل أراء الغير من دون المطالبة بالدليل، ومن أجل هذا كان يشيد دائما بمبدأ، الاجتهاد الذى يحافظ على أصول العقيدة، مع الأخذ بظروف الزمان والمكان وهما متغيران.

وكان يقول: «إن الإنسان يكون حراً عندما يكون خالصا من رق الأغيار،

عبداً للحق وحده، وفى الحق علينا أن نهتدى فى حاضرنا بتجارب السلف، ولكن ليس من واجبنا أن نقبل جميع ما يؤثر عنهم. بل يتبغى أن نستعمل الفكر فى موروثاتنا. فإن وجدناها صحيحة. قبلناها، وزكيناها. وإلا رفضناها غير آسفين».

ويقول منتقداً القائلين بنظرية الجبريين الذى يحيلون كل شئ فى حياتهم إلى القضاء والقدر المحتوم: «إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه، فإن مثل هذا لمن سخف الرأى، ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين. ثم يقول: «إن جزءاً من أعمالنا منسوب إلى الإرادة. وذلك ما يسمى «الكسب» وهو مناط الثواب والعقاب».

وكان يرى أن «المشرك هو من يُعَظِمُ سوى الله مستعيناً به فى ما لا يقدر الإنسان عليه، مثل الاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله».

على أن التوكل الصحيح لا يعنى شيئاً أخر فى رأيه سوى: «الثقة بالله، مع استعمال الأسباب الطبيعية، من أجل غايات ترسمها عقولنا».

تفسيره القرآن الكريم

ووضع تفسيره القرآن الكريم، من خلال دروسه فى علم التفسير في الأزهر

تلاميذ الإمام

من أهم اثار الإمام «محمد عبده» أولئك الأعلام الذين تأثروا بعلمه وساروا على هدى نصائحه وإرشاداته، حيث كانت جلساته لنشر العلوم وتفسير كلام الله عز وجل تُكسبُ كل من استمع له حكمة وعلماً.

وكان يحضر مجالسه، سعد زغلول وقاسم أمين، وحسن عاصم، وعلى فخرى، ولطيف سليم، وحسين رشدى، وعدلى يكن، وعبد الخالق ثروت، وأحمد حشمت، وفتحى زغلول، ومحمد فريد، وعبد الكريم سليمان، ومحمد ماهر باشا وغيرهم من الشخصيات المعروفة.

الشريف، والذى أكمله من بعده تلميذه السورى الشيخ محمد رشيد رضا، وأصدره فى ما عُرِفَ بتفسير «المنار» واعتمد فيه «على إعمال العقل فى النص». والاعتماد على التأويل والقياس. لتقريب المعنى من أصول الفكر العقلى. وحدد الإمام محمد عبده طبيعة الإسلام الصحيح، الذى يجب أن يتمسك به المسلمون بقوله: «ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وضبطه، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثا على البحث فى أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل».

وكان يرى أن إصلاح المسملين عن طريق الفهم الواعى لدينهم، أسهل وأجدى من إصلاحهم عن طريق الأخذ بأساليب المدنية الأوربية فى رؤيتها الاجتماعية التى لا تتوافق معنا، مع إعلاء شأن العقل والعلم فى حياة المسلم، والاستفادة بما وصلت إليه الثقافة والحضارة والعلم من ابتكار وتجديد واصلاح.

وفاة الإمام

شرع الإمام سنة ١٩٠٥ فى نشر الدعوة لإنشاء جامعة مصرية، تقوم إلى جانب الجامعة الأزهرية، لكنه لم يعش حتى يحقق ما دعا إليه، حيث وافاه الأجل فى الإسكندرية فى ١١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥، وهو فى أوج نشاطه وعطائه. وكانت وفاته حداداً عامًا فى البلاد العربية والإسلامية جميعاً. وتوفى الإمام ولم يعقب ذرية يبقى بها اسمه، ولكنه خلف آثار فكرية يخلد بها ذكره.

مؤلفات الإمام

المؤلفات التى تركها الإمام محمد عبده قليلة قلة سنوات تدريسه، لكنها جليلة الأثر وهى:

- تفسير القرآن الكريم.

- مجموعة فتاوى حوالى ألف فتوى.

-رسالة الواردات

- ترجمة الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغانى.

- شرح مقامات بديع الزمان الهمزانى.

- شرح نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

- شرح البصائر النصيرية لابن رسلان.

- رسالة التوحيد

- الرد على هانوتو.

- الرد على فرح أنطون.

- رحلة صقلية.

- نظام التربية والتعليم فى مصر

- رسائل وكتابات مختلفة.

تضامن مع تولستوى

كما كتب رسالة تحية للكاتب الروسى «تولستوى» بعد أن حكمت عليه الكنيسة التابع لها بالحرمان، يقول فى نهايتها: «وإن أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والإرشاد، هذا هو الذى سماه الغافلون الحرمان والإبعاد. فليس ما حصل لك من رؤساء الدين، سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس بأنك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك فى أقوالهم، كما كنت فارقتهم فى عقائدهم وأعمالهم».



طلعت حرب

حامل راية استقلال الاقتصاد المصرى

- «من غير حرب أغنى الشرق عن الغرب».
- مفكر ورجل اجتماع وواضع اقتصاديات الثقافة.
- عداؤه للسيطرة الأجنبية جعله يُدخل اسم «مصر» فى كل مشروعاته.
- أطلق فكرة «الإيجار التمليكى» للأراضى الزراعية فصارت للفلاحين.
- بنك مصر مطلب وطنى وصراع إرادات ضد الاحتلال.
- نطلب أن تكون مصر للمصريين، فلماذا لا نعمل للوصول إليها؟
- قال للمسئوول الإنجليزى: هل دفاعنا عن بلدنا جنون؟



يتخيل كثيرون، عندما يسمعون أو يقرأون عن رجل بنوك قديم، صورة شخص يجلس إلى طاولة فى ركن من الشارع، يمارس أعمال الصرافة، أو يقرض الناس المال بالربا، ويطاردهم آخر النهار طالبًا فلوسه وما عليها من فائدة.

لكن أولئك الكثيرين لا يعرفون أن رجلاً مثل طلعت حرب، ولد فى القرن التاسع عشر، لكنه كان يفكر بعقلية القرون التالية، ويعمل وفق معطيات الغد، فى سبيل استقلال اقتصاد بلاده مصر، وكان رجل اقتصاد من الطراز الأول، ورجل فكر وثقافة أيضًا، ولم يكن ذلك «الصراف»، الذى يحب البعض أن يتخيلوا صورته.

مثّل طلعت حرب نموذجًا، لما يمكن أن يقوم به رجل الاقتصاد الوطنى، فى النهوض ببلاده ودفع عجلة التنمية فيها فى كافة المجالات، وكان أيضًا رمزًا من رموز النضال الوطنى ضد السيطرة الأجنبية، وإليه يعود الفضل فى ظهور أجيال من رجال الاقتصاد المصريين والعرب، الذين يؤمنون بحتمية التحرر الاقتصادى، كمنطلق أساسى لتحقيق الاستقلال السياسى والعدالة الاجتماعية.

وكان طلعت حرب فى طليعة المثقفين المصريين والعرب، وله مؤلفات مهمة فى الفكر والسياسة والاقتصاد، ومساجلات مشهورة مع قاسم أمين، الذى دعا إلى تحرير المرأة، فقد كان طلعت حرب مع هذه الحرية، ولكن فى إطار القيم الدينية وليس بعيدًا عنها.

وكان زعيمًا وطنيًا، ومصلحًا اجتماعيًا، وصاحب رؤية اقتصادية متميزة.

وهكذا استطاع بعقليته الفذة، أن يقيم دعائم الاقتصاد المصرى فى القرن العشرين على أسس متينة، متكاملة، استطاعت الصمود فى وجه الزمن

والأزمات، وتجاوزت كل العقبات، والمتغيرات السياسية الداخلية، والخارجية التى واجهته، واعتبره كثيرون هرم مصر الرابع.

وُلِدَ محمد طلعت حرب فى ٢٥ نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٨٦٧ فى قصر الشوق، فى حى الجمالية فى القاهرة، بالقرب من ضريح الإمام الحسين بن على عليه السلام، وكان أبوه حسن بك محمد حرب، موظفا فى مصلحة السكة الحديد، وترجع أصوله الريفية إلى قرية «ميت أبو على» من قرى محافظة الشرقية، وتنتمى والدته إلى عائلة صقر فى مدينة منيا القمح، التابعة أيضًا، لمحافظة الشرقية، وكان جده لأمه أحمد «بك» صقر، الذى تعلم فى المدارس المصرية، وتدرج فى وظائف الحكومة، حتى صار من كبار موظفى السكة الحديد أيام الخديوى إسماعيل، ونال رتبة «البكوية».

زميل العظماء

وترجع أصول أسرة طلعت حرب، كما قال عن نفسه، إلى قبائل «حرب» العربية، التى هاجرت إلى مصر، واستقرت فيها بعد الفتح الإسلامى، وهى بطن من بطون بنى هلال بن عامر بن صعصعة، الذين كانت منازلهم فى الحجاز، على ما ذكره القلقشندى فى كتابه «نهاية الأرب».

ألحقت الأسرة ابنها محمد طلعت حرب، بالكُتَّاب، ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريم، والتحق بعد ذلك بالمدرسة الخديوية، ليتم تعليمه الثانوى فيها، ومنها إلى مدرسة الحقوق الخديوية التى كانت تعج وقتها، عام ١٨٨٤، بالتيارات الوطنية، وكان من بين أقرانه فيها مصطفى كامل ومحمد فريد وقاسم أمين، والشاعر أحمد شوقى، وغيرهم، وحصل طلعت حرب فى شهر مايو (أيار) سنة ١٨٨٦، على شهادة الحقوق بمرتبة الشرف، ثم نال مرتبة الشرف فى امتحانات الترجمة فى فبراير ١٨٨٧.

وعُيِّن فى العام ذاته مُترجمًا فى القسم القضائى فى الإدارة السنية، وبعد عام واحد، أصبح مديرًا لإدارة المحاسبات، ثم مديرًا لمكتب تسوية المنازعات (قلم القضايا)، خلفًا للزعيم الوطنى محمد فريد.

وترك عام ١٩٠٥ «الدائرة السنية»، بعد قرار تصفيتها، وكان قد اكتسب، من خلال عمله فيها شهرة خاصة فى الإدارة الاقتصادية الناجحة للمشروعات، والأراضى الزراعية، وتنظيم الحسابات، كما كان لدوره الوطنى البارز، فى تصفية الدائرة السنية، أثر عميق فى نفوس المواطنين، حين سعى إلى بيع معظم الأراضى الزراعية، التى كانت تمتلكها الدائرة إلى الفلاحين الذين كانوا يزرعونها بشروط ميسرة، فقد أقنع بقية أعضاء هيئة التصفية بأن يقبلوا من الفلاحين دفعة ضئيلة من المال، كقسط أول من الثمن، ثم يقبلوا منهم أقساط الاستئجار على أنها أقساط من الثمن، حتى ينتهوا من سداد ثمنها، وهو ما يطلق عليه اليوم «الإيجار التمليكى»، وهكذا قام طلعت حرب بأول مشروع وطنى لتيسير عملية تحويل المزارعين الأجراء إلى ملاك للأراضى التى يزرعونها.

بعد نجاح تجربته فى تصفية «الدائرة السنية» عهد إليه بإدارة شركتى «كوم أمبو» و «العقارات المصرية» وتعمل كلتاهما فى مجال استصلاح وبيع الأراضى. وكانتا مملوكتين للأجانب ويديرهما مدير يهودى. وكانت المرة الأولى التى يعهد فيها لمدير مصرى بهذا المنصب.

مشروعاته المالية الخاصة

أظهر طلعت حرب، من خلال عمله فى هذه الشركات الأجنبية، اهتمامًا واضحًا بالفلاحين، وصغار الملاك، والمزارعين، حينما لاحظ أعباء الديون التى كانت تثقل كاهلهم. فقد كان هؤلاء يلجأون لسداد ما عليهم من أقساط، إلى الاستدانة من المرابين اليهود، حتى ينتهى بهم الأمر إلى ضياع ممتلكاتهم، وأحس بمدى الاستغلال والتحكم اللذين يلقاهما صغار الملاك من البنوك الأجنبية القائمة. وكانت طلائع الأزمة الاقتصادية قد بدأت تظهر بوضوح سنة ١٩٠٦. وكان أول ضحاياها الفلاحين وممتلكاتهم، فآمن بضرورة إقامة بنك وطنى ينشأ بأموال مصرية، ويعمل من أجل حماية أبناء مصر من الاستغلال الأجنبى،

وحققت الفكرة أول نجاح لها سنة ١٩٠٨، حينما استطاع طلعت حرب تأسيس «شركة التضامن المالى»، لتمارس الأعمال المالية بشكل تعاونى.

وظل طلعت حرب يرعى هذه الشركة رعاية خاصة، حتى بعد إنشائه بنك مصر، وإلى أن توفاه الله تعالى، ثم تحولت الشركة بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى «بنك التضامن المالى»، والتى كانت مثالاً متقدمًا، ورائعاً للبنوك التعاونية التى تتعامل مع صغار المقترضين.

الانطلاقة الكبرى

فى عام ١٩١٠ ألف طلعت حرب كتابه «علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك المصريين أو بنك الأمة»، ورأى فى هذا البنك المخرج الاقتصادى لمصر، من تبعيتها للمحتل الغاصب، الذى يستنزف موارد البلاد. وعقد المؤتمر المصرى الأول فى ٢٩ إبريل سنة ١٩١١، لبحث حالة مصر الاقتصادية والاجتماعية، وضم مفكرى مصر، وكبار ساستها، وعلمائها، وأدبائها على اختلاف مشاربهم، واعتلى طلعت حرب منبر المؤتمر، ليقدم خلاصة بحثه عن «الربا الفاحش الذى يعانى منه الفلاحون» وأهاب بكل المصريين أن يستثمروا فائض أموالهم لصالح الاقتصاد القومى، كواجب وطنى مقدس، وكتب فى جريدة «المؤيد»: «نطلب الاستقلال ونطلب أن تكون مصر للمصريين، وهذه هى أمنية كل مصرى، ولكن ما لنا لا نعمل للوصول إليها؟ وهل يمكننا أن نصل إلى ذلك إلا إذا زاحم طبيبنا الطبيب الأوروبى، ومهندسنا المهندس الأوروبى؟ أرضينا أن يكون التعليم قاصراً على تخريج مستخدمين للحكومة، وأن نكون فى بلادنا غرباء؟ علينا أن نكون عاملين فى بلادنا على إحياء فكرة التجارة، وملكة الصناعة فى أبنائنا».

وبدأت الفكرة تأخذ طريقها إلى النور سنة ١٩١٤، غير أن قيام الحرب العالمية الأولى أوقف التنفيذ، لكن الفكرة ظلت مطروحة شعبيًا، حتى قامت ثورة ١٩١٩، فاشتعلت المشاعر الوطنية فى كل مكان، وأصبح إنشاء بنك مصر مطلبًا وطنيًا، أغضب المستشار المالى البريطانى للحكومة المصرية، وفى أحد أيام شهر

أغسطس من عام ١٩١٩م استدعى المستشار الإنجليزى، طلعت حرب، إلى وزارة المالية ليناقشه فى فكرة البنك الذى يزمع إنشاءه، وكان يدعو له فى كل أنحاء مصر، ودار بينهما حوار كشف عن غطرسة المستعمر، واستهانته بعقول المصريين، حين قال لطلعت حرب: «كنت أظنك رجلاً عاقلاً لكنك كما يبدو، أصبت بالجنون المنتشر فى البلد هذه الأيام».

ورد طلعت حرب : «وهل دفاع أصحاب البلد عن أرضهم ومصالحهم جنون».

وذاع أمر ذلك اللقاء، فزاد من حماسة الشعب المصرى لإنشاء بنكه الوطنى، وتم توقيع العقد الابتدائى لإنشاء البنك، فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠، وفى ٣ إبريل من العام نفسه، صدر المرسوم السلطانى بالموافقة على «تأسيس شركة مساهمة مصرية تحت عنوان (بنك مصر) برأسمال ٨٠ ألف جنيه موزعة على عشرة آلاف سهم، قيمة السهم ٤ جنيهات».

وقد اشترط المؤسسون أن تكون الأسهم اسمية لا يملكها إلا مصريون، كما اتفقوا على أن تكون اللغة العربية هى اللغة

المثقف الوطنى

*** لم تشغل الأمور المالية والاقتصادية طلعت حرب عن القراءة والبحث، فألف كتاب «تاريخ دول العرب والإسلام» الذى طبع لأول مرة عام ١٨٩٨ ثم أعيد طبعه عام ١٩٠٥.**

*** عندما أصدر قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» رد عليه طلعت حرب بكتاب «تربية المرأة والحجاب».**

*** وأصدر قاسم أمين كتابه الثانى «المرأة الجديدة» فرد عليه طلعت حرب بكتاب «فصل الخطاب فى المرأة والحجاب»، وكان طلعت حرب يؤيد قاسم أمين فى وجوب تعليم المرأة، ولكنه خالفه فى سفور المرأة وتحررها الزائد.**

*** وألف عام ١٩١٠ كتاب «علاج مصر الاقتصادى» وأصدر فى العام ذاته كتابه «قناة السويس»، الذى عارض فيه بشدة مد امتياز الشركة الأجنبية على القناة فترة أخرى، وكان هذا الكتاب ضمن الوثائق التى قرأها الزعيم جمال عبد الناصر، قبل أن يتخذ سنة ١٩٥٦ قرار تأميم قناة السويس.**

*** لم ينل محمد طلعت حرب،**

الرسمية للبنك، فى كل أعماله وشؤونه.

وبدأ البنك عمله، وكان عدد كل العاملين فيه عشرين موظفًا، وفى ٧ مايو سنة ١٩٢٠، فتح البنك أبوابه للمصريين ليقوم بكافة الأعمال التجارية والمالية والمصرفية، واستمر يكبر، وتنتشر فروعه فى مصر والدول العربية، وحتى فرنسا، وارتفع رأس المال إلى نصف مليون جنيه، ثم إلى مليون جنيه فى ديسمبر سنة ١٩٢٦، ثم بدأ يتضاعف عامًا بعد عام، حتى صار ثانى أكبر البنوك المصرية فى رأس المال وحجم التعامل.

التكريم اللائق به، إلا بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر، حين أصدر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر قرارًا بإطلاق اسمه على أكبر شارع تجارى فى وسط القاهرة، وعلى الميدان الذى يتوسطه مع وضع تمثال له فى هذا الميدان، وكرمه الرئيس الراحل أنور السادات فى ١٥ نوفمبر ١٩٨٠، بمنح اسمه قلادة النيل، وقد تسلم أحفاده القلادة.

غير أن طلعت حرب لم يكن يهدف لمجرد إنشاء بنك تجارى وطنى، ولكن البنك كان وسيلته لإقامة صناعة مصرية خالصة، تستفيد من الخامات، التى تصدرها مصر بثمن بخس، كما تستفيد من الأيدى العاملة الرخيصة والعاطلة، وكل ذلك يصب فى النهاية لمصلحة الوطن ورفاهيته وازدهاره الاقتصادى، وهذا ما ميز بنك مصر عن غيره من البنوك الأخرى التقليدية.

٢٢ شركة باسم مصر

وأسس طلعت حرب خلال ٢٠ عامًا، ٢٢ شركة مالية وصناعية وزراعية، وعندما قال له أحدهم: إن ما أنجزته هو ضرب من الخيال، يصل إلى حد الكمال، كان رد طلعت حرب: «إننى لم أصنع شيئًا من أجل بلدى حتى الآن».

ولم يقبل أن يُطلق اسمه على مشروع من مشروعاته، ولا شركة من شركاته، وكان يشعر بالضيق عندما يسميه أحد «زعيم مصر الاقتصادى»، وكانت رؤيته ثاقبة فى الشركات التى أنشأها، حيث كانت كلها تكمل كل منها الأخرى، وتسد نقصًا يحتاجه المجتمع.

ومن ذلك أنه بدأ فى إنشاء «شركة مطبعة مصر» فى شهر مايو (أيار) ١٩٢٢م، عندما لاحظ أن البنك ينفق مبالغ ضخمة على مطبوعاته، وأنشأ المطبعة، توفيرًا للنفقات، وإسهامًا فى نشر الثقافة الوطنية، وإيجاد فرص عمل للشباب، فعملت على طباعة الكتب والمطبوعات، التى تحتاجها مشروعاته القائمة والمستقبلية، ثم بدأ فى إنشاء الشركات تباعًا.

وحاول طلعت حرب أن يبعد البنك عن السياسة، والصراعات الحزبية الضيقة، حتى لا تتأثر مشروعاته بهذه الصراعات، فقال فى إحدى خطبه: «إن سر نجاح بنك مصر هو ابتعاده عن السياسة، ليس نتيجة عدم اكتراث بمصالح البلاد العليا، ولكنه اتباع للحكمة المأثورة، ولكل عمل رجال، فللسياسة رجال، وللمال رجال، ومن يخلط بين عمل وعمل اختلط عليه الأمر، والتوى عليه القصد، وأفلت منه سر النجاح».

الاختبار

ظل الحاقدون عليه يتربصون به، وعلى رأسهم الاستعمار البريطانى وأعوانه فى مصر، ووجد هؤلاء فرصتهم، عند اشتعال الحرب العالمية الثانية، ففى نهاية سنة ١٩٣٩، زاد الطلب على سحب الودائع من البنوك، ومنها بنك مصر، فانتهز بعض المسؤولين الفرصة، للضغط على طلعت حرب وبنك مصر، عن طريق «صندوق البريد» الحكومى، الذى تعمّد سحب ودائعه من بنك مصر خاصة، على الرغم من أن الصندوق كانت له ودائع لدى البنوك الأخرى، التى يسيطر عليها رأس المال الأجنبى، تفوق ماللديه فى بنك مصر، وعندما أراد طلعت حرب الاقتراض من البنك الأهلى بضمان أوراقه المالية، رفض المحافظ الإنجليزى للبنك إعطاءه القرض المطلوب، كما رفض وزير المالية المصرى إيقاف سحب ودائع صندوق التوفير الحكومى، وتفاقمت الأزمة فبدأت القوى الضاغطة توجه ضرباتها إليه، واشترط خصوم طلعت حرب أن يستقيل من بنك مصر، حتى يقرضوه المال، وفطن طلعت حرب إلى أنه هو المقصود بهذا المخطط وليس

البنك، فقدم استقالته إلى مجلس إدارة البنك وضغط حتى قبلها المجلس فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩، وتدخلت الجهات المسؤولة، وأقرضت البنك ما شاء من أموال.

توارى طلعت حرب فى الظل، وقبع فى قصره فى العباسية يقرأ ويكتب، وتوفى يوم ١٣ أغسطس (آب)، سنة ١٩٤١، عن ٧٤ عامًا، وكانت وفاته فى قرية العنانية، فى مركز فارسكور، بالقرب من مدينة دمياط، حيث كان يزور أحد أصدقائه هناك. ولم يشهد جنازته سوى قلة. وقال الكاتب حافظ محمود عن يوم جنازة طلعت حرب: «طلعت حرب الذى كان عدد العاملين فى مشروعاته والمتعاملين مع فروع بنكه يبلغون الملايين.. طلعت حرب الذى كان يقف الشعراء بين يديه كما كانوا يقفون بين يدى هارون الرشيد، حينما سُلبت منه مناصبه لم يجد يوم وفاته إلا خلاصة الخلصاء يشيعون جنازته».

ويقول الكاتب رجاء النقاش: «إن طلعت حرب كان يدرك أهمية ازدهار الثقافة، لتجديد الاقتصاد المصرى، وتنوير العقول بالأفكار الجديدة، ولذلك أنشأ شركة التمثيل والسينما واستديو مصر، حتى أصبحت صناعة السينما فى وقت من الأوقات هى المصدر الثانى للدخل القومى المصرى بعد القطن، وعلى المستوى نفسه أنشأ مطبعة مصر ومسرح الأزبكية».



قاسم أمين

«شمعة تنوير» المرأة

● طالب الحكومات بسن تشريعات تكفل حقوق النساء ومشاركتهن الفعلية فى أمور الوطن وفى مقدمتها السياسية.

● لم يناد بسفور المرأة، وكان مؤمنًا بالتزامها بالحجاب.

● جاهد لإنشاء الجامعة المصرية ومات قبل أيام من افتتاحها.

كانت المرأة العربية غارقة، شأن الرجل أيضًا، فى ظلام التخلف، فى القرن التاسع عشر، عندما أطل قاسم أمين بكتابه «تحرير المرأة». واعتبر كثيرون كتابه بمثابة الصدمة، متناسين أنه إنما دعا فى جانب كبير منه إلى العودة إلى جذور الفكر الإسلامى، والتى تنص على أن المرأة إنسانة تستحق أن تعيش بكرامتها، وأن تعمل وتشارك فى الحياة العامة، وأن يكون لها رأيها المسموع.

ولد قاسم أمين فى أول ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٨٦٣م من أب جاء إلى مصر من تركيا وأم مصرية صعيدية، ووالده هو محمد بك أمين، الذى كان يعيش فى «السليمانية» فى العراق، وانتقل إلى اسطنبول فترة من الزمن، ثم عين واليًا على إقليم «كردستان»، الذى كان إحدى الولايات العثمانية، وذلك قبل مجيئه إلى مصر واستقراره فيها.

ثم التحق محمد بك أمين بالجيش المصرى وترقى فيه حتى رتبة «أميرلاى» وشغل منصب قائد سلاح المرابطين. قضى قاسم أمين أولى سنواته التعليمية فى الإسكندرية، فى مدرسة رأس التين الابتدائية، التى كانت مدرسة أبناء الطبقات الأرستقراطية والأثرياء. وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية انتقلت الأسرة إلى القاهرة والتحق «قاسم» بالقسم الفرنسى فى المدرسة الخديوية الثانوية، ثم التحق بمدرسة الحقوق والإدارة العليا، وحصل على شهادة الليسانس، قبل أن يصل إلى سن العشرين وكان أول الناجحين عام ١٨٨١م، ثم اتجه قاسم أمين إلى العمل فى المحاماة، فى مكتب صديق والده المحامى الكبير مصطفى فهمى باشا الذى تولى لاحقا، رئاسة الوزراء. وكان قاسم أمين فى ذلك الوقت، شأن الشباب المثقف، فتى وطنيًا متحمسًا، فكان يحضر دروس جمال الدين الأفغانى، وتعرف على محمد عبده وسعد زغلول وعبد الله النديم وأديب إسحاق وغيرهم، وعاصر

مقدمات الثورة العرابية وتداعياتها وتحمس قاسم لكل الأفكار، التى نادى بها أعلام عصره، وتأثر كثيراً بأفكار أستاذه «الأفغانى» وهو يتحدث عن الوطنية والجامعة الإسلامية وتنقية الدين من المفتريات عليه.

ولم يستمر قاسم طويلاً فى العمل فى مكتب المحاماة، وسافر سنة ١٨٨٢م فى بعثة دراسية إلى فرنسا ، وانتظم فى دراسة القانون فى جامعة «مونبلييه». وهناك لمس الحريات التى سادت المجتمع الفرنسى، سواء فى الحرية الاجتماعية ومشاركة المرأة الرجل فى كثير من الأعمال، أم حرية الصحافة والنشر، أم فى الحياة السياسية. وكانت «فرنسا» آنذاك مثلاً أعلى لكل شرقى يسمع عن تقدمها الفكرى وحياتها الراقية وقوتها المادية. وكانت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر، قد ألقت البذور الأولى لهذه الأفكار والتطور الذى تبعها فى المجتمع الفرنسى.

الجهاد فى الخارج

تعرف «قاسم» أثناء دراسته إلى جوانب الحياة المختلفة فى فرنسا. وكانت أفكار الحرية والعدالة والمساواة والتقدم تعيش داخل أوروبا كلها بينما تتابع الأنباء عن احتلال الإنجليز مصر (عام ١٨٨٢). والتقى قاسم أمين فى باريس عام ١٨٨٤م جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، الذى حكم عليه بالنفى من البلاد، متهمًا بالتعاون مع الثورة العرابية، واطلع «قاسم» على نماذج من صحيفة «العروة الوثقى» التى أصدرها «الإمام الأفغانى»، للدعوة إلى التحرر السياسى والإصلاح الاجتماعى، والتقت آراؤهم على ضرورة الاستمرار فى الجهاد ضد المحتل. وشكل الإمام الأفغانى جمعية العروة الوثقى السياسية، وانضم إليهما قاسم أمين واتخذه محمد عبده مترجمًا له. وتأثر «قاسم» تأثرًا بالغا عندما أخد يكتب بروح متدفقة، معبراً عما تعلمه وحصده من علوم وأفكار. ولكن لم تطل مدة صدور «جريدة العروة الوثقى» هناك، فقد استطاع الاستعمار البريطانى أن يحاربها فى باريس، وصدر آخر أعدادها فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤م.

وأنهى قاسم أمين دراسته القانونية بتفوق عام ١٨٨٥م وكان من أبرز المتفوقين، وحصل على ميدالية ذهبية من جامعة «مونبلييه». ثم عاد إلى مصر، وصدر فى ديسمبر عام ١٨٨٥م قرار بتعيينه فى النيابة ثم نُقِلَ بعد عامين إلى قسم قضايا الحكومة. وفى يونيو عام ١٨٨٩م، رُقِىّ إلى منصب رئيس نيابة فى بنى سويف. وانتقل عام ١٨٩١م، رئيسًا لنيابة طنطا.

وعُيِّنَ سنة ١٨٩٢م قاضيًا فى محكمة الاستئناف، ثم رُقِىَّ بقرار مشترك ضم معه «سعد زغلول»، مستشارًا فى محكمة الاستئناف فى القاهرة عام ١٨٩٤م. وتزوج قاسم أمين فى العام ذاته، بـ «زينب» كريمة أمين توفيق، أمير البحر التركى، التى أنجبت له ابنتين: الكبرى «سيدة» والصغرى «جلسن». واتسمت حياته العائلية بالهدوء والاستقرار.

وطنيته

لم تكن الوطنية عند قاسم أمين لفظًا وشعارًا، يكتفى بترديدهما فى فخر وإعجاب، بل كانت تتخذ عنده شكلا إيجابيًا متى تكون قوة عاملة لخدمة الوطن. وكان يحب وطنه ويؤمن به. وكانت وطنيته هى الدافع للدعوة والإصلاح والتحرر، فهو الطريق الصحيح إلى النهضة والتقدم، وساعدته شخصيته، بما فيها من جرأة وحب على التعمق فى جذور المشكلة، كذلك تجربته المكتسبة من حياته فى أوروبا، ومن توليه منصبه فى القضاء، حتى كان من الأعلام فى محيط القانون والقضاء. ففى عام ١٨٩٤م نشر كتابًا بالفرنسية تحت عنوان «المصريون» ردًا على كتاب وضعه الدوق «داركور» وتهجم فيه على المصريين وعاداتهم وتقاليدهم وعلى المرأة المصرية. وتحدث قاسم أمين فى كتابه عن مميزات الفلاح المصرى وصبره وتفوقه العسكرى، كما تحدث عن المجتمع المصرى والمرأة المصرية، وتعدد الزوجات والإسلام والتعليم والعلوم والآداب. وفى مقالاته التى نشرها فى جريدة «المؤيد» بين عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٨م، والتى جمعها فى كتابه «أسباب ونتائج»، تحدث عن الحالة الاقتصادية فى مصر وواجب

العمل، والإقدام على التجارة والصناعة وغيرها. وهاجم فى مقالاته تلك، المصريين الذين تنكروا لوطنيتهم مع أنهم يرتعون فى خيرات الوطن. وتحدث عن وجوب انتقاد «عيوبنا بأنفسنا وعدم إخفاء شىء منها، حتى لا نغفل عن تلافيها».

وكانت حياته مليئة بالصور العملية لوطنيته. فعندما تولى منصب رئيس نيابة بنى سويف، كان أول عمل قام به هو إطلاق سراح الوطنيين، الذين سجنتهم الإدارة عدوانًا وظلمًا. ومن مظاهر وطنية «قاسم» أيضا أنه كان يستعد للسفر إلى الصعيد للتحقيق فى إحدى القضايا، عندما طلب منه أن يتخذ له حارسًا إنجليزيًا فى رحلته، فرفض قاسم، وقال «كلبى آمن من أى إنجليزى». وعاد إلى القاهرة بعد ذلك ليجد تظاهرات الطلبة فى كل مكان، ولجأ إليه أحد الطلبة ممن اتهموا بالتحريض على الاضطرابات وقدموا للمحكمة، وحكم عليه بالسجن، فى دائرة غير دائرة قاسم، فلجأ إليه لما عرف عنه من وطنية. وأخفاه قاسم فى بيته أكثر من عام، حتى استطاع أن يستصدر عفواً شاملاً عنه.

وكان عام ١٨٩١م رئيسًا لنيابة طنطا، عندما واجهته حادثة وقف إزاءها يبحث عن خيار بين ما يفرضه عليه القانون وما تدعوه إليه الوطنية والوفاء للوطن. فقد سلَّم عبد الله النديم نفسه للشرطة بعد اختفاء «أسطورى» دام تسع سنوات، وكان من أبرز زعماء الثورة العرابية وأصلب قادتها. وجىء به إلى رئيس النيابة آنذاك قاسم أمين، فأكرم لقاءه وأعطاه مالاً من عنده، وهيأ له فى السجن أقصى ما يمكن من الرعاية والراحة، ثم قرر أن يسعى لدى المسؤولين فى القاهرة ليفرجوا عنه. وبعد حملة صحافية قادها بنفسه أعلن عام ١٨٩١م العفو عن عبد الله النديم بقرار من مجلس الوزراء والاكتفاء بإبعاده إلى الشام.

التطور والالتزام

ولما كانت الأم هى المربية الأولى للأسرة، فإن قاسم أمين كان يرى أن المرأة المصرية لم تُهيأ بعد، للقيام بهذه الوظيفة المهمة. فهى لم تتم تربيتها على أسس سليمة، تعدها للقيام بهذا الدور، وقارن بين المرأة المصرية والمرأة الأوروبية، تلك

المقارنة، التى كانت موضوع كتابه «تحرير المرأة» عام ١٨٩٩م، ثم أتبعه بكتاب آخر هو «المرأة الجديدة» عام ١٩٠٠م.

الكتاب الأول شرح فيه أن حالة المرأة فى البيئة الاجتماعية تابعة لحالة الآداب فى الأمة. ثم تحدث عن تربية المرأة وعن السفور والحجاب، من الوجهتين الدينية والاجتماعية وعن العائلة والزواج والطلاق، راجعًا فى ذلك إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مطالبًا بإنصاف المرأة وتثقيفها وتحريرها من الجهل، ومن جهل الرجل بحقوقها المشروعة.

وعرّف فى كتابه الثانى المرأة الجديدة بأنها «ثمرة من ثمرات التمدن الحديث، بدأ ظهورها فى الغرب، على أثر الاكتشافات العلمية، التى خلّصت العقل الإنسانى من سلطة الأوهام والظنون والخرافات، ومع اختفاء الأنثى، التى كانت منغمسة فى اللهو والزينة، ظهرت مكانها امرأة جديدة هى المرأة شريكة الرجل فى تكوين ملامح الحياة الاجتماعية الجديدة». ودعا إلى خروج المرأة للأعمال التى تلائمها، كالتعليم والطب. وطالب بالاعتراف لها بحق الاشتغال بالأعمال التى تراها لازمة للقيام بمعاشها، وأن هذا الحق يستدعى الاعتراف لها بأن توجه تربيتها إلى الطرق التى تؤهلها للانتفاع بجميع قواها وملكاتها ومفرداتها الجديدة.

دعوة التحرير

لم يكن قاسم أمين أول من تناول موضوع الدعوة، لتعليم المرأة وخروجها للمشاركة فى وظائف المجتمع إلى جانب الرجل. فقد سبقته نخبة من الأعلام والمصلحين، الذين تناولوا هذا الموضوع، ومنهم رفاعة الطهطاوى وأحمد فارس الشدياق،وكذلك عبد الله النديم، فى مقالاته التى كان ينشرها على صفحات جريدته «الأستاذ» وسبقه على مبارك والشيخ محمد عبده، الذى كان يرى فى دعوته إلى الإصلاح أن من محاسن الإسلام مساواة المرأة بالرجل فى الأمور الجوهرية.

وحينما نظر قاسم أمين إلى أسباب جوانب الضعف فى المجتمع المصرى،

وجد من هذه الأسباب جهل المرأة وغيابها عن المشاركة الإيجابية فى المجتمع، مما يضعف التربية القومية، وأنه من المستحيل أن تتحقق نهضة شاملة مالم تكن الأمهات قادرات على تهيئة جيل جديد للنجاح. فالمرأة الشرقية تستطيع، إذا تخلصت من تخلفها، أن تخدم بلادها فى كل المجالات، شأنها فى ذلك شأن المرأة الأوروبية، التى أصبح له دور رئيسى فى تحقيق النهضة لبلادها. وقام قاسم أمين بدعوته الإصلاحية هذه فى كتابه «تحرير المرأة».

وتتلخص نظرة قاسم أمين الإصلاحية، فى الدعوة إلى تربية النساء باعتبارهن القاعدة الأهم للإصلاح الاجتماعى، لما تملكه الأم من قدرات فى تخريج الأجيال الصالحة. ولاحظ ارتفاع نسبة الوفيات فى الأطفال، بسبب جهل الأم المصرية، بالثقافة الصحية، فى ذلك الوقت، وقال إن جهلها يحول بينها وبين فهم زوجها فهمًا صحيحًا، مما قد يؤدى إلى فشل الحياة الزوجية.

أما دورها بالنسبة إلى المجتمع فيكون بتمكينها من المشاركة فى الأعمال الخيرية وخدمة مجتمعها. والمرأة إلى جانب ذلك كله إنسان فهى لا تختلف عن الرجل فى الإحساس والفكر والحاجة إلى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته.

الإلتزام بالحجاب الشرعى

وعلى خلاف ما تردد من معارضيه لم يطلب قاسم أمين من المرأة السفور وأن تخلع الحجاب تمامًا لكنه طلب الالتزام بالحجاب الشرعى، الذى تأمر به الشريعة الإسلامية، والذى يتيح للمرأة ممارسة حياتها العادية بصورة ميسرة. وفى ذلك يقول: «إننى لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلاً من أصول الأدب، التى يلزم التمسك بها. غير أنى أطلب أن يكون منطبقًا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية».

وتساءل قاسم أمين: كيف يمكن التعامل مع المرأة فى ميدان التجارة مثلاً أو إبرام العقود دون رؤية وجهها، الذى يثبت شخصيتها. فبغير هذه الرؤية يسهل الغش والتزوير فى المعاملات كما أظهرت الوقائع القضائية. ولم يكن طلبه أن

ترفع المرأة الحجاب السائد آنذاك دفعة واحدة، حتى لا يؤدى ذلك إلى حدوث مفاسد لما يحدث عادة فى كل تغيير مفاجئ، وإنما طالب بإعداد نفوس البنات لهذا التغيير فى زمن الصبا. وأدرك قاسم أمين أن افتقار المرأة إلى الاستقلال الاقتصادى، وبعدها عن ميادين العمل المنتج فى المجتمع يجعلانها تابعة خاضعة للرجل، الذى ييسر لها القوت ويضمن لها ضروريات الحياة فهو يقول: «إن إعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأهيل، لكسب ضروريات الحياة بنفسها، هو السبب الذى أدى إلى ضياع حقوقها».

ولم يناد قاسم أمين بخروج المرأة إلى ميدان العمل، إلا فى حالات الضرورة التى تحتمها الظروف. كأن يتوفى الزوج، أو يكون محتاجًا إلى مساعدتها، أو فى حالة عدم زواجها، أو إذا لم يكن لها من يلتزم بتوفير حاجاتها.

نقد واحتجاج

وأثارت هذه الآراء عاصفة من النقد والاحتجاج، وقام العديد من الكتاب بالرد عليه ولكنه لم يضعف أمامهم، فأصدر كتابه الثانى وأضاف إليه مقالات عن المجتمعات المتحضرة، ولم يقف فى دعوته عند حد مطالبته الحكومة بإقامة التشريع وسن القوانين، التى تكفل حقوق المرأة، بل ذهب إلى أن كل تشريع للمرأة يجب أن يؤدى إلى إشراكها فى وظائف الحكم اشتراكًا فعليًا، وطالب بحقوق المرأة السياسية كما هو الحال فى الدول المتقدمة.

وكان آخر أعمال قاسم أمين توليه رئاسة اللجنة الخاصة بإنشاء الجامعة المصرية خلفًا لسعد زغلول، بعد تعيينه ناظرًا للمعارف. وكان آخر خطاب لقاسم أمين عن الجامعة والتعليم الجامعى، المرجو لمصر والمصريين فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٨م. وقد وافته المنية فجأة بعد ثمانية أيام من ذلك التاريخ ليلة ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨م، حيث كانت مصر تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة المصرية.



جمال حمدان

عاشق مصر ومكتشف شخصيتها

- رفض وسام التكريم وتسلمه أخوه فى جنازته
- أحبطته المؤامرات والوساطات فانصرف إلى أبحاثه
- مصر تنفرد بتعقيد تاريخها وبساطة جغرافيتها وشعبها
- استاذه: كتاباته ستغير جغرافية وتاريخ مصر.. إذا كان هناك من يسمع ومن يقرأ.
- هل اغتالته المخابرات الإسرائيلية.. أم مات بانفجار.. البوتاجاز؟
- الرجل الذى تحمل كثيراً ورحل وحيداً.



تتجسد عبقرية «مصر» أفضل وأكمل تجسيد فى عبقرية العالم الشهيد «جمال حمدان» فقد كانت حياته ومؤلفاته وكل أبحاثه ودراساته، وحتى وفاته المأساوية حدوتة مصرية، كتبتها جغرافية وتاريخ هذا الوطن الذى عشقه «جمال حمدان» وكرس حياته لتخليده فقد أمن بعبقرية مصر، التى قال عنها: أبوها التاريخ وأمها الجغرافيا، ومن كان هذا نسبه فلابد أن يكون عظيمًا وهكذا دائما مصر».

لم يكن «جمال حمدان» عالمًا فى الجغرافيا فحسب، ولكنه كان عبقريا فذا، وعاشقا لمصر كأعظم ما يكون العشق. ولقد اندمجت عبقريته الفذة مع عشقه العظيم لمصر الخالدة، فصاغ رباعيته العظيمة، «شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان» والتى استطاع من خلالها بمهارة فائقة أن يحول علم الجغرافيا، الذى يهتم بالتضاريس والجبال والوديان إلى سيمفونية موسيقية رائعة.

ورغم كل هذا العشق، عانى «حمدان» من أبناء محبوبته أمرَّ المعاناة، تعرض هذا العالم إلى «الضرب تحت الحِزام» وكان هدفا لمؤامرات الانتهازين والوصوليين والمزورين من أدعياء العلم، فآثر أن ينسحب من وسط هذا الزيف حتى لا ينقص حبه وعشقه لمحبوبته مصر، وحتى تظل صورتها كما عاهدها.

هربب بمحبوبته وبحبه إلى محراب العلم، إلى عالمه الخاص، عالم البحث والدراسة، وهناك غاص فى أعماق أعماق محبوبته، التى بادلته حبًا بحب، باحت له بأسرارها، ذاب وتوحد مع ثراها ونيلها، وعرف سر عبقريتها، التى تجمع بين عبقرية الزمان والمكان.

ولم يغب رغم عزلته فى صومعة العلم، عن مشاكل وقضايا أبناء مصر وغيرهم من العرب والمسلمين. فقلبه المحب كان يتسع لآلام المسلمين جميعاً، كان

بعيداً عنهم قريباً من مشاكلهم، يبحثها ويدرسها، حاول أن يرسم لهم خطوط المستقبل، ويصف لهم الطريق إلى العبقرية المفقودة.

أشار لهم إلى عدوهم الأول إسرائيل، ووصف لهم كيفية القضاء على هذا العدو الذى أتاحوا له فرصة الوجود بسبب الغيبوبة التى أدخلوا أنفسهم فى دائرتها. فكان لابد أن يغتاله «الموساد».

ولقد كان الرحيل المفاجيئ والظروف الغامضة التى اكتنفت رحيله، صدمةشعبية، ذلك أن جمال حمدان، كان واحدًا من أعظم رموز الوطنية المصرية.

العَالِمُ الحق

لقد كان حمدان «نبته مصرية أصيلة، ومثال لما يجب أن يكون عليه العالم الحق، الذى يكره الأضواء، وهالات الإعلام الزائفة، التى جعلت من أدعياء العلم نجومًا، وبخست العلماء الحقيقين حقهم.

كان جمال حمدان عبقرية سبقت عصرها وسطَّرت بأحرف من نور اسمها فى تاريخ الخالدين، فهو جهاز استشعار دقيق لنبض معشوقته مصر، عالم تجاوز حدود تخصصه العلمى «الجغرافيا» إلى فلسفة الزمان والمكان، ليجعل كل حبة رمل، وكل شبر على أرض المحروسة ينطق بعبقريته.

وُلِدَ جمال حمدان فى قرية «ناى» بمحافظة القليبوية فى ٤ فبراير «شباط» ١٩٢٨ فى أسرة كلها صلاح وعلم، تنحدر من قبيلة «بنى حمدان» العربية التى نزحت إلي مصر مع غيرها من القبائل العربية أثناء الفتح الاسلامى، ولما وصل إلى سن دخول المدرسة الأبتدائية، أدخله والده «مدرسة شبرا» الإبتدائية للبنين عام ١٩٣٦، وحصل منها على شهادة الابتدائية فى يونيه ١٩٣٩، والتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية فى سبتمبر من نفس العام، وهو تاريخ إعلان الحرب العالمية الثانية، وقد واكب دراسته بهذه المدرسة جميع سنى الحرب، وما أفرزته من آلام ودمار، وفى هذه المدرسة وبالتحديد فى السنة النهائية التقى بإستاذه

«محمود جمال الدين» استاذ الجغرافيا بالمدرسة الذى حبب إليه هذا العلم، وجعله يصمم على متابعة دراسته بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول «القاهرة» بعد حصوله على التوجيهية عام ١٩٤٤ بتفوق، وكان ترتيبه السادس على طلبة القطر المصرى.

وجاءت سنوات دراسته الجامعية حافلة بالجد والاجتهاد، حيث تتلمذ على يد اساتذه أفذاذ كل فى مجاله، وتعلم اللغة الألمانية وأجادها أثناء دراسته الجامعية.

ولما تخرج بامتياز عام ١٩٤٨ كان عمره لا يتجاوز العشرين سنة، فعُيّن معيداً بالكلية فى نفس السنة، وابتعثته الجامعة إلى انجلترا لاستكمال دراسته العاليه، فسافر إلى جامعة «ريدنج» فى مارس «آذار» عام ١٩٤٩، وعاد إلي مصر بعد حصوله على درجتى الماجستير والدكتوراه عام ١٩٥٣، وانضم إلى هيئة التدريس بقسم الجغرافيا وظل يعمل به إلى أن استقال عام ١٩٦٩ وتفرغ للبحث والتأليف حتى وفاته عام ١٩٩٣.

سر عبقريته

عاشق مصر ومكتشف شخصيتها كان مثالا رائعًا للعبقرية المصرية التى شقت طريقها وسط جبال اليأس والاحباطات التى حاصرته من كل جانب، حتى أنه آثر الاعتكاف، وليس الانسحاب أو الاعتزال كما يفعل كثيرون - لكى يرصد ويتعمق ويحلل شخصية مصر الخالده وشعبها العظيم، ومن عبقريته أنه لم يكن يختار السهل أبداً. . ولا يلتفت للقشور بل يعنيه اللب ويرتقى لأعلى وينفذ للجوهر، ويستهويه الإقليم لأنه الاعقد، قابل للفحص بما يرضى رؤيته الشاملة، لا يكتفى بالوصف وانما ينقب عن شفرته وسره.

أجازه من الحياة

كان اعتكاف جمال حمدان وانفصاله عن الحياه من نوع آخر تمثل فى الجنوح إلى الكتابة وعالم الإبداع والإنجاز، ولم يكن اعتكافه سلبياً أو تمرداً أو لامبالاة أو ضياعاً، ولكنه فى قمة الإيجابية والغوص فى مشاكل مجتمعه للعمل على خلاصة وتقدمه، متناسيًا المتاعب التى لا قاها من أعداء النجاح، لأنه فى النهاية

جزء من نسيج مجتمع يفخر به، وعن سر اعتكافه وعزلته يقول: لا أريد التعامل مع المجتمع، ولن أخرج من عزلتى حتى ينصلح حاله، وإن كنت أتصور أن هذا لن يحدث» كلمات تفيض بالألم والمرارة، تحدث بها «حمدان» فى الوقت الذى اتخذ فيه قراره، بالعزلة داخل محراب صومعته بشقته المتواضعة بالدقى.

وقد جاء هذا الاعتكاف بسبب السلبيات التى تعرض لها «حمدان» وهى جزء من مجتمع بأكمله، وكانت بدايتها فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب، حيث بدأ الكل يتربصون به، وكان من سوء حظه أنه التقى غير عامد ولا متعمد بتلك الكثره من الديناصورات التى كانت لها صلة بفلان وعلان ممن كانوا يعتبرون ذلك جواز مرورهم صوب اعتلاء المناصب القيادية بلا مجهود أو علم، ولم يقتصر الحال على تخطيه فى الترقية، بل وصل الأمر إلى حد حرمانه من تدريس مادته المفضلة «جغرافية المدن، وتكليفه بتدريس ماده «الخرائط» لطلبه السنة الأولى، والتى عادة ما يقوم بها المعيدون.

أعداء النجاح

وتتوالى الأحداث ويظل «حمدان» يعانى من أعداء النجاح وفيروسات العبقرية وتحاصره الهموم من كل جانب، وعندما انتدب للعمل فى جامعة القاهرة فرع «الخرطوم»، وجد هناك أن أحد الزملاء ممن سبقوه إل السودان قد سطى على كتبه ومحاضراته وطبعها ووزعها على الطلبة على أنها من بنات أفكاره، فأُصيب بالدهشة واستولى عليه الغضب، واثبت لطلابه أنه صاحب هذه المؤلفات، وعاد من الخرطوم بعد أن أمضى فيها فصلاً دراسيا واحدا أنجز فيه أحسن دراسة كُتبت عن مدينة الخرطوم باللغة الانجليزية. وفى القاهرة وجد نفس الاستاذ ينافسه على الترقيه، بل ويسبقه إليها بتلك الأبحاث التى سرقها منه!

ومن ثم أيقن «حمدان» أنه لن يقوى على الوقوف أمام هؤلاء الأشرار، وأنه لا سبيل إلى محاربتهم إلا بسلاحه الوحيد الذى لا يملك سواه وهو العلم.

أرسل باستقالته إلى الجامعة، ولكن المأساة تظهر فى أبشع صورها عندما تُعلَّق

استقالته لمدة عامين، إمعانًا فى المضايقة وضياع حقومه المشروعة، فكان قرار الأعتكاف والأعتزال عن المجتمع.

روائع العبقرية

ظهرت عبقرية حمدان وهو لم يتعد الثلاثين من عمره، عندما أبدع سبعة مؤلفات قبل مؤلفه العظيم «شخصية مصر» ـ لا يمكن إنكارها من المتخصصين فى مجال علم الجغرافيا وهى: دراسات فى العالم العربى ١٩٥٨، أنماط من البيئات ١٩٥٨، دراسة جغرافية المدن ١٩٥٨، والمدينة العربية ١٩٦٤، بترول العرب ١٩٦٤، الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ١٩٦٤، واليهود انثر بولوجيا ١٩٦٧.

ويواصل حمدان إبداعاته ليقدم للمكتبة العربية ـ بعد شخصية مصر سبعة مؤلفات أخرى ذات قيمة إبداعية وفكرية متميزه وهى:

إستراتيجية الاستعمار والتحرير ١٩٦٨، العالم الاسلامى المعاصر ١٩٧١، بين أوربا وآسيا دراسة في النظائر الجغرافية ١٩٧٢، الجمهورية العربية اللليبية دراسة فى الجغرافيا السياسية ١٩٧٣، ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية ١٩٧٤، قناة السويس ١٩٧٥ وافريقا الحديثة ١٩٧٥.

شخصية مصر

ومن أجمل ما أبدع جمال حمدان رائعته «شخصية مصر» ليضيف ويبدع ويتفاعل مع مستجدات العصر والأحداث، وتأتى هذه الموسوعة فى ٤ أجزاء لتستغرق ٩ أعوام من حياة» «حمدان»، وكل جزء من الموسوعة يقع فى ألف صفحة، ويتحدث عن وجه من وجوه مصر: أولها: البساطة ويخص بها وجه مصر الطبيعى، «بقدر ما يمتاز تاريخ مصر بالتعقيد.. تمتاز جغرافية مصر بالبساطة، بساطة انعكست فى شعبها».

جغرافيتها ربابة من وترين.. الصحراء والنهر، بهما عزفت وعلى ايقاعهما، نمت واحتمت، تصلبت وارتخت، تصاعدت وكسيت، من عصر إلى عصر.

ثانيها: التجانس.. مفتاح قوامها البشرى يفسره من «ساسه لراسه» وعلى حد

قوله: «التجانس نغمة يوقعها اساسًا النهر، وتسرى منه إلى الزراعة والرى والمحاصيل والسكان والسكن والقرى والمدن وتتلاشى معها الفروقات».

ثالثهما: التكامل، مفتاح بنيتها الإقتصادية فى تكوينها المتداخل العضوى وتشكيلها الهرمى التصاعدى، قاعدته الزراعة وقمته الصناعة وبينهما التجاره.

أما مفتاحها الرابع فيتمثل فى معادلة قوة مصر، وبها يتوج «حمدان» نظريته العامة عن شخصية مصر فى الماضى والحاضر والمستقبل.

اساتذه فى حياته

استوعب «جمال حمدان» من سبقوه واعترف لهم بالفضل فتجاوزت عبقريته السابقين واللاحقين.

عندما التحق بمدرسة التوفيقية الثانوية التقى فى السنة الأخيرة باستاذه الجليل «محمود جمال الدين» رحمه الله الذى كان يدرس له علم الجغرافيا فى السنة الأخيرة بالقسم الأدبى، وكان هذا الأستاذ بعلمه وفضله هو الذى حبب إليه الجغرافيا، خصوصاً بعد أن اكتشف نبوغه وولعه بهذا العلم واستعداده الفطرى له. حفزه على أن يلتحق بقسم الجغرافيا في جامعة فؤاد الأول «القاهرة» لأنه كان يعرف طريقه وهدفه.

وفى الجامعة وجد جمال حمدان المجال أوسع لكى ينهل من معشوقته الجغرافيا، وهنا التقى بأساتذته الأفذاذ الذين تركوا بصماتهم القوية على طريقة تفكيره وعلى نظرته إلى الجغرافيا فى مصر، وعلي رأس هؤلاء الأستاذ «مصطفى عامر» وكان جمال يحبه ويكن له كل تقدير، ويعتبره المؤسس الحقيقى والأب الروحى لمدرسة الجغرافيا المصرية الحديثه، وإليه أهدى أول أعماله التى صدرت له باللغة الانجليزية عام ١٩٥٥، وهو كتاب «دراسات فى الريف المصرى» ومن أساتذته أيضا الدكتور «محمد عوض» الذى تأثر به جمال فى بداية حياته الجامعية، وكان لفرط إعجابه به يحفظ مؤلفاته عن ظهر قلب، لاسيما كتاب «نهر النيل».

كما ظل جمال يكن الحب والود لأستاذه، الدكتور «عباس عمار» حتى بعد أن ترك سلك التدريس الجامعى، وأهدى إليه مؤلفه «جغرافية المدن». . وها هو الدكتور «عباس عمار» رحمه الله يقول عن تلميذه «جمال حمدان» إن كتابات «جمال حمدان» ستغير وجه الجغرافيا فى مصر، بل وتاريخها إذا كان هناك من يسمع ومن يقرأ.

أما الدكتور «سليمان حزين» فقد كان بالنسبة له رائد فلسفة الجغرافيا دون منازع وحامل رايتها ومبدعها.

وفاة غامضة

رحل العالم والمفكر «جمال حمدان» يوم ١٧ ابريل (نيسان) ١٩٩٣م، فبينما كان أقباط مصر يستعدون للاحتفال بعيد القيامة فى اليوم التالى، وبينما شعب مصر كله يعد العدة لليوم البهيج، يوم «شم النسيم»، رحل العالم والمفكر جمال حمدان، وكان رحيله مدوياً فاجعًا لكل القراء والمثقفين فى عالمنا العربى، فمبدع شخصية مصر وجغرافية المدن، قذفته الحياة خارجها عبر أنبوبة بوتاجاز، قذفت الأنبوبة عاشق مصر، قلب مصر الذى ينبض بحبها، كما نبض قلب مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهما من أبطال النضال الوطنى، صحيح أنه كان خصمًا للنظام فى أيام سلفت، لكنه كان خصماً شريفاً وايجابياً وفعالاً. إنه الانتماء الحقيقى لمصر العروبة والاسلام، الذى جعله يدرك ماضيها التليد، لكنه كان قلقا على حاضرها ومستقبلها. .

التحقيقات الرسمية أشارت إلى أن سبب الوفاة حريق نتج عن تسرب الغاز من موقد البوتاجاز الخاص بشقته، ولكن هناك العديد من الشواهد التى تؤكد أن الموساد الإسرائيلى كان وراء وفاة جمال حمدان، المعروف بكراهيته لإسرائيل التى اعتبرته من أعدائها، واشار البعض إلى أن جمال حمدان تم اغتياله مثل غيره من العلماء خاصة، وانه كان قد انتهى من موسوعة عن العنصرية الاسرائيلية، بين فيها الطريق للخلاص من هذا العدو الإسرائيلى، وقد اختفت أصول هذه الكتاب بعد الحادث الأليم.

حكاية وسام

عندما منحت الدولة الدكتور جمال حمدان وسام العلوم والفنون عام ١٩٨٨ ولم يحضر احتفال التسليم، طلب «براهيم علي حسن» المستشار القانونى لوزير الثقافة من أخيه «عبد الظيم حمدان» تحديد موعد لمقابلة الدكتور جمال لتسليمه الوسام، وللأسف رفض د. جمال، وطلب إرساله إليه بالبريد، وفى الجنازة فوجئ أخوه بمستشار وزير الثقافة يسلمه مظروفاً، فتحه فوجد فيه الوسام الذى رفض جمال استلامه وهوحى.

موعد الرحيل

قبل الوفاة قال لشقيقه إن كل إنسان له لحظة سيموت فيها، فكل ورقة شجر حدد الله موعد سقوطها، هكذا الإنسان حينما - يحين قدره سيموت، وأنا لا أخشى من الموت، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتذكر أو يتحدث فيها عن الموت والحياة. يقول شقيقه: وتركته وانصرفت دون أن أعلم أن هذا هو اللقاء الأخير.

صائم عن الزواج

يقول أخوه عبد العظيم حمدان حاولت مراراً أن أجعله يفكر فى الزواج حتى لا يعيش وحيدا إلا أنه كان يرفض، وأثناء دراسته فى انجلترا كان قد تعرف إلى زميلة له بنفس القسم، وهى فتاه انجليزية جميلة سمعتُ أنه ارتبط معها بقصة حب، ولا أعرف ما الأسباب التى باعدت بينهما، وعندما فاتحته فى الزواج منها رفض، وظلت هى معجبة به لدرجة أنها صممت علي أن تترجم «شخصية مصر» مع زوجه شقيقى عبد الحميد إلي الفرنسية

مؤلفات صدرت عن جمال حمدان

* «جمال حمدان فى ذمة التاريخ» للدكتور محمد الغنيمى.

* «صاحب شخصية مصر وملامح من عبقرية الزمان» للدكتور عبد الحميد صالح حمدان.

* «جمال حمدان عبقرية ضد الانحناء» إعداد محمد عبد الغنى علام.

* «صفحات من أوراقه الخاصة» للدكتور عبد الحميد حمدان.

الجغرافى الحق

يقول حمدان عن الجغرافى الكامل: «أنت إما جغرافى مؤبد، جغرافى مدى الحياة، من المهد إلى الحد، وإما أنت لا جغرافى على الاطلاق، لاوسط بين الجغرافى المطلق واللاجغرافى على الاطلاق، فالجغرافيا لا تقبل شريكا قط، لا فى العلم ولا فى الحياة، أنت محكوم عليك بالجغرافيا إلى الأبد، والإ خرجت من حوزه الجغرافيا؛ بمعنى أنك لن تكون شيئًا مذكوراً فى الجغرافيا، إن لم تتفرغ لها تماما، العمر كله.

وليس فى الجغرافيا شئ كفترة انقطاع تتركها إلى حرفة أو مهنة أخرى، ثم تعود إليها، كلا إنها نقطة اللاعودة. لا يكون الجغرافى جغرافيا إلا إذا كان فيلسوفا. ولا يكون الجغرافى جغرافيا إلا إذا كان «حمار» شغل.

* وقال عن الجغرافى أيضا: «أن الجغرافى الحق الذى جاء ليبقى وخُلِقَ ليخلُق هو الذى يُولد «حيوانا جغرافيا» يعيش عبدًا جغرافيًا. ويموت قتيلا جغرافياً».

معنى أن تكون مصرياً

اللحظات الأجيرة: ذروة التألق ومنتهى الحكمة وخلاصة الخبرة يسجلها لنا جمال حمادن فى أيامه الأخيرة من خلال كلمات تعبر عن مدى عمق تجربته فى الحياة.

أن تكون مصرياً فهذا يعنى فى الواقع شيئين فى وقت واحد: الأرض والشعب والوطن والقومية، فالمصرية للمصرى هى قاعدة الاساس وقاعده الأرتكاز، وهى قاعدة مركبة لا بسيطة من عنصرين لا عنصر واحد

مصر ببساطة

* ببساطة مصر أقدم وأعرق دولة فى الجغرافيا السياسية للعالم، إنها قدس الأقداس» سياسيًا وجغرافياً فهى ببساطه من خلق الجغرافيا الطبيعية، لا التاريخ ولا السياسة ولا الصدفة ولا القوة، أنها نبت طبيعى بحت.

هستريا العالمية

* نعم سيصبح العالم قرية كبيرة أو صغيرة، لكن حذار من هيستريا العالمية. لعبة أمريكا والغرب ضد الآخرين خصوصًا ضد العرب.

كارثة فلسطين

* كارثة فلسطين اسرائيل وهى ببساطة كالتالى: طلبت الصهيونية العالمية دولة لليهود فى فلسطين فأسسها لهم العرب.

* إذا كان اليهود يقولون لا معنى لاسرائيل بدون القدس فنحن نقول لهم: لا معنى للعرب بدون فلسطين.

المرأة وطلقات الفكر

- «منيرة ثابت» الثائرة الصغيرة
- «درية شفيق» «بنت النيل» الثائرة
- «روز اليوسف» الوردة المشاغبة
- «مىّ زيادة» عواطف كسيرة أوصلتها إلى الجنون
- «صفية زغلول» ابنة الحسب والنسب الثائرة.
- «سميرة موسى» الشهيدة الأولى فى جرائم اغتيال العقول العربية



منيرة ثابت

الثائرة الصغيرة

- أول مصرية تكتب في الصحف.
- أول مصرية تصدر مجلة وجريدة.
- أول صحافية نقابية.
- أول كاتبه سياسية وأول رئيسة تحرير لجريدة سياسية.
- أول مصرية تحاكم بتهمة مهاجمة التدخل الأجنبى فى شئون البلاد.
- طالبت في فبراير ١٩٤٥ بالمساواة السياسية بين الرجل والمراة
- امرآة من طراز فريد، يسجل التاريخ مآثرها بحروف من نور.



طلقات الفكر أقوى وأكثر تأثيراً من طلقات الرصاص وقذائف المدافع، وفى ساحة المعارك الفكرية، كان للمرأة المصرية والعربية صولات وجولات، أطلقت منها رصاصات فكر مستنير، بددت أستار الجهل التى حاولت حرمانها من حقوقها.

منيرة ثابت واحدة من الرائدات الأوليات فى المناداة بحقوق المرأة السياسية، وكانت أول رئيسية تحرير مصرية لجريدتين فى وقت واحد، وأول صحافية مصرية تقف أمام القضاء لأنها تجاسرت وهاجمت المندوب السامى البريطانى.

نعم، لم تكن «منيرة ثابت» أول مصرية تكتب في الصحف، ولم تكن أيضاً أول مصرية تصدر مجلة أو جريدة، ولكنها كانت أول صحافية نقابية، وأول كاتبة سياسية، وأول رئيسة تحرير لجريدة سياسية.

كانت «منيرة ثابت» ثائرة منذ نعومة أظفارها. كانت صريحة واضحة، تصل إلى هدفها مباشرة، لا تعرف المهادنة أو الحلول الوسط. فهي صاحبة أول رسالة من مواطن تلقاها البرلمان المصري الذي أفتتح لأول مرة في ١٥ مارس ١٩٢٤م، وكانت تعيب على الدستور الذي صدر في ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ أنه أغفل إغفالاً تاماً كل الحقوق السياسية للمرأة.

وكان هذا أول صوت يرتفع صراحة يطلب إعطاء المرأة المصرية حق المساواة مع الرجل في ممارسة الواجبات والحقوق الدستورية كناخبة ونائبة، وأخرجت لهذا الغرض كتابها الأول «حقوق المرأة السياسية».

كانت الفتاة صاحبة هذا النداء في سنة ١٩٢٤م صبية حصلت على الشهادة الثانوية، ولم تجد باباً من أبواب التعليم العالى مفتوحاً أمام البنات، فالتحقت

بمدرسة الحقوق الفرنسية، التى كانت تعمل آنذاك في القاهرة، ويحصل الطلبة على شهاداتها من باريس، وحصلت منيرة ثابت من هذه المدرسة على ليسانس الحقوق، فكانت أول فتاة مصرية تحصل على هذه الشهادة، وقُيّدت أيامها فى جدول المحامين أمام المحاكم المختلطة.

معارضة مبكرة

عندما كانت طالبة فى المدرسة الفرنسية، كانت تكتب فى الصحف مهاجمة الحكومة والاستعمار. وأرادت الحكومة أن تخرس صوتها، فأرسل وزير المعارف واستدعى ناظر المدرسة الفرنسية إلى مكتبه، وطلب منه أن يمنع التلميذة «منيرة ثابت» من الكتابة السياسية فى الصحف، وأن هذا هو رأى مجلس الوزراء.

واعترض ناظر المدرسة، وقال: إن مدرسته تسير على غرار مدارس الحقوق في فرنسا التى تمنح تلاميذها حق الكتابة فى الصحف، ومعارضة الحكومة والهجوم عليها أيضاً، وإن المحامى مهمته أن يُدافع عن الشعب أولاً قبل أن يدافع عن الأفراد.

محاكمة..

ونظراً لمقالاتها الجريئة في الصحف، في هذا العمر المبكر، كانت «منيرة ثابت» أول فتاة عربية، تقف أمام النائب العام المصري، وهى تحت السن القانونية للعقاب، ليحقق معها بنفسه في جريمة قذف صحافي. وهكذا بدأت حياتها العملية، واعترفت الدولة رسمياً بصفتها الصحافية وعمرها ١٧ عاماً. وقد جرى التحقيق معها بأمر صادر من دار المندوب السامى البريطانى في مصر إلى رئيس الوزراء المصري الذي حوله إلى وزير الحقانية (العدل) للتنفيذ، وكانت جريمتها هي: مهاجمة التدخل الأجنبى في شؤون البلاد، ومهاجمة دار المندوب السامى البريطانى، والإستعمار وممثليه، وعلى رأسهم البلجيكى مسيو «فيرمان فن دن بوش» النائب العام لدى المحاكم المختلطة، الذى كان يسيطر على «قومسيون» بلدية الإسكندرية.

وشهدت محكمة باب الخلق ومندوبو الصحافة ووكالات الأنباء العالمية أول حدث تاريخى من نوعه، وهو محاكمة فتاة صحافية، ثائرة صغيرة، بأمر الاستعمار البريطانى. فقد طلبت الامبراطورية العظمى تعذيب الفتاة منيرة ثابت وحبسها وقفل جريدتها. وأنقذ الموقف، بعد مداولات طويلة أمام النيابة العامة، الوزير المصرى زكي باشا أبو السعود، وزير الحقانية فى ذلك الوقت، والنائب العام المصري طاهر باشا نور، فأعفياها من المسؤولية الجنائية «جرائم النشر» لصغر سنها، وكان ذلك عام ١٩٢٦م.

وفى صيف ذلك العام قُيد اسمها كصحافية عاملة فى النقابة الأهلية الأولى التى كانت قد تأسست فى الوقت نفسه. ولهذا أطلق عليها لقب «عميدة الصحافيات المصريات». وكانت «منيرة ثابت» قد أصدرت فى أواخر عام ١٩٥٢م جريدتين سياسيتين فى وقت واحد باسمها، إحداهما يومية فرنسية LESPOIRE التى تعنى «الأمل» والأخرى عربية أسبوعية بنفس الأسم.

حقوق المرأة

منذ أحداث سنة ١٩٢٦ المشار إليها، ظلت منيرة ثابت تعمل فى الكتابة والخطابة مُدافعة ومُطالبة بحقوق المرأة السياسية، ومُشاركة فى المؤتمرات والندوات.

تتحدث منيرة ثابت عن جهودها فى مجال المطالبة بحقوق المرأة السياسية، وأثر والدها والزعيم سعد زغلول فى توجيهها مبكراً إلى ذلك فتقول: «كان أبى وسعد زغلول من العوامل القوية التى دفعت بى مبكراً إلى هذا الطريق، فقد تلقيت منهما الإيحاء الفكرى والنفسى، فقد حدثنى والدى كثيراً فى شؤون المرأة فى مصر وفى الخارج، وذكر لى بصفة خاصة تاريخ حركة النساء فى إنجلترا، وقصة ثورتهن التى أدت إلى دخولهن البرلمان، وهكذا كان، رحمه الله، يوسوس إلىّ بهذه المسائل الخطيرة، ويحشو بها رأسى الصغير، حتى كاد ينفجر. وقد تلقفنى الزعيم سعد زغلول وأنا على هذه الحالة فى عام ١٩٢٤م، إذ اتصلت به

اتصالاً وثيقاً، فعطف عليّ وشجعنى، ثم أكمل بأحاديثه الشيقة معى تعبئة رأسى بالذرات الباقية، فى ميدان السياسة والنهضة النسوية الاجتماعية».

زعيمة سياسية

ثم تتحدث عن متى وكيف طالبت بحقوق المرأة السياسية، فتقول: «لمّا سمعت ذات يوم، أن القوم يضعون لمصر دستوراً وبرلماناً، خيِّل إلىّ أن الوقت قد حان لأن أتزعم حركة تشبه ثورة نساء الإنجليز، فأخذت فجأة أكتب وأبعث بعشرات المقالات للصحف العربية اليومية والأسبوعية وأحياناً الصحف الفرنسية. وفى هذه المقالات الأولى، كنت أبدى رأيى فى شؤون مصر السياسية، وكنت أؤيد طبعاً سياسة الزعيم سعد زغلول. وقد طالبت بحق الانتخاب للمرأة، وبحق العضوية فى المجلسين النيابيين، وكان ذلك قبل أن يفتتح رسمياً البرلمان المصرى الأول بقليل».

وتقول إنها طالبت قبل افتتاح البرلمان المصرى الأول فى ١٥ مارس ١٩٢٤م، بأن يكون هناك مكان مخصص للمرأة المصرية حتى تشترك فى هذا الأحتفال، فقد كتبت فـى جريدة الأهـرام تقول: «إنـه حقاً لـمن الغـبن الفاحـش أن تُحرم مندوبات الجنس اللطيف من الإشتراك فى الأحتفال بافتتاح البرلمان المصرى».

اتصالات ومداولات

كانت منيرة ثابت صاحبة أول عريضة فى تاريخ مصر، تطالب السلطات بمنح المرأة حقوقها السياسية، وكان ذلك فى مارس سنة ١٩٢٧م، عندما رفعت عريضة إلى حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس النواب، وبيّنت كيف «أن شريعتنا الإسلامية وتقاليدنا الشرقية سبقت المدنية الغربية فى الإعتراف بحقوق المرأة السياسية، وقد أخذت بلاد أوروبا الراقية مؤخراً بهذه المساواة بين الرجل والمرأة، فاعترفت الولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا وكل البلاد الراقية للمرأة بحق الإنتخاب، حتى الهند وهى بلاد شرقية، لم تصل بعد إلى الدرجة التى وصلت إليها مصر من التقدم الإجتماعى والسياسى، اعترفت للمرأة بحق الإنتخاب. فهل

يصح مع هذا كله أن تبقى مصر منكرة على المرأة أن تتساوى مع الرجل فى الحقوق السياسية خصوصاً حق الانتخاب؟».

وبعد عام ١٩٣٨م انتقلت بمعركة حقوق المرأة المصرية إلى الميدان الأوروبى، حيث سافرت فى يونيو ١٩٣٩ إلى الدانمرك لتمثيل مصر فى المؤتمر الثالث عشر للاتحاد النسائى الدولى الذى انعقد فى كوبنهاجن، وكانت ضمن وفد يضم هدى هانم شعراوى، وسيزا نبراوى، حيث تحدثت منيرة ثابت أمام المؤتمر عن النهضة النسوية فى مصر ومطالب المرأة.

المساواة مع الرجال

وبسبب الحرب العالمية الثانية، حيث حطمت رقابة الأحكام العرفية الأقلام وكممت الأفواه، ركدت الحركة النسوية فى مصر ركوداً إجبارياً، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى عادت منيرة ثابت إلى المطالبة بحقوق المرأة من جديد، فرفعت باسم المرأة المصرية إلى وزارة أحمد ماهر باشا عريضة تُطالب فيها بحقوق المرأة المصرية، وكان ذلك فى فبراير عام ١٩٤٥م والتى اختتمتها بقولها: «إنا نحن المصريات نطالب بضرورة احترام نصوص الدستور المصرى، ونتمسك بسيادة الأمة كاملة، نحن نتمسك بمبدأ سيادة الأمة ونطالب على أساسه بمساواتنا مع الرجال فى التمتع بالحقوق السياسية، كى تكون سيادة الأمة كاملة صحيحة ويكون المبدأ الديمقراطى قائماً سليماً. بناء على ما تقدم أرجو دولتكم المبادرة إلى رد اعتبار المرأة المصرية، وذلك بتقرير حقها فى المساواة سياسياً بالرجل وباشراكها فعلاً فى السلطتين التشريعية والتنفيذية».

البدايات

تأثرت «منيرة ثابت» فى فترة مبكرة من حياتها بأفكار والدها، وأفكار زعيم ثورة ١٩١٩، «سعد زغلول» وظهرت لديها موهبة الكتابة وهى لاتزال تلميذة فى المرحلة الإبتدائية.

وكتبت «منيرة ثابت» فى الصحف العربية والفرنسية وهى صغيرة، ومن

الصحف التى كانت تكتب فيها جريدة الأهرام، حيث كانت تبدى رأيها فى شؤون مصر السياسية وتطالب بحق الانتخاب للمرأة وبحق العضوية فى المجلسين النيابيين.

وفى أواخر عام ١٩٢٥، استطاعت منيرة ثابت أن تحصل من «إسماعيل صدقى» وزير داخلية مصر فى ذلك الوقت، على ترخيص بإصدار جريدتين سياسيتين فى وقت واحد، إحداهما يومية فرنسية، والأخرى عربية أسبوعية، وكلتاهما تحمل اسم «الأمل»، وكانت الجريدتان تطالبان بحقوق مصر فى الحرية والاستقلال وبحقوق المرأة السياسية والإجتماعية، وقد صدر العدد الأول من جريدة الأمل العربية فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٥، وكانت تحمل فى صدرها تعبير: صحيفة الدفاع عن حقوق المرأة.

قنبلة صحافية

وكان العدد الأول من جريدة «الأمل» قنبلة، كما يقول الصحافى الكبير مصطفى أمين: هجوم على الإنجليز والمندوب السامى البريطانى، هجوم على القصر والملك فؤاد، هجوم على الحكومة وأحمد زيور باشا رئيس الوزراء. وأصبحت الأمل، من العدد الأول أوسع جريدة أسبوعية انتشاراً فى مصر، وأصبحت جريدة سعد زغلول الأولى.

ولم تكتف «منيرة ثابت» الشابة بهذا النجاح الساحق، فأصدرت جريدتها اليومية باللغة الفرنسية، وإذا بالجريدة الفرنسية الجديدة تزيح جميع الجرائد الأجنبية التى تصدر فى مصر، وتتصدر الصحف الأجنبية كلها.

وفى الجريدتين اهتمت الصحافية الثائرة بقضايا المرأة المصرية والمطالبة بحقوقها السياسية، وبحقها فى التعليم والعمل، ونادت بالتوسع فى مدارس تعليم البنات، وواجهت السيطرة الإنجليزية على التعليم، وطالبت باطلاق يد المصريات وترقيتهن إلى المراكز القيادية والإشرافية على التعليم.

ورغم اهتماماتها السياسية، لم تهمل «منيرة ثابت» القضايا الإجتماعية فى

معالجاتها الصحافية، فناقشت مشكلة الطلاق، وطالبت بسن قوانين تنظم هذا الحق وتحد من المبالغة فى تحكم الرجل فيه، كما حاربت تعدد الزوجات، تلك «الصفة الممقوتة» التى تسئ إلى الزوجة وتخل بالإقتصاد العائلى.

زواج وطلاق

أهاجت كتابات منيرة ثابت القصر، ودار المندوب السامى البريطانى، وغيرهما من الجهات التى رأت فى كتابتها وآرائها ثورة تحررية، لم تكن العقول مهيأة لها، وهاجمها العديد من الأقلام، وانهالت عليها التحقيقات والمصادرات، ولكنها ظلت صامدة، ثائرة، لا يغريها وعد ولا يرهبها وعيد.

وكانت منيرة تطبع جريدتها الأسبوعية وجريدتها اليومية فى مطبعة «البلاغ» لصاحبها عبد القادر حمزة، الذى كان الصحافى الأول فى مصر بشهادة سعد زغلول، حيث كانت «البلاغ» لسانه الرسمى.

وأعجب عبد القادر حمزة بشجاعة الكاتبة الثائرة وبحماسها وصمودها، وتطور الإعجاب إلى حب، ووجدت منيرة فى عبد القادر حمزة باشا فتى أحلامها بالرغم من أنه كان يكبرها بأكثر من عشرين عاماً. وتسربت قصة الحب بين عبد القادر حمزة ومنيرة ثابت إلى صحف الحكومة، فأرادت أن تُشهر بالصحافى الوفدى الكبير وبالصحافية الثائرة. وعلم سعد زغلول بما حدث، فاستدعى عبد القادر حمزة ونصحه بالزواج بمنيرة ثابت ما دام يحبها. وبالفعل تم الزواج. وتركت منيرة ثابت الميدان الصحافى وتفرغت للبيت، وتوقفت جريدة «الأمل» العربية بعد العدد الصادر فى ١٨ أكتوبر ١٩٢٧، وانزوت منيرة بضع سنوات، واشتركت فى كثير من الجمعيات النسائية، ولكنها لم تصمت عن المطالبة بحقوق المرأة. وما لبثت أن انفصلت عن زوجها عبد القادر حمزة بهدوء، وعادت إلى حياتها الصحافية، ولكن هذه المرة بين أسرة تحرير «الأهرام»، فقد فتح لها أنطون الجميل، رئيس تحرير الأهرام، صدر جريدته. حتى توفى انطون الجميل سنة ١٩٤٨م، ففكرت فى إعادة إصدار جريدة «الأمل» ولكن بعد أن

كانت ريح الصحافة فى مصر قد اتجهت اتجاهاً آخر لم تألفه ولم يألفها. ومع هذا فقد ظلت تكافح فى إصدار جريدتها وحيدة جريئة تقوم بما يحتاج القيام به عصبة من الرجال، حتى أنهكها العناء والشقاء والمرض حيث تُوفيت فى سبتمبر سنة ١٩٦٧م.

هذه هى، منيرة ثابت، التى أقامت الدنيا ولم تقعدها، والتى كانت صاحبة الصوت الأول فى المطالبة بحقوق المرأة السياسية، قبل أن تقوم الحياة البرلمانية فى مصر، وأصغر رئيسة تحرير فى مصر والعالم العربى، فى وقت كان الرجال يعجزون فيه عن القيام بهذه المهام. وعندما تحقق الحلم وأصبح من حق المرأة أن تكون عضوة فى البرلمان، حُرمت «منيرة ثابت» من الحق الذى طالما طالبت به. ولكن يبقى أنها امرأة من الطراز الفريد الذى لا يمكن للتاريخ إلا أن يسجل مآثرها بحروف من نور.



درية شفيق

«بنت النيل» الثائرة

- حياتها رحلة كفاح من أجل حقوق المرأة.
- سنة ١٩٥٤م، كانت واحدة من أهم عشر سيدات فى العالم.
- قالت: «إرادة المرأة يمكن أن تبطل أى قانون لا ينصفها»
- رئيسة تحرير وصاحبة مجلات «بنت النيل» ، «المرأة الجديدة» و «الكتكوت»
- رئيسة اتحاد بنت النيل النسائى
- ماتت منتحرة إحتجاجاً على الظلم.

وصفتها جريدة «ديلى ميرور» الإنجليزية بأنها تحاول أن تتشبه بكليوباترا، وبأن حياتها سلسلة طويلة من الكفاح من أجل حقوق المرأة المصرية، وقالت وكالات الأنباء أنها كانت فى سنة ١٩٥٤م واحدة من أهم عشر سيدات فى العالم، إنها الدكتورة درية شفيق رئيسة «اتحاد بنت النيل» ورئيسة تحرير وصاحبة مجلات: «بنت النيل» و«المرأة الجديدة» و«الكتكوت».

فى مذكراتها قالت الدكتورة درية شفيق: «لقد تعلمت فى طفولتى المبكرة أن إرادة المرأة يمكن أن تُبطل أى قانون لا ينصفها».

وهكذا كانت حياتها سلسلة نضال وكفاح من أجل حقوق المرأة المصرية وحريتها.

وُلِدَتْ درية شفيق فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٨م فى مدينة طنطا، وكانت الطفل الثالث لوالدها المهندس أحمد شفيق، ووالدتها «رتيبة ناصف» والأبنة الثانية لأسرتها التى انتقلت بعد ذلك إلى المنصورة، وفى هذه الفترة كانت هناك ثلاث مجموعات أو أحزاب سياسية مؤثرة فى الحياة السياسية فى مصر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

وهذه الجماعات هى «الحزب الوطنى» بقيادة مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) الذى طالب على صفحات جريدة «اللواء» بالجلاء العاجل للإنجليز حتى ولو بالقوة، وحزب الأمة بقيادة لطفى السيد (١٨٧٢-١٩٦١) الذى كان يرى أن الموضوع الأولى بالرعاية هو تعديل وسن القوانين التى تضع مصرا على عتبة المدنية الحديثة، وعرفت الاتجاهات الإسلامية المعروفة بالسلفية التى أسسها الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٣٥).

وفى سنة ١٩١٥م عادت درية إلى طنطا لتلتحق بمدرسة «نوتر دام» حيث أتمت دراستها الابتدائية الثانوية، وكانت تقيم فى هذه الفترة مع جدتها خديجة، حيث توفيت والدتها سنة ١٩٢٠، وعادت إلى الإسكندرية لتعيش مع والدها فى عام ١٩٢٢ وفى سنة ١٩٢٢ التحقت درية بمدرسة «الليسيه فرانسيه» لتحصل على شهادة البكالوريا، وحصلت عام ١٩٢٤م على ميدالية فضية لفوزها بالمركز الثانى فى أمتحان التوجيهية على مستوى القطر المصرى.

ملكة جمال

وفى سنة ١٩٢٨، وبمساعدة هدى شعراوى حصلت درية شفيق على منحة من وزارة المعارف لاستكمال دراستها فى فرنسا، ودعتها هدى شعراوى لإلقاء خطاب على مسرح الأربكية فى مايو، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تلقى فيها درية خطاباً فى الاتحاد النسائى المصرى، وفى أغسطس أبحرت إلى فرنسا لتدرس فى جامعة السوربون، وحصلت درية شفيق على درجة الليسانس سنة ١٩٣٢م، حيث عادت إلى الإسكندرية لتقيم مع والدها، وهناك اشتركت فى مسابقة ملكة جمال مصر، حيث نالت شهرة واسعة وتعرفت إلى الصحافى أحمد الصاوى، وتزوجا أسابيع قليلة سنة ١٩٣٥، ثم انفصلت عنه لتعود إلى السوربون بعد أن قررت ألا تتزوج مرة أخرى.

وأثناء وجودها فى باريس التقت مرة أخرى مع ابن خالتها نور الدين رجائى الذى عرض عليها الزواج، فوافقت وسافرا إلى إنجلترا لقضاء شهر العسل سنة ١٩٣٧، وعادا إلى أرض الوطن حيث احتفلت الأسرة بزواجهما، وكان زوجها قد حصل على الدكتوراه سنة ١٩٣٩ فى القانون.

وفى سنة ١٩٤٠م سافرت درية شفيق إلى باريس لمناقشة رسالتها، حيث حصلت على درجة الدكتوراه، لتعين مفتشة للغة الفرنسية فى وزارة المعارف، وقد رزقت الدكتورة درية شفيق فى ٦ مارس ١٩٤٢م بطفلتها عزيزة ثم رُزقت فى ١٧ أغسطس ١٩٤٤م بابنتها جيهان.

وكانت درية شفيق على علاقة وثيقة بالأميرة شويكار التى جعلتها ترأس تحرير مجلة «المرأة الجديدة» فى عام ١٩٤٥م، وهو العام الذى أصدرت فيه درية مجلتها «بنت النيل»، ثم أصدرت مجلة للأطفال سنة ١٩٤٦ سمتها «الكتكوت» وفى سنة ١٩٤٧م فقدت درية شفيق صديقتها الأميرة شويكار، ثم السيدة هدى شعراوى.

وكونت درية شفيق «اتحاد بنت النيل» سنة ١٩٤٨ الذى كان من مبادئه تعديل الدستور على نحو يؤكد أن الأمة مصدر السلطات، وتعديل قانون الانتخابات بما يسمح للمرأة بمزاولة حق الأنتخاب والترشيح، وتعديل قانون التجنيد الإجبارى لتمكين المرأة من المساهمة مع الرجال فى الدفاع عن أرض الوطن، وكفالة حرية الرأى للأفراد جميعاً وفى مقدمتها حرية الصحافة والعمل على أن تتولى المرأة جميع وظائف الدولة متى استوفت المؤهلات والشروط المقررة لها، والمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والالتزامات، والسعى لتحقيق الاستقلال التام لمصر والسودان وتحقيق الوحدة بينهما بالوضع الذى يرتضيه شعب وادى النيل، وتدعيم الجامعة العربية والتمسك بعروبة فلسطين، وتقييد حق تعدد الزوجات وحق الرجل فى الطلاق.

تظاهرة نسائية إلى البرلمان

فى سنة ١٩٥١م قادت درية شفيق تظاهرة نسائية كبرى إلى البرلمان المصرى للمطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل فى الحقوق الإنتخابية.

وانطلقت النساء من قاعة «يورت» فى الجامعة الأمريكية، حيث كن يعقدن مؤتمرهن إلى مبنى البرلمان المصرى، وهن يحملن لافتات كتب عليها: «نريد الحرية والمساواة والسلام» و «الدستور والديمقراطية معنا».

وكانت المتظاهرات يهتفن بسقوط الرجعية وأن «البرلمان للنساء والرجال» والاستعمار عدو المرأة.

ووصلت المتظاهرات إلى البرلمان وقَدَّمْنَ إلى مجلس الشيوخ والنواب القرارات التى اتخذنها فى مؤتمرهن.

ووزعت المتظاهرات على أعضاء البرلمان منشورات تقول:

«باسم الإنسانية التى تربطنا جميعاً نحن الرجال والنساء، وباسم الوطن الذى نكافح من أجل حريته نحن الرجال والنساء، وباسم الدستور الذى ساوى بيننا نحن الرجال والنساء يعلن إليكم المؤتمر النسائى العام المنعقد اليوم والذى يمثل نصف الأمة، يعلن إليكم أنتم الذين تمثلون النصف الأخر حق نساء مصر فى أن يشاركنكم الجلوس تحت هذه القبة، ليكون التعبير عن آلام وأمال الشعب، تعبيراً صادقاً وأميناً».

ولم تتوقف جهود درية شفيق للمطالبة بحقوق النساء، فلما لم تستجب الحكومة لمطالب المؤتمر النسائى العام والتظاهرة التى أعقبته فى ١٩ فبراير سنة ١٩٥١، اللذين قادتهما درية شفيق، قررت هى ومجموعة من زميلاتها الاعتصام فى نقابة الصحافيين والإضراب عن تناول الطعام، وكان ذلك يوم ١٢ مارس ١٩٥٤، وقد أحدث هذا الأعتصام دوياً إعلامياً كبيراً، حيث اهتمت الصحافة الأجنبية بالحدث، وجاء مراسلوها لتغطيته وإجراء الأحاديث مع المعتصمات لمعرفة أسباب الأعتصام ومطالبهن، مما دفع السلطات المصرية للاتصال بالمعتصمات طالبة منهن تقديم مذكرة بمطالبهن.

روح ثائرة

وفى يوم الحادى والعشرين من مارس، حمل محافظ القاهرة «محمود نور» رسالة شفهية من رئيس الجمهورية تقول: «كلفنى السيد الرئيس محمد نجيب بأن أبلغكن بأن مطالبكن قد وصلت إلى اللجنة المختصة بالنظر فى تكوين الجمعية التأسيسية للنظر فيها وحقوقكن فى أيد أمينة، وانتهى الإضراب عن الطعام بعد ذلك التصريح.

الإضراب عن الطعام مرة أخرى

وعلى الرغم من أن الدستور المصرى الجديد الذى أُعلن فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ قد أعطى المرأة ولأول مرة حق الأنتخاب، إلا أن الاتحادات النسائية بدأت

تنهار ويقل دورها بعد أن أخضعت الدولة نشاطها لوزارة الشؤون الاجتماعية لفرض مزيد من الرقابة على أنشطتها، ومن بينها «اتحاد بنت النيل».

ونتيجة للحصار الذى فُرِضَ على أنشطتها، والتجاهل والتعتيم الذى مارستهما أجهزة الإعلام عليها، أقدمت الدكتورة درية شفيق يوم الأربعاء ٦ فبراير ١٩٥٧م على الأعتصام والإضراب عن الطعام مرة أخرى فى دار السفارة الهندية فى حى الزمالك فى القاهرة، وأصدرت بياناً سلمته لوكالات الأنباء الأجنبية قالت فيه:

«أمام الظروف القاسية التى تمر بها مصر قررتُ بعزم أكيد أن أقوم بالاضراب عن الطعام حتى الموت، وذلك ابتداء من اليوم الإربعاء ٦ فبراير سنة ١٩٥٧، فى السفارة الهندية فى القاهرة، وذلك لاستخلاص حريتى الخارجية والداخلية وإننى كعربية ومصرية، أطلب من السلطات الدولية العمل على انسحاب القوات الإسرائيلية فوراً من الأراض المصرية، والوصول إلى حل عادل ونهائى لمشكلة اللاجئين العرب، وأطلب من السلطات المصرية رد الحرية التامة للمصريين جميعاً رجالاً ونساء».

إغلاق وحصار

وأصدرت الحكومة على الفور قراراً بإغلاق مجلة «بنت النيل» ومجلة «المرأة الحديدة» ومجلة «الكتكوت» كما أوعزت للجمعيات النسائية ورئيساتها باستنكار موقف درية شفيق، وحاصرت الشرطة مكتب الدكتور نور الدين رجائى زوج الدكتورة درية شفيق، وكانت تقبض على كل زبون من زبائن المكتب.

كل هذه المواقف بالإضافة إلى خوفها على حياة زوجها وأسرتها، حماية له جعلتها تفضل العزلة وتطلب من زوجها الطلاق حماية له، ورغم هذا الإنفصال كانت العلاقات بينهما ودية، وعاشت درية فى وحدتها حزينة، فقد تخلى عنها أنصارها وانقطعت صديقاتها عن زيارتها خوفاً من الأعتقال، ومُنعت الصحف من ذكر اسمها.

وبقيت درية شفيق معتزلة فى شقتها طوال ١٨ عاماً، لا تزور أحداً ولا يزورها أحد.

وكما كانت ثائرة فى حياتها، تميل إلى المواقف العنيفة، واضحة وصريحة، أرادت أن تعلن رفضها لكل ما عانته من ظلم وما رأته من جحود، فقررت أن تنهى حياتها فى ضجة وجلبة، معلنة بصوت عال نبأ وفاتها، ففى ظهر يوم ٢٠ سبتمر سنة ١٩٧٥، أنهت درية شفيق حياتها بأن ألقت بنفسها من شقتها فى الدور السادس.

وقد تركت درية شفيق، عدة كتب منها: «المرأة المصرية منذ الفراعنة إلى اليوم»، «رحلتى حول العالم»، وكتاباً بالفرنسية بعنوان: «إننى فى الجحيم» وفيه تقارن بين الجحيم الذى عاش فيه الشاعر «دانتى» وجحيم حياتها، وكانت تكتب الشعر باللغة الفرنسية التى كانت تجيدها كأهلها تماماً، كما حاولت قبل رحيلها وفى وحدتها ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية.



روز اليوسف

الوردة المشاغبة «فاطمة التى لا تنسى»

- ماتت أمها وهاجر أبوها وتركها أمانة عند الجيران، فصارت «روزالى»
- إمرأة تحدت كل عوامل الضعف
- خليط عجيب من الصفات الإنسانية المتشابكة.
- سارة برنارد الشرق وأميرة الصحافة المصرية
- ملامحها الرقيقة كانت تخفى إرادة فولاذية.
- عملت بالتمثيل وأصدرت مجلتى روز اليوسف وصباح الخير.
- لم تدخل مدرسة، وصارت كاتبة وذواقة للشعر.



يصرّ البعض أن يقاوم الجلبة التى تحيط بحياته وتقسو عليه لتطرحه أرضاً، بأن يحدث حول تلك الجلبة جلبة من صنع يديه، ويجعلهما تتعاركان إلى أن يمضى من الدنيا وسط ضجيجهما الصاخب.

من أولئك امرأة عرفناها باسم «روز اليوسف».

روز اليوسف أو فاطمة اليوسف كما أرادت أن يُطلق عليها فى أواخر أيام حياتها امرأة تحدت كل عوامل الضعف فى الحياة: تحدت أولاً ظروف نشأتها القاسية فى ظل اليتم والغربة، ثم تحدت العادات والتقاليد وكسرت من حولها الطوق الحديدى.

يصفها من عرفها بأنها خليط عجيب من الصفات الإنسانية المتشابكة، فهى صلبة كالصخر، ورقيقة كالعصفور الصغير، تكون طيبة القلب يمكن استعطافها بكلمة رقيقة، ثم فجأة تصبح عنيدة مشاغبة، تتحدّى وتثور وتشجب.

إنها امرأة لا تنسى، تقول عن نفسها:

«كلنا سنموت.. ولكن هناك فرقاً بين شخص يموت وينتهى وشخص مثلى يموت ولكن يظل حياً بسيرته وتاريخه».

عرفت «روز اليوسف» عند ولادتها باسم فاطمة محمد محيى الدين اليوسف، وكانت طفلة جميلة عاشت مع والدها ووالدتها فى لبنان حياة ناعمة مستقرة، ليتبدل كل هذا عندما تتوفى الأم، ويضطر والدها للسفر إلى اسطنبول ويتركها «أمانة» لدى جيرانه الذين صانوا تلك الأمانة طالما كان الوالد يرسل إليهم بالأموال، ولكن ما أن نفدت تلك الأموال، وغابت أخبار الأب حتى تغيرت تلك المعاملة تغيراً جذرياً، بل أبدت الأسرة استعدادها التام لترك الصغيرة تسافر

وحدها إلى البرازيل مع صديق للأسرة سيهاجر إلى هناك.

وقبل السفر أبت مربيتها أن تتركها تمضى دون أن تطلعها على السر، وخاصة بعد أن لمحت علامات البراءة والدهشة على وجه الصغيرة فأخبرتها أنها ليست ابنه هذه الأسرة وإنما هى فاطمة وليست «روزالى».

ولم تجد الطفلة أمامها مفراً سوى السفر، لكنها هربت من السفينة عندما رست في ميناء الأسكندرية، فكأن أضواء الشهرة نادتها فلبت النداء، وكانت القاهرة هى المدينة التى شهدت عبقرية «روز اليوسف».

سارة برنارد الشرق

أطلقت عليها هذا اللقب إحدى المجلات الفرنسية عندما نشرت صورها على غلاف أحد أعدادها، وكانت بداية روزا على مسرح «برنتانيا» حيث كانت المصادفة التى غيرت مجرى حياتها، إذ كانت تتسلل من حين لآخر إلى كواليس هذا المسرح حيث تبهرها أضواؤه ونجومه اللامعة، وفى إحدى تلك الزيارات المختلسة لمحها الفنان عزيز عيد، ورأى فيها موهبة فطرية لامعة، وعندما علم أنها وحيدة ويتيمة قرر أن يكفلها ويضمها إلى عائلته، إلى أن تأتى الفرصة، وجاءت الفرصة سريعاً عندما رفض كل أعضاء الفرقة أداء دور سيدة عجوز فى إحدى الروايات، فعرض عزيز عيد الدور عليها، فوافقت على الفور، ووقفت تمثل العجوز ببراعة على خشبة المسرح وهى مازالت فى العشرين من عمرها.

ثم أخذت «روز» تنتقل من فرقة إلى أخرى، وتؤدى أدواراً صغيرة لا تتعدى بضع كلمات كدورها فى رواية «نابليون والاليزية الحسناء» عندما كانت تقدم خاتما للبطلة، وتقول لها أربع كلمات «منى لك هذا الخاتم» ولكن سرعان ما جاءت الفرصة الحقيقية على مسرح رمسيس حيث ظفرت بلقب الممثلة الأولى أمام الفنان يوسف وهبى، وبلغت ذروة تألقها الفنى عندما مثلت دور مارجريت لجوته فى رواية غادة الكاميليا، وهو الدور الذى جعلها تتربع بنجاح على قمة التمثيل فى مصر.

أميرة الصحافة المصرية

اختارت «روز» سنة ١٩٢٥م لكى تعتزل التمثيل وهى فى ذروة نجاحها وتألقها مما أثار دهشة الكثيرين من معجبيها ومنافسيها، عدا القريبين منها، والذين يدركون شخصيتها جيداً فتفهموا قرارها، فقد كانت روز اليوسف امرأة متجددة تبحث دائماً عن الجديد ولا تبحث عن النجاح السهل ولا يستهويها التفوق الدائم، وإنما تفتش دائماً عن المزيد والمزيد من التحديات.

واقتحمت «روز اليوسف» مجالاً أكثر صعوبة وتحدياً من التمثيل، وهو ميدان الصحافة، واختارت الصحافة الفنية أولاً، وأصدرت مجلة «روز اليوسف» كمجلة فنية تهتم بأخبار الأدب والمسرح، ثم جعلتها مجلة سياسية تهاجم الملك وتخوض المعارك ضد الأحزاب، ولم تكن روز اليوسف الأسبوعية هى المطبوعة الوحيدة، وإنما أصدرت عدداً كبيراً من المطبوعات الأخرى، مثل روز اليوسف اليومية التى أصدرتها عام ١٩٣٥م لتكون جريدة يومية ويشهد الكثيرون أنها أستطاعت بتلك الجريدة أن تنافس جريدة «الأهرام».

وأصدرت الكتاب الذهبى، ونشرت سلسلة كتب فكرية وسياسية متنوعة كما أصدرت مجلة «صباح الخير» عام ١٩٥٦ وجعلت لها طابعاً مختلفاً فجاءت خفيفة، وتخاطب الأسرة المصرية كلها وجيل الشباب خاصة.

المرأة الفولاذية

يكشف المتأمل فى شخصية «روز اليوسف» أن سر قوتها ونجاحها يتمثل فى روح التحدى والإرادة الفولاذية، التى تكمن خلف ملامحها الرقيقة وحديثها العذب.

فقد جعلتها تلك الروح تنفذ كل ما تريد بمجرد أن تحدد مرادها الحقيقى. ولم تفارقها إرادتها منذ أن كانت طفلة لا تتجاوز السابعة وحتى اللحظات الأخيرة من عمرها.

فالإرادة هى التى جعلت تلك الطفلة الصغيرة تترك السفينة لتجد نفسها وحيدة فى بلاد لا تعرفها، ولا يعرفها فيها أحد، وهى أيضا التى جعلتها تختار مجال التمثيل الذى كان من أصعب المجالات فى ذلك الوقت، حيث كان المجتمع المصرى يرفض أن تعمل بناته بالتمثيل، وكانت أدوار الفتيات يقوم بها ممثلون متنكرون، لكنها صممت أن تقتحم هذا الميدان حتى أصبحت ممثلة مصر الأولى دون أى شائعات أو فضائح.

الإرادة أيضاً هى التى جعلتها تختار ميدان الصحافة بعدما حققت ذاتها فى حقل التمثيل.

فرغم أنها لم تدخل إلا مدرسة الحياة التى استقت منها كل علومها بإرادة وعزيمة فولاذية، فإنها اقتحمت مجال الصحافة بنجاح ولم يكن رصيدها من التعليم سوى بعض القراءة والكتابة وعمليات الجمع والطرح البسيطة، لتصبح بعد وقت قليل قارئة ممتازة للشعر، بل كاتبة مقالات نارية تُمليها على بعض شبان الصحافيين كأحمد بهاء الدين وفتحى غانم، لأن خطها فى ذلك الوقت كان يشبه خط الطفل الصغير.

دفاع عن الفن المصرى

ويعد إنشاؤها جريدة «روز اليوسف» ضرباً من ضروب التحدى ففى أغسطس سنة ١٩٢٥، كانت تجلس فى محل «حلوانى» شهير بصحبة زوجها زكى طليمات، ومحمود عزمى عندما وقعت فى يدها مجلة «الحاوى» الفنية، التى كانت تنتقد الفنانين بعنف شديد ـ كما هو حال الصحافة الفنية فى مصر فى ذلك الوقت، فثارت روزا، وقررت أن تصدر مجلة فنية تجعلها منبراً للدفاع عن الفنانين المصريين وللرقى بالفن المصرى، ورغم صعوبة ذلك، إلا أن «روزا» نجحت واستطاعت أن تصدر مجلة «روز اليوسف» الفنية، بل ثابرت رغم الخسارة التى لحقت بها فى الأعداد الأول والثانى والثالث، واستمرت تغير فى سياستها التحريرية حتى لقيت النجاح فى الأسبوع الثامن والعشرين.

وما أن نجحت المجلة فى أن تصبح إحدى أقوى المجالات الفنية فى مصر حتى قامت روز بمحاولات لإصدار ترخيص لتجعلها مجلة سياسية.

وناضلت لإصدار هذا التصريح عندما رفضت وزارة الداخلية أن تمنحها إياه، فقابلت أحمد زيور ـ رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ـ والذى أصدر أمره الشهير:

«أعطوها ترخيص.. خلُّوها تاكل عيش»، وخرجت بذلك روز اليوسف السياسية إلى الوجود، وشنت على صفحاتها معارك طاحنة ضد حكومات إسماعيل صدقى، ومصطفى النحاس.

وزادت المعارك ضراوة لتهاجم الملك وأنصار الإنجليز بعنف شديد.

وبلغت الجرأة بروز اليوسف أن تقول لكريم باشا ثابت مندوب الملك، عندما جاءها مهنئًا بعيد ميلاد المجلة:

«قل لمولاك إننى أرفض التهنئة منه».

شهامة

كانت لدى روز اليوسف أخلاق صحافية راقية، فلم تستغل الصحافة لتحقيق أغرااض شخصية أو لتكوين الثروات كما يفعل البعض، ولعل قصتها مع أم كلثوم دليل على ذلك.

فقد جاء لها شخص مجهول أعطاها خطابات غرامية من وإلى كوكب الشرق قيل أنها تبادلتها مع أحد المعجبين بها، وعندما علمت أم كلثوم بذلك أرسلت عبدالله أباظة يحمل خاتم «سوليتير» هدية إلى روز اليوسف لإعادة الخطابات دون نشرها، وقامت روز برد الهدية ورد الخطابات دون أى مقابل وأكرمت رسول أم كلثوم وأحسنت لقاءه.

وكانت لبنانية الأصل لكنها أحبت مصر بكل إخلاص، فخاضت معارك سياسية طاحنة ضد الفساد فى مصر، لتصبح تلك الحسناء نزيلة دائمة فى المعتقلات.

وكانت لها علاقات بالضباط الأحرار، وكانت تأوى الرئيس السابق أنور السادات (أحد الضباط الأحرار) فى المطبعة، لتخفيه عن أعين رجال الشرطة الذين كانوا يبحثون عنه بتهمة الشروع فى قتل مصطفى النحاس.

رحيل مفاجئ

أمضت روز حياتها فى سلسلة من التحديات بل إن من شهدوا لحظاتها الأخيرة يقسمون بأنها كانت تتحدى الموت بثبات وإيمان بينما رسمت على وجهها ابتسامة رضا.

فقد كانت مع خديجة هانم ـ صديقتها وزوجة محاميها ـ فى سينما ريفولى عندما أحست بألم شديد فى صدرها، فتحاملت على نفسها وطلبت من صديقتها أن تعود بها إلى منزلها، وما أن دخلت إلى غرفة نومها حتى نامت على فراشها بهدوء لتلقى ربها وقد حققت أمنيتها الأخيرة بأن تموت على فراشها وكان ذلك سنة ١٩٥٨.

تزوجت روز اليوسف ثلاث مرات، وكان أول أزواجها محمد عبد القدوس الذى أنجبت منه ابنها الوحيد الصحافى والروائى الشهير إحسان عبد القدوس، وكان زكى طليمات زوجها الثانى، بينما كان الثالث قاسم قاسم أمين حفيد الكاتب والمصلح الاجتماعى المعروف بلقب نصير المرأة، وقد دام زواجها ١٧ عاماً وتوفيت وهى زوجته، وأوصت أن تدفن فى مقابر أسرته.



مي زيادة

عواطف كسيرة أوصلتها إلى الجنون

- لبنانية الأصل، فلسطينية المولد مصرية الجنسية.
- جمعت بين الجمال والذكاء وطيبة القلب.
- أديبة وخطيبة شاعرة وصحافية.
- كان صالونها ملتقى الأدباء والمفكرين والسياسين.
- أحبها العقاد ولطفى السيد وأنطون الجميل، وأحبت هى جبران خليل جبران
- أتهمها أقاربها بالجنون وأدخلوها المصحة
- دُفنت فى مصر القديمة.

بين نساء العرب المعاصرات كثيرات ممن دخل الحب قلوبهن، أو فتحن تلك القلوب لمن يستحق أو لا يستحق دخولها.

لكن مارى إلياس زيادة، الشهيرة بتسمية الآنسة مى، كانت حالة مميزة فى مطلع القرن العشرين. فهى لم تكن حالة عاطفية فقط، بل حالة ثقافية واجتماعية، وحالة «علاقة» فريدة مع النفس ومع الغير.

يقول البعض إن مَىّ زيادة التى تمتعت بقدر وفير من الجمال والذكاء والثقافة، ظلمت نفسها وأنها تتحمل مسؤولية فقد الأصدقاء الأوفياء والحبيب الذى يمكن أن يشعرها بالسعادة والأستقرار.

وقد رحلت مى فى ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٤١م، لكنها مازالت بانتظار من ينتصر لها، حيث قالت فى رسالة إلى الصحافى والأديب يعقوب صروف: «أتمنى أن يأتى بعد موتى من ينصفنى».

مارى إلياس زيادة، فتاة لبنانية الأصل، فلسطينية المولد، مصرية الجنسية، جميلة الوجه، شرقية الملامح، لها صفحة وجه بيضاء مستديرة، ينسدل حولها شعر أسود غزير بتسريحة عصرية أنيقة، ويطل من عينيها السوداوين البديعتين بريق عجيب يجمع بين الذكاء الحاد، والحنان الجارف والحزن الدفين.

جمال الروح والعقل

وإلى جانب الجمال، فإن سر جاذبية «الآنسة مى»، أو النابغة كما وصفها من عاصروها، يُكمن خلف كل هذا الجمال الخارجى، إذ كان يشع من داخل هذه المرأة جمال عجيب وهبها إيَّاه الخالق عز وجل، ربما ينبع من رقتها الزائدة، أو حنانها الجارف أو عقلها ورصانتها.

فقد جمعت مَىّ بين ثلاث من جواهر الصفات التى يندر أن تجمعها امرأة واحدة. فهى جميلة للغاية، وبارعة الذكاء، وطيبة القلب.

يظن الكثيرون أن الذكاء والجمال لا يجتمعان فى امرأة واحدة لأن أحدهما يفسد الآخر. لكن مَىّ كسرت هذه القاعدة إذ جمعت بين الذكاء الحاد والجمال الشرقى الرائع، بل وأضافت إليهما القلب النابض بالحب الذى يتألم لبكاء الطفل الصغير، وينعي عصفوراً رقيقاً يموت فى قفصه، ويحزن لأحزان أصدقائه.

كانت مى زيادة ذات مواهب متعددة فى شتى الجوانب، وأثرت الحياة الثقافية. فهى أديبة وخطيبة وشاعرة وصحافية، ولها العديد من المؤلفات الأدبية منها: «سوانح فتاة» و«باحثة البادية» و«بين المد والجزر» و«إبتسامات ودموع»، بالإضافة إلى ١٦٢ موضوعاً لم تُجمع، بين القصيدة المنثورة والمقال والقصة القصيرة. ومن تلك الأعمال: «ليالى العصفورية»؛ وتتناول فيها ما قاسته من أهوال داخل مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان، و«فى بيتى اللبنانى» وتصف فيه حياتها بعد الخروج من المستشفى و«مذكراتى» و«علاقة فينيقية بمصر». وغيرها من الأعمال.

وكانت شاعرة رقيقة الحس والأسلوب، وكان أول كتاب صدر لها عام ١٩١١. وهو «أزاهير حلم» ديوان شعر بالفرنسية، وهو العمل الذى لم يُترجم كاملاً حتى الآن.

الصحافية

كانت مَىّ نابغة فى مجال الصحافة أيضاً بل إن بدايتها فى مصر كانت بداية صحافية من خلال جريدة «المحروسة» التى كان والدها محرراً مسؤولاً فيها.

وكان لمى باب فى مجلة «السياسة» الأسبوعية يُسمّى «خلية النحل» وهو باب يحرره القراء، إذ يرسل بعض القراء أسئلة واستفسارات يجيب عليها قراء آخرون.

وقد جذب الباب عدداً كبيراً من الشباب فى ذلك الوقت، أصرّت مىّ أن تعمل كصحافية حرّة، ورفضت عرض الأهرام أن تكون عضواً فى أسرة التحرير.

وتمتعت «النابغة» بمقدرة خطابية مميزة، إذْ كانت خطيبة ذكية تتحدث بأسلوب مشوّق بعيداً عن الرتابة والملل. وكانت قادرة على خلق جو من المرح الرصين داخل القاعة. واستمرت مَيّ، ذات مرة تتحدث عن قدرات المرأة العصرية. ثم تركت الأوراق ونظرت إلى جمهورها وقالت: «لا تغاروا أيها الرجال..» وكانت خطابات مى زيادة تجذب الجمهور بنوعيه من مختلف المراحل السنية؛ الشباب، الكهول، الرجال والنساء، فعندما كانت مَيّ تخطب كانت القاعة تمتلئ، وتم فى إحدى المرات استدعاء الشرطة بسبب الزحام الشديد.

ملتقى المثقفين

ومن أهم إسهامات هذه الكاتبة فى الحياة الفكرية أنها فتحت صالون منزلها فى شارع عدلى كل ثلاثاء، ليؤمّه الأدباء والمثقفون، فى الأدب والنقد والفن والفكر والسياسة والإقتصاد. ومن مختلف الجنسيات العربية والأوروبية، ومن الجنسين، ومنهم من يتحدث العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

وكان صالون «الآنسة مى» الذى استمر يُقام لمدة تقارب العشرين عاماً، منتدىً أدبياً مهماً، حاول الكثيرون الاقتداء به.

وقد شارك فى صالون مَيّ العديد من الأدباء المرموقين ومنهم: طه حسين وأحمد لطفى السيد وعباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وهدى شعراوى وملك حفنى ناصف وسلامة موسى وإسماعيل صبرى وأحمد زكى باشا وولى الدين يكن وأنطون الجميل وغيرهم.

وكانت مَيّ تحرص على أن يكون صالونها الأدبى على أرقى المستويات الأخلاقية، وقد وضعت فى صالون بيتها لوحة عليها أبيات الإمام الشافعى:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى
وعيشك موفور، وعرضك صيِّن
لسانك لا تذكر به عورة امرئ
فكلك عورات وللناس ألسن

صراع العقل والعاطفة

كانت مَىّ ذات عقل راجح وشخصية قوية، مما جعل كل من حولها من كُتَّاب يحبونها ويغازلونها، ولكن لم يستطع أى منهم أن يصل إلى ذلك القلب النابض بتلك العقلية القوية، أو يتفهّم ذلك الصراع الدائم بين عقلها وعاطفتها.

فقد أحبها العقاد ذلك الشاب الأنيق، والنجم اللامع فى المجتمع الفكرى، وطلب ودّها لكنها صدّته.

وحينما كان الأمر يتعدَّى حدود الصداقة كانت تنبهه إلى ذلك بلطف، فظلت العلاقة بينهما أكثر من الصداقة وأقل من الحب.

وأحبها أنطون الجميل رئيس تحرير «الأهرام». فأرسل إليها رسائل الحب بل نظّم فيها الشعر.

وأحبّها أحمد لطفى السيد، وغيرهم من الكتّاب والأُدباء. لكن الأديبة المرهفة كانت تبحث عمّن يثير عاطفتها وإحساسها. وأخيرا وجدت غايتها فى جبران خليل جبران، ذلك الشاب الرومانسى الرقيق الذى أحبّته وأحبّها حباً أفلاطونياً، والتى انقلبت حياتها رأساً على عقب عندما علمت بخبر وفاته.

والغريب فى الأمر: أنها رفضت الزواج منه رغم كل هذا الحب والسبب بلا شك هو ذلك الصراع الدائم بين عقلها وعاطفتها، أحبت جبران خليل جبران، «شاعر المهجر» اللبنانى الذى أحبته دون أن تراه؛ والذى ظلّت تُراسله ويُراسلها لأكثر من عشرين عاماً، ومن شأن جمع تلك الرسائل أن تصنع قصة حب أسطورية. فها هو جبران يكتب لها قائلاً:

«وكيف حال عينيك؟ أنت تعلمين بقلبكِ أنّ حال عينيكِ يُهمَنى إلى درجة قصوى، وكيف تسألين هذا السؤال وأنت تُشاهَدين بعينيك؟ وأَننى أُحب نُورهما، وأُحب النظرات البعيدة فيهما وأحب خيالَات الأحلام المتوهجة نحوهما».

وهى تكتب إليه قائلة:

«تعال يا جبران، وزرنا فى هذه المدينة «القاهرة» فلماذا لا تأتى، وأنت فتى هذه البلاد التى تُنادى عليكَ؟».

رحلة العذاب

بدأت سلسلة العذاب متوالية، إذ توفى والدها عام ١٩٣٠م ثم كان رحيل حبيبها جبران سنة ١٩٣١ لتلحق به والدتها سنة ١٩٣٢م. وأثرت هذه الحوادث فيها تأثيرا كبيراً حتى إنها امتنعت تماماً عن الكتابة منذ رحيل جبران.

ولم يقتصر الأمر على ذلك القدر من آلام الفراق، بل عانت آلام الخداع والنفاق أيضاً على يد حبيبها الأول وابن عمها يوسف زيادة، مصحوبة بآلام الجحود ونكران الجميل من قبل أصدقائها ومعارفها، لتكتمل بذلك حكاية الألم.

فعندما لاحقت الأحزان مَيّ، وشعرت بالخوف من أقاربها فى مصر والذين عجزوا عن إخفاء طمعهم فى أموالها استعانت مى بيوسف ابن عمها وخطيبها السابق، طالب الطب الوسيم الذى فسخت خطبتها له فى الماضى لأنه لم يكن جاداً فيها، فكتبت له فى سبتمبر ١٩٣٥: «يوسف.. ألم تعدّ راغباً فى أن تكون شقيق روحى؟ أنا يا يوسف وحيدة: أتوسّل إليكَ أن تأتى إلىّ!».

وبالفعل أتى يوسف ولكن ليس لينقذها من آلامها وإنما ليطعنها للمرة الثانية إذ استدرجها للتوقيع على بعض الأوراق، وأقنعها بالسفر إلى لبنان لكى «تغيِّر هواء وتتخلص من الهموم».

كان يوسف طامعاً فى الإستيلاء على ثروتها الصغيرة، فأشاع هناك أنها مجنونة، وتمكّن من إدخالها مستشفى «العصفورية» بعد أن نجح هو وأقرباؤه من العائلة فى استصدار شهادات طبية مزوّرة بذلك، وبعد إدخالها المستشفى بدأوا تنفيذ الخطوة الثانية إذ أصدروا قراراً بالحجر عليها فى لبنان ثم فى مصر، واستطاعوا بهذا القرار أن يستولوا على أموالها ومجوهراتها ومطبعة أبيها، وأن يبددوا مقتنيات مسكنها فى شارع عدلى فى القاهرة، أما مَىّ فقد عانت كثيراً فى «العصفورية» إذ امتنعت عن الطعام لفترة طويلة لشعورها بالظلم، وحقن الأطباء جسدها بالأنابيب ليبثوا لها المحاليل، بل كانوا يفتحون لها أسنانها بالقوة ليجشروا الطعام فى فمها، وكان هذا هو سبب كرهها الذهاب لطبيب الأسنان فى أواخر أيام حياتها.

ولولا تبنى أمين الريحانى لقضيتها لظلّت مَىّ فى هذه المحنةَ حتى موتها بعد أن تخلّى عنها أصدقاؤهـا ومعارفهـا الذيـن أفنت حياتها فى إسعادهم فلم تجن سوى الجحود والآلام.

وخرجت مَىّ أخيراً من هذه المحنة بعد ثلاث سنوات مريرة، وظهرت للمرة الأولى فى الجامعة الأمريكية فى لبنان، لتلقى محاضرة هناك، وعندما جاءت إلى مصر رتبت محاضرة فى الجامعة الأمريكية فى ١٥ ديسمبر ١٩٣٩، وبدت فيها راجحة العقل، جميلة المظهر، ثم رتب لها وديع فلسطين محاضرة أخرى ألقتها فى ٢٠ يناير ١٩٤١، تحت عنوان «عش فى خطر».

ولكن لم تستطع مَىّ بعد هذه المحنة أن تعود إلى حياتها الطبيعية مرة أخرى، فقد تدهورت صحتها، حتى توفيت فى ٢٩ أكتوبر ١٩٤١م.

يريدون قتلها مرتين

فى الفترة التى احاطت بها الهموم كتبت وصيتها الأخيرة وكأنها تشعر بالمؤامرة التى ستُدبر لها بعد رحيلها فكتبت تقول:

«أحظر على أى أحـد أن يهـين جثتى بـأى طريقـة مـن الطـرق، فليحترمـنى جثـة أولئك الذيـن مزقونـى فـى حياتـى، وليذكـروا أنهـم مثـلى معرضـون للنكبـات والرزايا، وهذه إرادتى، أريد أن تُحترم وأُبارك من يحترمها، واختارت أن تُدفن فى مصر، ذلك البلد الذى أحبته كثيراً، والذى زادتها المحنة التصاقاً وحباً به».

ورغم ذلك نادى بعض المفكرين اللبنانيين بنقل مقبرة مَىّ إلى شحتول فى منطقة كسروان فى لبنان ووجهوا رسائل للمسؤولين المصريين بواسطة السفارة اللبنانية فى القاهرة يطلبون منهم ذلك.

وتصدى لتلك الخطوة الكثير من المثقفين المصريين، وبادرت لذلك الكاتبتان سناء البيسى، وصافيناز كاظم وانضم إليهما معظم الكتاب والمثقفين المصريين.

وعقد المجلس الأعلى للثقافة ندوة فى الذكرى الثالثة عشرة بعد المائة لميلادها بمبادرة من أمينه العام، جابر عصفور كمحاولة لطرح الخلاف والرد على اللغط، واجتمعت الآراء على الإبقاء على مقبرة مَىّ فى مكانها فى مصر القديمة، على ألا تُقلق أو يمس أحد أحجارها أو النباتات المحيطة بها، وذلك احتراماً لوصيتها وحفاظاً على حُرمة الموتى فمى لم تكن لبنانية فقط وإنما هى خليط عربى أصيل. كتبت للعرب ودُفنت فى أرض العرب.



صفية زغلول

ابنه الحسب والنسب الثائرة

- أم المصريين كانت دائما وراء الزعيم
- حاولت أن تكون «ثقيلة» فتجاهلها زوجها وركضت خلفه بخفة.
- نفى الإنجليز زوجها فقادت الإنتفاضة عليهم
- لم تعرف مساحيق التجميل واعتبرت خدمها عائلتها.
- أعادت كلماتها المهذبة الحاسمة سعداً إلى صوابة وأبعدته عن طريق القمار.
- تجاوزت الستين وهو يكتب لها رسائل الغرام.
- أحرقت رسائله خشية وقوعها فى أيدى من لا يقدرون الحب.

قد تكون شخصية رجل محدد طاغية، وتترك آثارها بارزة فى معالم شخصيات الآخرين، وفى سلوكهم، وإذا كان الزعيم الوطنى المصرى سعد زغلول، من أولئك الرجال أصحاب الشخصية النافذة إلى الآخرين، فقد كانت صفية زغلول مثالاً للمقولة الشهيرة «وراء كل رجل عظيم امرأة».

وُلِدَت صفية زغلول سنة ١٨٧٨م، وهى ابنة مصطفى فهمى باشا، رئيس وزراء مصر، مدة تجاوزت ١٥ عاماً، وكان مصطفى فهمى، محافظاً للإسكندرية قبل أن يتولى منصب ناظر (وزير) الأشغال العمومية فى وزارة شريف باشا الثانية، التى شُكلت في شهر يوليو ١٨٧٩م.

وربِّيت صفية، فى بيت ترجع أصوله إلى الأتراك فأمها «أصانيش هانم» من الأتراك، وربتها تربية أرستقراطية، مستفيدة من كونها زوجة رئيس الوزراء وتحت يدها وطوع أمرها الخدم والحشم، وكعادة الأسر الأرستقراطية فى ذلك الوقت، كان المعلمون يحضرون إلى القصر لتعليم صفية، وإخوتها العربية والتركية والإنجليزية والقرآن الكريم، وأيضاً الموسيقى والرسم.

عاشت صفية حياة ترف ودلال، شأن سكان القصور وبلغ من اهتمام والدها بها هى وشقيقاتها، أن اشترى لها «آغا» (عبد خادم) اسمه «فيروز» مكلفاً بخدمتها، والسهر على راحتها، واشترى لشقيقتها «أغوين» وانتقلوا معهما حين تزوجتا، إلى بيت الزوجية.

وكانت صفية فتاة جميلة رقيقة مثقفة، مهذبة، وعندما بلغت عامها الثامن عشر، فوجئت بأحد أبناء الفلاحين يتقدم إلى الباشا طالباً يد ابنته للزواج.

الفلاح

كان الشاب الذى تقدم إلى مصطفى فهمى باشا، طالباً يد ابنته، هو سعد زغلول الفلاح المولود فى يونيو ١٨٨٦م فى قرية «إبيانة» الواقعة على فرع رشيد، والده هو عمدة «ابيانة» إبراهيم زغلول، ومثل جميع أقرانه، التحق سعد بكُتاب القرية، ثم انتقل إلى «دسوق» ليتلقن أصول تجويد القرآن الكريم، على يد المقرئ الشهير فى ذلك الوقت الشيخ «عبد الله عبد العظيم» وأقام هناك فترة حضر بعدها إلى القاهرة، ليتلقى تعليمه فى الأزهر الشريف، ثم احترف المحاماة، وعمل فى سلك القضاء، وعندما كان مستشاراً فى محكمة الاستئناف أدلى برأى قانونى تشريعى مهم للغاية، وكان رئيس المحكمة وقتها فرنسياً يدعى «بوغديك» الذى التفت إلى «سعد» قائلاً: إن هذا الرأى خليق أن يبدر عن «قاسم أمين» أو غيره من حملة الليسانس، ومنذ تلك اللحظة عكف سعد، على دراسة اللغة الفرنسية والقانون، حتى حصل على الليسانس فى ٩ يوليو ١٨٩٧م، وكان عمره وقتذاك ٣٧ سنة.

وكان سعد صديقاً لقاسم أمين، ومقتنعاً بأفكاره عن المرأة دورها فى المجتمع، فأراد لنفسه زوجة، توافقه فى العقل والخلق. وهذا ما وجده فى صفية، ابنه مصطفى فهمى باشا، الذى وافق على زواج ابنته بالفلاح المحامى، فكسر بذلك، تقاليد قديمة فى عائلته ذات الأصول التركية، التى كانت ترفض مصاهرة الفلاحين.

ولم يكن زواج سعد زغلول، بصفية هانم، بالأمر السهل، فقد كان هناك من يريد ألا يتم هذا الزواج وفى مقدمتهم الأميرة نازلى فاضل، التى سعت لدى الخديوى عباس حلمى الثانى، لتمنع هذا الزواج. وأرسلت إلى «أصانيش هانم» زوجة مصطفى فهمى باشا من يخبرها أن العريس فلاح لا يعرف كيف يأكل بالشوكة والسكين، وذهبت إلى الباشا تقول له إن سعداً متزوج من امرأة يخفيها فى قريته.

ولكن سمعة سعد، وأخلاقه واجتهاده فى عمله، كانت مسوغات كفيلة بأن يقبله الباشا زوجاً لابنته، فقد استشف بخبرته وحنكته السياسية الطويلة، أن هذا الشاب يبشر بمستقبل سياسى واعد، وأنه سيكون له شأن كبير فى تاريخ أمته.

وفى يوم الخميس ٦ فبراير ١٨٩٦م، احتفل الشيخ سعد الذى خلع العمامة، وارتدى الطربوش ونزع «الكاكولة» والقفطان ولبس البنطلون يوم ترك دراسة الأزهر، واشتغل بالمحاماة، بزفافه إلى «صفية هانم» التى أصبحت فى تلك الليلة تدعى صفية زغلول، وكان قد وصل إلى منصب قاض فى محكمة الاستئناف، وظل سعد يوم زفافه، فى مكتبه يراجع القضايا التى يحكم فيها ومن مكتبه بحى «غمره» إلى قصر حماه حيث الكوشة، كان هناك سرادق منصوب يتسع لآلاف المدعوين، تضرب أمامه الموسيقى العسكرية. وقد أحيا الحفل المطرب عبده الحامولى.

وتقول صفية زغلول عن تلك الليلة: «ذكرت لى أمى «أصانيش هانم» أن العريس سوف يصحبنى فى عربة حنطور من بيت أبى إلى بيته فى حى «الظاهر» وقالت لى: «عندما تقف العربة أمام بيت العريس، سينزل ليقول لك: «تفضلى» فامتنعى عن النزول، فيقول لك مرة ثانية «تفضلى» فامتنعى أيضاً حتى يطلب منك النزول للمرة الثالثة، واتبعيه إلى داره، وكانت هذه هى التقاليد المتبعة فى العائلات الأرستقراطية الكبيرة.

وأطاعت «صفية» تعليمات أمها، فما إن وقفت العربة ونزل العريس، وقال بصوته الآمر: «تفضلى» حتى تمنعت فى إنتظار ترديده دعوته مرتين أخريين، إلا أنها فوجئت به يتركها، ويمشى إلى داره، فوجدت نفسها تقفز من العربة لتعدو وراءه، ومنذ تلك اللحظة أصبحت «صفية» تجرى خلف زوجها دائماً.

بروتوكول منزلى

يقول الكاتب عباس محمود العقاد، عن علاقة سعد وصفية: كانت صفية فى علاقتها مع سعد، مثل الابنة التى تتعلم من والدها وتطيعه فى أدنى أمور

حياتها، حتى فى ملبسها وزينتها، وتأبى أن يقوم على شوؤنه خادم أو خادمة، فكانت تشرف على أمور بيتها بنفسها، من ترتيب المنزل، إلى طهو الطعام.

ولكن سعادتهما لم تكتمل، فقد حُرما من نعمة الإنجاب، وقد زارا عواصم أوروبا، لكن الأطباء أجمعوا علي أن صفية لن تُنجب.

ولأن صفية أحبت زوجها سعد، فقد رضيت بالقدر الذى حرمها من أن تنجب له البنت أو الولد، ورضى الزوج بقضاء الله، ووجد العوض فى تربية ولدى أخته «رتيبة» قرينة محمد أمين يوسف، وهما التوءم، على ومصطفى أمين، اللذان عاشا معه حتى بلغ عمرهما ١٣ سنة.

كانت صفية زغلول، ربة بيت ممتازة، تتحرك بنشاط غريب بين طوابق البيت، ومع أنها كان لديها عدد من الخدم، إلا أنها لم تكن تتردد أن تمسك بيدها «فوطة» لتمسح «الغبار» أو تحمل فى يدها مكنسة لتنظيف شرفة البيت.

صفية والعائلة

ولم يكن سعد يتدخل فى شؤون الخدم، وكانت زوجته ترفض أن تسميهم خدماً، بل تصر على أن تسميهم العائلة، وقد تعلمت ذلك من سعد الذى كان يقول دائما، إن خدمه هم جزء من عائلته، ويرفض أن يقدم لهم طعاماً يخالف طعامه، بل يصر أن يأكلوا من الطعام الذى يأكله.

وكانت صفية، تكره النساء المتبرجات ولم تضع «البودرة» كما يقول مصطفى أمين على وجهها إلى آخر يوم فى حياتها، حتى إنها لم تضع المساحيق يوم زفافها، لأن سعد قال يوماً إنه يكره البودرة، ويحب الوجه الطبيعى بلا طلاء.

وإذا كان سعد قد رضى بحياة زوجيه غير مثمرة، إلا أنه كان يتمنى الزواج بإحدى الفلاحات، حتى يكون له ولد، ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الفكرة ونذر نفسه للجهاد الوطنى.

وبعد ٢١ سنة من زواجهما، طلبت صفية زغلول الطلاق، ليس لاكتشافها

امرأة أخرى فى حياة زوجها، وإنما بسبب انغماسه فى لعب القمار، وخسارته مبلغ ٣١٠ جنيهات، أخذها من نقودها.

ولكنها كانت امرأة مهذبة تعرف كيف تتحدث إلى زوجها بأدب رغم غضبها من اتجاهه إلى القمار، وأعادت كلماتها المهذبة الحاسمة سعداً إلى صوابه، وأبعدته عن طريق القمار.

ومثلما كانت تغار هى عليه، كان يغار هو أيضاً عليها، فقد غضب غضباً شديداً بسبب هدية تلقتها من طاهر بك اللوزى وهى سلة من ثمار «المانجو» الفاخرة ومعها خطاب منه يبلغها فيه تحياته، ويرجوها قبول الهدية.

ورغم غيرتها كانت صفية تؤكد للجميع أنها سعيدة فى زواجها، وتبذل كل جهدها لإبعاد المعجبات عن سعد، ومنهن الأميرة «شويكار» الزوجة الأولى للملك فؤاد، التى كانت تطارد سعداً باستمرار، وتتردد على «بيت الأمة» تطلب مقابلة صاحبه، وكانت صفية تعتذر لها بأن زوجها مشغول جداً أو نائم أو غير موجود، لكن شويكار كانت لا تيأس، أو تمل الطلب، بينما تقدم صفية لها، الحجة تلو الحجة. فقد كانت تظن أن الإنجليز يدسون الأميرة على سعد، لتشوه سمعته بين الجماهير، كان دفاع صفية الوحيد استقبال شويكار، بأدب بالغ، والتأكيد لها بلباقة، أن زوجها سعيد جداً بزواجه منها ولم يعرف سعد إلى أن رحل، أن الأميرة شويكار، قد طلبت مقابلته أكثر من مائة مرة، وأن صفية، اختلقت لها مئات الأعذار.

وكان الزوج يكتب لزوجته خطاباً غرامياً فى كل مرة يتناول طعامه خارج البيت، واستمر يكتب غراماً لصفية إلى ما بعد الستين، وعندما رحل حرقت هى الخطابات خشية أن تقع فى أيد لا تعرف قيمة الحب الذى كان.

على طريق النضال

تحققت فراسة، مصطفى فهمى باشا، والد صفية، وعلانجم زوج ابنته، فقد تولى وزارة المعارف ثم وزارة العدل، وحصل على «الباشوية»، ولم ينس «الباشا» أنه فلاح ابن فلاح، وأن عليه الدفاع عن تراب وطنه.

وما إن أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ واشتعلت شرارة الحركة الوطنية، حتى نهض كالأسد، مطالباً بحق مصر فى الاستقلال.

وتصاعدت حركة الجهاد الوطنى بقيادة سعد زغلول، وكانت الشرارة التى أشعلت الثورة هى قبض الإنجليز على سعد ورفاقه، فى ٨ مارس ١٩١٩ وهم: سعد زغلول باشا، ومحمد محمود. باشا، وحمد الباسل باشا، وإسماعيل صدقى باشا. وساقتهم إلى ثكنات «قصر النيل» ثم إلى مالطا فى اليوم التالى.

وكانت صفية قد سارت على نهج زوجها، فتزعمت الحركة النسائية فى مصر، وشاركت فى أول تظاهرة نسائية فى القاهرة، عام ١٩١٩ احتجاجاً على أعمال القمع البريطانية، وقرار نفى سعد زغلول، وكانت قد شكلت هيئة وفدية من النساء، تأييداً للمطالب القومية، وكان لتلك الهيئة نفوذ أدبى، ومجهودات شجاعة، أكسبتها ثقة الشعب، ووقفت صفية زغلول، خلف هذه المجهودات التى كانت موضع تقدير الزعيم سعد زغلول.

وليلة القبض على زعيم الأمة، أرادت «أم المصريين» وهو اللقب الذى صارت تعرف به صفية هانم زغلول، النزول معه ومصاحبته فى المعتقل، وألحت فى ذلك إلحاحاً كبيراً، إلا أن سعداً هدأها، وطلب منها البقاء، فبقيت بالغة التأثر.

ولم تكد تشرق شمس التاسع من مارس ١٩١٩م حتى كان نبأ القبض على سعد ورفاقه من أعضاء الوفد قد انتشر فى جميع البلاد.

تظاهرة نسائية

وظلت صفية زغلول رابطة الجأش وعلى اتصال بالتحركات الثورية، تشد من أزر المتظاهرين، حيث أضرب الطلبة وساروا فى تظاهرة كبيرة، وأضرب عمال الترام، وقدم موظفو الحقانية «العدل» احتجاجاً على اعتقال سعد، ورفاقه. وفى ١١ مارس أضرب المحامون عن العمل، وفى ١٣ مارس قُطعت خطوط السكك الحديدية، وأسلاك البرق، والهاتف فى كل أنحاء البلاد، وفى ١٦ مارس شهدت شوارع القاهرة تظاهرة نسائية حاشدة كانت فى مقدمتها رئيس لجنة سيدات الوفد

«هدى شعراوى» وغيرها من عقيلات العائلات هاتفات بحياة سعد ورفاقه، مطالبات بالحرية والاستقلال، مناديات بسقوط الحماية البريطانية، ولم ترهب بنادق الإنجليز المتظاهرات، فوصلن إلى «بيت الأمة» حيث خطبت فيهن «أم المصريين».

أحدثت الثورة تحولاً كبيراً فى شخصية صفية زغلول، التى قال لها سعد: «إننى قررت أن أضع راسى على كفى اليمنى، فقالت له: «وضعْ رأسى على كفّك اليسرى»، وبعد أن قبض الإنجليز على زوجها، تبدّلت القطّة الوديعة، إلى نمرة مفترسة، فصارت السيدة الخجول، امرأة جريئة أصبحت ابنة رئيس الوزراء صديق الإنجليز، ابنه الشعب عدو الإنجليز، وإذا بالزوجة المطيعة، تتحول إلى زعيمة ثائرة.

وكانت صفية تكتب المنشورات الحماسية ضد الإنجليز وتوقعها بإمضائها: «صفية زغلول» واشتعلت المقاومة، وبدأت المعارك بين الشعب والجيش البريطانى فى كل ميدان، وكان أكبر ميدان قتال فى الثورة هو شارع سعد زغلول الذى يقع فى أوله بيت سعد، والذى أطلق عليه الشعب «بيت الأمة».

كانت زوجة الزعيم الثائرة تتابع أخبار التظاهرات، وأنباء المعارك، عندما كان الإنجليز يطلقون رصاصهم في صدور المتظاهرين، أمام بيت الأمة، يحمل الناس القتلى، والجرحى إلى حديقة البيت، وكانت «أم المصريين» تغمض عيون القتلى الشهداء، وتضمد جراح الجرحى، تعاونها الكثيرات من النساء وأصبح من أهم أعمالها فى سنوات الثورة أن تذهب بنفسها فى عربتها، «الحنطور» إلى بيوت الشهداء، تواسى الأمهات وتعزى الزوجات، وتُقَبِّل الأطفال اليتامى.

وفى ١٦ يناير ١٩٢٠ خرجت النساء فى تظاهرة فى العاصمة تأييداً للوفد وقيادته ومنادية بالاستقلال ومعادية للجنة «ملنر»، وفى ٩ مارس ١٩٢٠ فى ذكرى مرور عام على الثورة، أجتمعت النساء فى منزل سعد زغلول، وألهبت صفية حماستهن، وأكدن جميعاً المطالب القومية، ووقوفهن خلف قيادة «زعيم الأمة».

حديث الروح

وعاد سعد من مالطا، لكنه رفض الاعتكاف فى عزبته بعيداً عن القاهرة، فشهدت صفية زغلول اعتقاله، ونفيه إلى جزيرة سيشل، فى ٢٢ ديسمبر ١٩٢١، وظلت متماسكة حتى غادر زوجها البيت، وقالت لمن حولها: «سعد سجين سيشل، لكننى روحه الثانية، وزوجته التى تصون مكانه، وعندما عرض عليها المندوب السامى مصاحبة زوجها، ردت عليه بكبرياء: «سأظل فى القاهرة، وسأبذل كل ما فى وسعى لأكمل عمل زوجى وأنتم تستطيعون أن تنفوه بجسده، لكنكم لن تستطيعوا أن تبعدوا روحه عنا، لأنها تعيش وسوف تظل تعيش بيننا، وفى بيته سأكون سعداً، حتى يعود، لأن الشعب لن يرضى بغيابه، ولن يمكنكم من إبعاده طويلاً، وحتى لو مات سعد، فسيأتى كثيرون غيره، يتقدمون الصفوف، ومن جهتى سوف أفعل كل ما أستطيع لأشغل روح الثورة فى سبيل استقلال مصر».

وأعدت صفية ولجنة الوفد المركزية للسيدات منشوراً تم توزيعه فى كل أنحاء البلاد بعنوان: «نداء حرم الرئيس» جاء فيه: «لئن كان سعد، فى المنفى، فإن هذا النفى لا يهدّ من عزيمته إلا شئ واحد، هو أن يعلم يوما أن الضعف قد اعتراكم، ولو لحظة واحدة».

أم المصريين

ولم تكن صفية زغلول فى الحقيقة، سوى أم لكل المصريين، كانت الأم الروحية للرجال والنساء، وقد شجعت هدى شعراوى أن تكون الرئيسة الفعلية للجنة السيدات، وإن كانت هى ترعى الحركة النسائية وتوجه النساء فى كفاحهن.

وظلت تتابع أحوال سعد باشا وهو فى المنفى وتُبرق إلى السلطات البريطانية مطالبة بالإفراج عنه، وعلى أثر مرضِ الزعيم تم نقله إلى جبل طارق فى ١٦ أغسطس ١٩٢٢م، وفى سبتمبر من نفس العام، سافرت أم المصريين، إلى هناك لتكون إلى جوار زوجها، حتى عادا إلى الوطن.

وعاد «الباشا» ليواصل كفاحه، ومن خلفه وبجواره شريكة العمر، والكفاح صفية هانم، التى قال لها يوماً:

« لقد حُرمنا من النسل، فأصبحت هذه الأمة كلها من أبنائك وأبنائى، فلقبت صفية «أم المصريين»، وفى عام ١٩٢٤ شكل سعد زغلول الوزارة وظل يجاهد حتى بعد أن أصبح رئيساً لمجلس النواب، حتى وهن منه الجسد بعد أن عانى من التهاب فى الأذن وارتفاع فى درجة الحرارة وألم فى الأمعاء. وفى الثالثة ظهراً من يوم الأثنين ٢٣ أغسطس ١٩٢٧، قال سعد لزوجته متمتماً: «أنا رايح . . أنا رايح ، فقالت له صفية: «هل تحب أن أروح معك؟»، فأمسك بيدها هامساً: «لا خليك أنت».

وودعت مصر زعيمها سعد الذى دُفن فى قبر فى حى الإمام الشافعى، ومكثت صفية زغلول، تقطع يومياً هذه المسافة مدة تسع سنوات، إلى أن قرر البرلمان نقل جثمان سعد من قبره فى الإمام الشافعى، إلى ضريحه أمام بيت الأمة. وأقيمت له جنازة شعبية ثانية عام ١٩٣٦، لا تقل ضخامة عن جنازته الأولى عام ١٩٢٧.

وكانت غرفة نوم صفية، تطل على الضريح، وكانت إذا استيقظت من نومها اتجهت أول ما تفتح عينيها إلى نافذتها التى تطل عل الضريح وتقرأ الفاتحة على روح الرجل الذى أحبته منذ رأته لأول مرة. ليلة فرحها، وترتدى ملابسها بعد الظهر، وتذهب إلى الضريح، ،تنثر عليه الزهور، وتقف صامته عشر دقائق، وكأنها تناجى رجلها بصوت لا يسمعه إلا هو.

وظلت ترتدى السواد عشرين عاماً، ورفضت أن تخلعه، وقالت إنها ستخلع السواد يوم يخرج أخر جندى أجنبى من مصر، وفى الثنى من يناير ١٩٤٦ أى بعد وفاة سعد، زوجها بعشرين عاماً، توفيت أم المصريين، ودُفنت فى المقبرة نفسها، وبالقرب من شريك حياتها.



سميرة موسى[1]

الشهيدة الأولى فى جرائم اغتيال العقول العربية

- هل دفعت عالمة الذرة المصرية حياتها ثمنا لرفضها الجنسية الأمريكية؟
- أدرك والدها عبقريتها، فانتقل بها من سنبو إلى القاهرة.
- نبوية موسى أضافت مختبر المدرسة إكراماً لسميرة.
- هددت والدها: الجامعة أو ألقى نفسى من الشباك.
- اكتشفت القدرة الحرارية لبعض الغازات قبل استخدام الأمريكان القنابل الذرية.
- شبهات حول راقية إبراهيم بالمشاركة فى المؤامرة.

المؤامرة على العقل العربى، ليست داخلية فقط، وناجمة عن التخلف العام الذى تعيشه المجتمعات العربية التى تتردى فى مأزق وأزمات اقتصادية وسياسية وإدارية، وتنظيمية كفيلة بوأد أى موهبة أو مقدرة عقلية أو طردها فى حالة «الرأفة». فالمؤامرة، خارجية أيضاً لكنها مغايرة فى الهدف والوسيلة، فهى إما أن تجذب ذلك العقل المميز، لتستفيد منه، أو تتخلص منه حتى لا يستفيد منه غيرها، وهكذا كان الخلاص من أول عالمة ذرة مصرية وعربية.

خمرية اللون، فرعونية التقاطيع، عبقرية مصرية، خرجت من قاع الريف، ظهر نبوغها فى فترة مبكرة من حياتها، لم تكن فتاة عادية، شغفت بالعلم والتجارب، تركت أحلام الفتيات بالفارس راكب الحصان الأبيض، حلمت بالمعمل، طموحها العلمى لم يقف عند حد معين، سارت فى طريق العلم الذى لم تحده حدود، كانت أول عالمة ذرة عربية، أشادت بها المحافل العلمية الأجنبية، أطلق عليها الأنجليز - الذين باعوا فلسطين إلى اليهود - لقب «ميس كورى المصرية». قال عنها أستاذها الذى أشرف على رسالة الدكتوراه: «إن تجارب سميرة موسى سوف تغير وجه الإنسانية إذا وجدت المعونة الكافية».

وتستمر فى أبحاثها عن الأشعاعات الذرية، حيث كانت تحلم بأن تجعل العلاج بالراديوم كالعلاج بالأسبرين، وذاعت شهرتها ووصلت نتائج أبحاثها إلى أمريكا، وكان لابد من دعوتها لزيارة المفاعلات الذرية الأمريكية، وهناك وجدوا أنها تعرف كثيرا وأدركوا مكانتها العلمية، عرضوا عليها الجنسية الأمريكية، رفضت فمصر أولى بأبحاثها، فكانت النهاية، عادت عالمة الذرة، التى عرفت أكثر مما يريد الأمريكان لغيرهم - إلى مصر فى صندوق، كتبوا شهادة وفاتها فى ١٥ أغسطس ١٩٥٢.

أغتالوا الحلم العربى، لتصبح سميرة موسى أول شهيدة فى سباق الصراع العلمى بين العرب واليهود، وأول حلقة فى مسلسل أغتيال العقل العربى.

نشرت جريدة «المصرى» القاهرية فى ١٩ أغسطس ١٩٥٢م الخبر التالى: «قال المتحدث باسم السفارة المصرية فى واشنطن أن الأنسة سميره موسى التى تتلقى العلم فى الولايات المتحدة، قتلت فى حادث سيارة، بعد أن أتمت دراستها فى جامعة أوكريدج فى ولاية تنيس الأمريكية، والمفهوم أنها كانت تقود سيارتها الخاصة عند وقوع الحادث».

الزفاف الأخير

وهبطت بعد أسبوعين.. طائرة أمريكية فى مطار القاهرة، أسرعت سيارة إسعاف لتقف إلى جوار باطن الطائرة، وفتح باب الحقائب، وفى صمت حمل بعض الرجال تابوتا إلى داخل السيارة الحزينة، التى أنطلقت به مسرعة تشق شوارع القاهرة، التى كانت لا تزال تعيش أجواء الأحتفال بثورة ضباط الجيش الذين أطاحوا بالملك فاروق، رغم علامات الفرح، كانت سحابات الحزن تلف بيت العالمة المصرية التى وقع عليها نبأ مصرع ابنتهم وقع الصاعقة، وفى نفس الحجرة التى شهدت أيام صباها وأحلام شبابها، وضعوا التابوت الذى كُفنت فيه الأحلام.

ووسط مشاعر الحزن ونوبات البكاء، أصرت الأم الثكلى أن ترى «حبة القلب» لم تصدق أنها ماتت، كسروا أقفال التابوت، وجدوا بداخلة صندوقا من الرصاص، فتحوه، ووقفوا فى ذهول وخشوع ينظرون إلى أبنتهم، خمرية اللون فرعونية التقاطيع.

كانت سميرة ترقد، وكأنها مازالت نائمة، أو فى إغفاءة سريعة أو فى سنة من النوم، جميلة كعادتها، ترتدى فستانها الشيفون، الأسود، تمسك فى يدها بمنديل حريرى، أظافرها زينت بالطلاء، رائحة العطر تفوح من جسدها، شعرها مصفف بطريقة جميلة، الساعة الذهبية تلمع فى يدها، وسوار آخر جميل يزين رقبتها، كانت كالعروس فى يوم زفافها.

ووسط الذهول والدموع وعلامات الأستفهام كان المشهد الأخير فى حياة سميرة موسى التى دُفنت فى مقبرة الأسرة بالبساتين فى الصندوق البلاتينى الذى جاءت بداخله من أمريكا. ومعها سر عملية إغتيالها التى لم يكشف الستار عن تفاصيلها حتى اليوم.

نبوغ مبكر

وقبل أن نقدم أدلة تورط أمريكا وإسرائيل فى إغتيال أول عالمة ذرة مصْرِية، نذهب إلى القرية التى وُلِدَت فيها «ميس كورى المصرية»، نرسم خطوط حياة هذه العالمة التى تطالبنا كل تفصيلة من تفصيلات حياتها بأن لا نثق فى اليهود أو الأمريكان، فهم وجهان لعملة واحدة، وهى كراهية العرب، ومحاربة تفوقهم العلمى.

كانت المحطة الأولى فى حياة سميرة موسى فى قرية «سنبو الكبرى» مركز زفتى، حيث رأت النور لأول مرة يوم ٣ مارس سنة ١٩١٧م، كانت البنت الرابعة فى ترتيب إخوتها التسعة - سبع بنات وولدان - هم هانم، فتينة، وديعة، سميرة، أحمد، عواطف، فكرية، ماهر، ومسرات.

كان جدها لوالدها أول من تعلم فى القرية وكان أفنديا يرتدى الطربوش، وكان يعمل فى مصلحة الأموال، أما والدها موسى على، فكان مزارعاً ميسور الحال، وبين دروب وحوارى قرية «سنبو الكبرى» وتحت ظلال أشجار الجميز التى تحيط بالترع نشأت سميرة وترعرعت.

ورغم أن والدها كان يتمنى أن تكون صبياً، إلا أن سميرة كان لها مكانة مميزة لدى والدها، فقد كان يرى فيها نباهة وذكاء لا يتوافران فى أى من بناته، ولذلك لم يكن يرفض لها طلباً وأرسلها إلى الكُتاب لتتعلم مبادئ القراءة والحساب، ثم التحقت بمدرسة سنبو الكبرى الأولية.

وأدهشت المدرسين بنبوغها المبكر، فقد كانت تتمتع بذاكرة حافظة ونظرة

ثاقبة، وميل إلى التجريب، مما جعل ناظر المدرسة ومدرسيها يهتمون بها وكانت فى البيت تجلس إلى جوار والدها تقرأ الجريدة التى كان يداوم الأب على قراءتها.

إنطلاقة جديدة

وكانت سميرة فى العاشرة من عمرها عندما مات زعيم الأمة سعد زغلول سنة ١٩٢٧، وراحت الصحف كلها تنعى الزعيم وتعدد مآثره. وقد تأثرت «سميرة موسى» بهذا الحدث وقرأت كل ما كُتب عنه فى الصحف، وفى صباح اليوم التالى فى المدرسة كانت تتحدث عن «سعد زغلول» وكأنها تقرأ من الجريدة، مما جعل ناظر المدرسة يذهب ـ عقب إنتهاء دروس هذا اليوم ـ إلى والد سميرة ويثنى عليها، «ويقول أنها عبقرية» وسيصبح لها شأن كبير» ونصحه أن يذهب بها إلى المدينة، حتى تحظى بالرعاية، وحيث آفاق العلم أكثر إتساعاً.

سمع الأب الواعى المحب للعلم هذه الكلمات وشعر بنشوة كبيرة، وبفخر وزهو قرر السفر بها وبأخواتها إلى القاهرة، لقد أدرك هذا المزارع البسيط بفطرته عبقرية ابنته، قبل أن تدركها هى.

وهذا هو دور الآباء فى رعاية واكتشاف مواهب الأبناء.

كان قرار الوالد يمثل نقلة كبيرة وإنطلاقة جديدة فى حياة ابنته، ترك زراعته، وباع أملاكه، واشترى لوكاندة فى حى «الحسين» وأخرى فى ميدان «العتبة» الذى كان من أهم ميادين القاهرة في ذلك الوقت. هى لوكاندة «وادى النيل» الكائنة فى العقار رقم (١) بميدان العتبة.

الأولى دائما

فى عام ١٩٢٨م غادرت سميرة «قريتها لأول مرة قادمة إلى القاهرة حيث التحقت بمدرسة «قصر الشوق الأبتدائية» لتواصل النبوغ والتفوق، بفضل تشجيع الوالد وحنان الأم، والجو العلمى الذى وجدت نفسها تعيش فيه، حصلت على

الأبتدائية، ثم ألتحقت بمدرسة «بنات الأشراف» التى كانت تديرها رائدة تعليم البنات فى مصر السيدة «نبوية موسى» وهناك تظهر ميولها العلمية بوضوح، فقد أحبت العلوم والتجارب، ولما وجدت المدرسة بدون معمل، ذهبت إلى والدها وطلبت منه أن تنتقل إلى مدرسة حكومية تتوفر فيها المعامل والأجهزة التى يمكن أن تجرى فيها تجاربها.

وعلمت السيدة «نبوية موسى» بهذا الأمر فقررت أن تزود المدرسة بمعمل من أجل الأحتفاظ بهذه الطالبة الموهوبة، التى تفوقت فى دراستها وأصبحت الأولى على مستوى القطر فى امتحان الثقافة العامة. ثم حصلت على المركز الأول أيضاً فى امتحان البكالوريا.

طموح «سميره موسى» كان كبيراً، لم تكن تحده حدود، لم تكتف بما وصلت إليه، قررت أن تلتحق بالجامعة، وبكلية العلوم بالذات، وعندما رفض الأب، هددت بالأنتحار، وقالت: إذا لم أدخل الجامعة، سوف أرمى نفسى من الشباك وطال الجدل والصراع، ولكنها أصرت ولم تتزحزح عن موقفها. والتحقت «سميرة» بالجامعه، ودخلت كلية العلوم، جامعة فؤاد الأول، سنة ١٩٣٥، جاءت إلى الكلية متأخرة بضعة أسابيع، ولكنها كانت الأكثر اهتماماً بالمحاضرات وتحصيل العلم، لم تكن تمل العمل، من المدرج إلى المعمل ومن المعمل إلى المدرج، كانت طالبة ممتازة، مولعة إلى أقصى درجة بالرياضة والطبيعة.

كانت تتعامل مع الزملاء باحترام وطيبة قلب، فقد تعودت على الإخلاص لكل إنسان وما أن تجلس إليها، حتى تحس كأنها تتجاوب مع كل ما يتردد فى نفس محدثها، وإذا أحست أنها من الممكن أن تصنع شيئاً فلن تنتظر طلبا، كانت هادئة، معتزة بنفسها، رزينة، تحب الخدمة العامة، طموحة إلى أبعد الحدود.

موسوعية المعرفة

ولم تكن سميرة أسيرة العلوم والرياضيات فقط، وإنما كانت تحب الثقافة، تقرأ كل شئ، تُطالع كل كتاب يقع تحت يدها، كانت مكتبتها غنية، ثرية بكل أنواع الكتب «مستقبل الثقافة فى مصر» لطه حسين، «رسالة الغفران» لأبى العلاء

المعرى و «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، إضافة إلى روائع الأدب العالمى، وتفسير القرآن، وصحيح البخارى، وغيرها، كانت تقرأ كثيراً، وتفكر كثيراً، تمزج العلم بالفلسفة.

ولم يكن ذلك غريباً على «سميره موسى» وهى التى وجدت زميلاتها بمدرسة «بنات الأشراف» عاجزات عن استيعاب مادة الجبر، فقامت بتأليف كتاب بعنوان «الجبر الحديث» طبعه والدها على نفقته الخاصة، ووزعته بالمجان على زميلاتها، حتى يستوعبن مادة الجبر.

هكذا كانت «سميرة موسى» تتنقل بين العلوم والمعارف الأخرى، تقرأ كتب فى العلوم، عن مدام كورى، وعن نسبية أينشتين، وقرأت لتولوستوى، وطه حسين، وجان جاك روسو.

كانت مغرمة بالبحث العلمى الذى استدرجها إلى دراسة الطبيعة الذرية التى استولت على كل تفكيرها، حيث كانت تريد أن تكون الذرة فى متناول الجميع من أجل السلام ومصلحة الشعوب.

وقبل أن يمضى عام ١٩٣٩، كانت «سميرة موسى» قد حصلت على بكالوريوس العلوم فى الطبيعة بامتياز مع مرتبة الشرف.

معركة كلية العلوم

وكان من حقها أن تُعيَّن معيدة بالكلية، ولكن إدارة الجامعة رفضت، لأن العادة فى ذلك الوقت لم تكن قد جرت بتعيين معيدات، ولكن «سميرة» لم تسكت، وطالبت بحقها، كان عميد الكلية فى ذلك الوقت هو الدكتور العالم «على مشرفة» الذى ساند قضيتها، لإيمانه بنبوغها وتفوقها، وما يمكن أن تضيفه إلى رصيد مصر العلمى.

وقف الرجل بجانبها وأخذ يسعى ويقنع رؤساء، لم يكن من السهل إقناعهم بأن الوقت قد حان لتقف فتاة لتدرس فى الجامعة.

وبلغ من موقفه المساند لسميرة موسى أن هدد باستقالته من الجامعة إذا لم تعُين.

انتصرت سميرة، وصدر القرار بتعيينها كمعيدة بكلية العلوم، بجامعة فؤاد الأول، لتكون أول معيدة بالجامعة، ثم رشحتها الجامعة للسفر إلى إنجلترا للحصول على الماجستير ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية، حال دون إتمام السفر، ولم ينل ذلك من عزيمتها فواصلت الدراسة والبحث فى المعامل، لتحصل على الماجستير عام ١٩٤٢ فى «التوصيل الحرارى للغازات».

وكان موضوع الماجستير لافتا للنظر خاصة عندما أشارت إلى قدرة بعض الغازات على تأثير حرارى قاتل، وإن هناك غازات إذا ما تم تكثيف ذراتها بشدة، قد تنفجر وتحرق مدينة بكاملها.

وجاءت الأحداث لتثبت ما أشارت إليه «سميرة موسى» حيث قصفت أمريكا هيروشيما ونجازاكى بالقنبلة الذرية.

سميرة وأبحاث الذرة

والعلاقة وثيقة بين موضوع رسالة «سميرة موسى» وبين فكرة القنبلة الذرية، وإن كان البعض يرى عكس ذلك، وتتضح هذه الحقيقة من الشهادات والآراء التى قالها الأساتذة الإنجليز بعد الأبحاث التى أجرتها العالمة المصرية هناك، عندما سافرت فى بعثة دراسية إلى إنجلترا فى يناير سنة ١٩٤٧ للحصول على الدكتوراة فى موضوع «خصائص إمتصاص المواد لأشعة X»، ونظرا لاجتهادها وتفوقها العلمى أنهت سميرة الدكتوراة فى سبعة عشر شهراً بدلاً من ثلاث سنوات، فقد حصلت عليها فى ٢٢ سبتمبر ١٩٤٨.

ولأن هدفها لم يكن فقط مجرد الحصول على درجة الدكتوراة، بقدر ما هو التوصل إلى نتائج علمية مهمة تفيد بلدها، فقد أصرت سميرة على البقاء إلى حين إنتهاء مدة المنحة الرسمية، ولم تضيع وقتها، لزمت المعامل، تُجرى التجارب فى معامل الجامعة التى شهدت من قبل تجارب «ميس كورى».

وقد وصلت فى تجاربها وأبحاثها إلى معادلة خطيرة تساعد فى تفتيت ذرات المعادن الرخيصة والمنتشرة فى كل بقاع الأرض، مثل النحاس، مما يتيح أمتلاك الدول الصغيرة للقنبلة الذرية.

ولم تكن عيون اليهود والأمريكان بعيدة عن هذه العالمة المصرية التى حققت هذا التقدم العلمى فى أبحاث الذرة، وبالفعل وصلتها دعوة لزيارة معامل الذرة الأمريكية، ولكن أحد أساتذتها، نصحها بعدم تلبية الدعوة والعودة إلى مصر، وربما كان يعرف هذا الأستاذ ما يرمى إليه الأمريكان من وراء هذه الدعوة، خاصة وأن انجلترا كانت مجال خصب لنشاط الجمعيات اليهودية الموالية لإسرائيل، ومن الطبيعى أن تكون أبحاث سميرة موسى قد لفتت انتباههم، ولما لا، وقد كتب أحد أساتذتها الإنجليز فى الصحف يقول عنها: «إن تجارب سميرة موسى قد تغير وجه الإنسانية، لو وجدت المعونة الكافية».

ومنذ هذه اللحظة أصبحت سميرة موسى تحت ميكروسكوب اليهود والمخابرات الأمريكية، خاصة بعد فضيحة عالم الذرة الأمريكى «روتنبرج» الذى نقل بعض الأسرار النووية إلى الاتحاد السوفيتى.

الذرة من أجل السلام

عادت الدكتورة سميرة موسى إلى مصر، تحلم بالتجارب والدراسة العلمية، ومواصلة الأبحاث، ولكن معامل كلية العلوم كانت بدائية، تحتاج إلى تجهيزات حديثة، كتبت إلى إدارة الجامعة، ولكن دون جدوى، وقادت حملة لتجمع التبرعات من أجل هذا الغرض، ولكنها لم تسفر عن شئ، طموحها جعلها لا تستسلم لليأس رغم أنهم أسندوا إليها تدريس مادة البصريات البعيدة عن تخصصها، وتطوعت للعمل فى قصر العينى لعلاج مرضى السرطان بالإشعاع، وكانت تطوف بين الأسِرّة كالملاك الأبيض، أرادت أن تجعل العلاج بالراديوم كالعلاج بالإسبرين.

وتبنت الدعوة إلى مهرجان علمى عالمى يُقام فى كلية العلوم تحت شعار «الذرة

من أجل السلام»، حضره عدد كبير من علماء العالم عام ١٩٥١، ونجح المؤتمر نجاحًا باهرًا، وخرج بتوصية لتكوين «لجنة الوقاية من القنبلة الذرية» كانت الدكتورة سميرة عضواً نشطًا فيها.

ولفت نشاط الدكتورة «سميرة» فى مجال الذرة، وأبحاثها الهادفة إلى التوصل إلى تصنيع هذا السلاح النووى من مواد ومعادن رخيصة، أنظار العالم إليها وإلى ما يمكن أن تصل إليه من خلال أبحاثها: ونتائج تطبيقاتها، التى يمكن أن تخل بالمعادلة الدولية فى الصراع النووى. فكان لابد من العمل على احتوائها، وضمها إلى صفوة علماء الذرة الأمريكيين، حتى تنفرد أمريكا بالسبق فى هذا الميدان.

بداية المؤامرة

وتم وضع الخطة بإحكام، كانت «سميرة موسى» طموحة، تريد أن ترى المعامل الأمريكية، وتستفيد من تجاربهم، حتى تحقق حلمها فى أن يكون فى مصر معمل ذرى، يمكنها من تنفيذ أبحاثها، وهم يعرفون ذلك جيدًا، فى أوائل عام ١٩٥٢، وبدون سابق موعد «تلقت د. سميرة» دعوة من «برنامج فولبرايت الذرى»، لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية، فى إطار برنامج التبادل الثقافى بين أساتذة الجامعات المصرية والأمريكية. حيث تقرر أن تتابع سميرة» أبحاثها فى جامعة سان لويس بولاية واشنطن، وخلال زياراتها للمعامل ومراكز الأبحاث الذرية الأمريكية، ومنها معهد أوكريدج للدراسات الذرية، ومن خلال أحاديثها مع الخبراء هناك، تبين لهم خطورة أفكارها وأبحاثها بشأن الاستخدام السلمى للأبحاث الذرية، وضرورة أن تقوم كل دول العالم بخوض هذا المجال. مما يمثل خطرًا على مصالح أمريكا.

ومن خلال جولاتها ودراساتها فى أمريكا، بدأت العالمة المصرية فى إعداد التجهيزات وشراء المعدات اللازمة لإقامة أحدث معمل ذرى فى جامعة فؤاد الأول. وقد أشارت الصحف الأمريكية إلى ذلك، كما جاء فى صحيفة

«Theknoxville» الصادرة يوم الأحد ٣ مارس ١٩٥٢. والتى جاء فيها: «أن د. سميرة موسى» وهى أول مصرى يدرس فى أوكريدج - سوف تؤسس أول معمل من نوعه في الشرق الأوسط، باستثناء إسرائيل ولبنان، وأنها إضافة إلى خبراتها وتجاربها ستعود إلى مصر بأحدث التجهيزات لتأسيس هذا المعمل الذرى».

محاولات الإحتواء

من أجل هذا كان لابد من احتواء «سميرة موسى» بكل طريقة ممكنة، وبمختلف الإغراءات، بدأت تصلها الدعوات لزيارة مراكز الأبحاث المتقدمة فى انجلترا وأمريكا، نظموا لها العديد من الزيارات، أملاً فى تشجيعها على الهجرة، عندما تقارن بين التفاوت المذهل فى الحياة والإمكانات المادية بين مجتمعها وهذه المجتمعات المتقدمة، ذات المعامل المتطورة ورواتب العلماء المرتفعة، مقارنة بين ظروف العلماء والامكانات ولكن كل ذلك لم يزدها إلا إصرارًا على العودة إلى مصر بمعمل وأجهزة حديثة تواصل من خلالها أبحاثها الذرية، وعرضوا عليها الجنسية الأمريكية، لكنها اعتذرت فى اعتزاز فهى تحمل جنسية وطن غالى يسمى مصر.

التصفية

وعندما وجدوا أنه لاجدوى من محاولات الإحتواء، كان القرار بتصفية عالمة الذرة المصرية «سميرة موسى». وكان الموعد والمكان المحدد لتنفيذ المؤامرة طريق ولاية كاليفورنيا الوعر فى المسالك الجبلية، ففى يوم ١٥ أغسطس ١٩٥٢، وُجِهَت الدعوة إلى الدكتورة سميرة موسى لزيارة بعض المعامل فى كاليفورنيا، بصحبة سائق هندى الجنسية، وكان مقررًا أن تسافر بالطائرة، ولكنهم أخبروها أنه لا توجد أماكن، ولابد من السفر بالسيارة، ركبت السيارة وهى فى قمة الطموح والشوق لرؤية هذه المعامل الحديثة، واثناء سيرها على منحنى جبل، صدمتها سيارة كبيرة بعنف من الخلف، لتسقط إلى الهاوية، ولتسكت سميره موسى إلى الأبد، وتذهب معها ابحاثها وتجاربها الذرية إلى القبر، ويتخلص اليهود والأمريكان من هذا القلق الذى أحدثته تلك العالمة المصرية بأبحاثها.

والغريب فى الأمر أن الشرطة الأمريكية لم تجد سوى جثه سميره موسى، أما السائق الذى كان بصحبتها فلم يجدوا له أثر، وعندما بحثوا عن اسمه، وجدوا أنه كان مسجلا باسم مستعار.

مع سبق الإصرار والترصد

عادت العالمة المصرية إلى وطنها لا لتطبق أبحاثها، وتنشئ المعمل الذرى الذى حلمت به، ولكن لتستقر فى قبر أسرتها بالبساتين، جاءت إلى الوطن جثة محُنطة فى تابوت معدنى.

ورغم أن المسئولين فى مصر لم يفكروا آنذاك فى إجراء أى تحقيق فى سبب وفاتها الغامضة فى أمريكا، ربما لانشغال البلاد وقتها بأحداث ثورة ٢٣ يوليو وربما لأن أساليب الموساد فى تصفية علماء العالم الثالث لم تكن قد عُرفت بعد، فإن الشواهد والأدلة تؤكد أن سميرة موسى قُتلت عمداً مع سبق الإصرار والترصد. وطبقًا لمخطط وسيناريو تم كتابته وتنفيذه بدقة وإحكام.

وهذا ما يؤكده أقارب عالمة الذرة المصرية، سواء فى قريتها «سنبو الكبرى» حيث زرنا القرية ورأينا مكان بيتها القديم والكُتاب والمدرسة التى تعلمت بها، أو فى القاهرة حيث تقيم شقيقتها فكرية موسى، تقول شقيقتها فكرية: «إن ما يؤكد أن الدكتورة سميرة أُغتيلت هو أننا عندما تسلمنا جثتها من المطار، وجدناها فى تابوت من البلاتين، بداخلة تابوت زجاجى، وُضعَتّ فيه بكامل أناقتها وزينتها، وكان شعرها مصففًا بعناية، ولا يوجد بجسدها أى آثار لأى حادث، ولا حتى خدش بسيط».

ويميل معظم من كتب عن سميرة موسى إلى فكرة الاغتيال؛ يؤكد الكاتب الصحفى عادل حمودة ذلك بقولة: «أنهم طلبوا منها فى الولايات المتحدة والحوا عليها أن تبقى، وأن يمنحوها الجنسية الأمريكية، ولكنها رفضتْ، وأصرت على العودة إلى أرض الوطن، وصدر قرار سرى بألا تعود، وإذا أصرت على العودة، فلتعد جثة هامدة فى تابوت. وكانت «سميرة موسى» أولى الضحايا فى مسلسل

دموى شرس، راح ضحيته ١٤٦ عالم ذرة فى دول العالم الثالث، فى الفترة من عام ١٩٥٩ وحتى ١٩٩٨م».

وهذا ما يؤكده أيضا الكاتب الصحفى جميل عارف استناداً إلى ما قاله المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية المصرى فيما بعد، والذى كان وقت وفاتها مستشاراً ثقافيا لمصر فى واشنطن، حيث قال أن هناك قوة خفية وراء عملية إغتيال سميرة موسى.

ويتهم الكاتب عبد الله بلال فى كتابة «اغتيال العقل العربى» الممثلة اليهودية راقية إبراهيم انها لها علاقة بمصرع سميره موسى، حيث كانت راقية من عملاء الموساد، وكانت فى لندن فى نفس الفترة التى كانت «سميرة» تدرس فيها هناك، وانها نقلت ملخص أبحاثها إلى اليهود، كما أنها كانت فى امريكا كعضو فى الوفد الإعلامى الإسرائيلى بالأمم المتحدة فى نفس توقيت مصرع سميرة موسى. ويرى بلال أن الموساد اغتال سميره موسى كما اغتال د. يحيى المشد، ود جمال حمدان، ود. سعيد سيد بدر، ود. نبيل البلقينى، ود. سلوى حبيب.

وإن كانت جريمة قتل الدكتورة «سميرة موسى» قد قُيدت سنة ١٩٥٢ ضد مجهول، فمن حقها علينا أن نطالب بفتح ملف اغتيالها وبمحاسبة قاتليها مهما يكونوا، سواء أكانوا من الموساد الإسرائيلى، أم من الأمريكان، ولابد أن تتحرك الدبلوماسية المصرية بكل ما تملك لفتح هذا الملف الذى أُغلق منذ عام ١٩٥٢، حتى لا تمضى اسرائيل فى تنفيذ مخططاتها فى أغتيال علمائنا دون أى عقاب.

أساتذة «سميرة موسى»

على قدر ما يتوفر للفرد من مناخ وجو يشجع على العلم ويدفع إليه، بقدر ما يكون تفوقه ونبوغه، وفى حياة «سميرة موسى» بعض أصحاب الفضل، الذين أناروا لها طريق العلم، وهيأوا لها سبيل التفوق، لتظهر عبقريتها ونبوغها.

* يأتى فى مقدمتهم، والدها الحاج موسى على، ذلك المزارع المحب للقراءة، صاحب الاتصالات بالسياسيين من أمثال اسماعيل صدقى، كان والد سميرة

موسى، وطنيًا بكل معنى الكلمة، واعيًا بكل ما يدور حوله من أحداث بلده، عندما نصحه ناظر مدرسة «سنبو الكبرى» بالاهتمام بابنته الموهوبة، سارع بالانتقال إلى القاهرة ليوفر لها أجواء العلم، والحقها بمدرسة «قصر الشوق الابتدائية» ثم بمدرسة «بنات الأشراف» وعندما ألَّفت وهى بالسنة الأولى الثانوية كتاب «الجبر الحديث» طبع منه ٣٠٠ نسخة على نفقته، ويدل ذلك على مدى إيمانه بعبقريه ابنته ووقوفه إلى جانبها بكل ما يملك، ثم وقف بجوارها وأعطاها الثقة بنفسها عندما التحقت بكلية العلوم، وعند سفرها إلى انجلترا وأمريكا، فقد كان صاحب نظرة تقدمية، لا تتوفر فى بعض رجال القرن الواحد والعشرين الذين يمنعون بناتهم من السفر للدراسة.

بل اشترى لها قطعة أرض بالهرم لتقيم عليها معملاً خاصًا بها بعد عودتها من أمريكا. ولكنها لم تعد إلا جثه فى تابوت.

* ومن اساتذتها أيضا «نبوية موسى» رائدة تعليم البنات فى مصر والكاتبة الصحفية المناضلة، التى ربت التلميذات والمدرسات على الخلق القويم، وخاضت الكثير من المعارك حتى تتبوأ المصريات مكانهن اللائق، وقد أقامت معملاً بمدرستها حتى لا تتركها التلميذة الموهوبة سميرة موسى. وظلت تشجعها حتى التحقت بكلية العلوم.

* ومن الذين لعبوا دورًا كبيرًا فى مسيرتها العلمية العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة، الذى حصل على دكتوراة العلوم من جامعة لندن عام ١٩٢٤. فكان أول عالم عربى يحصل على هذه الدرجة العلمية، وعمره لا يتجاوز ٢٦ سنة، وكان أول عميد مصرى بكلية العلوم جامعة فؤد الأول، وظل فى هذا المنصب ١٤ عامًا وقد قال عنه البرت أينشتين: «لقد كان مشرفة رائعًا، وكنت أتابع أبحاثه فى الذرة بكل ثقة، لأنه كان من أعظم علماء الفيزياء.

وقد وجدت سميرة موسى كل الرعاية والتشجيع العلمى من أستاذها الذى كان له الفضل فى تعيينها معيدة بكلية العلوم، وهدد باستقالته إذا لم تُعين.

كلية العلوم تتجهل سميرة موسى

رغم كل ما قدمته الدكتورة «سميرة مُوسى» من جهد، وبحث علمى، فإنها لم تلق التقدير الذى تستحقه عالمة كبيرة رائدة مثلها، وإن كانت مصر قد كرمتها عندما منح الرئيس المصرى الراحل أنور السادات اسمها وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى تقديراً لخدماتها الجليلة، وكأول مصرية تحصل على درجة الدكتوراة فى الطبيعة الإشعاعية، وذلك عام ١٩٨١م. إلا أن كلية العلوم التى كانت سميرة موسى عضو هيئة التدريس بها، فهى لم تتذكرها فى أية مناسبة، ولم تقم بتكريمها حتى الآن، ولو بإطلاق اسمها على أحد المدرجات بالكلية، أو حتى بتخصيص جائزة علمية بإسمها.

زملاء سميرة موسى

تخرجت سميرة موسى فى كلية العلوم عام ١٩٣٩م، وتخرج معها فى نفس العام كل من: إبراهيم أدهم كامل، إبراهيم الدسوقى، إبراهيم لبيب إبراهيم، أحمد عبد الغفور طه، أحمد مصطفى أحمد، أنسى جرجس فهمى، أنيس صليب سمعان، بهيج قلادة باسيليوس، جرتوود لبيب نسيم، جمال الدين فتحى عابدين، حسن حسن المملوك، حسنى محمد يوسف، رمسيس سليمان ميخائيل، روزين داود عبد السيد، رياض عبد المجيد حجازى، صلاح الدين سعيد الوقاد، عبد العزيز على موسى، عبد الله محمد عبد الله الكاتب، عبد المنعم أحمد كامل، فؤاد جورجى زكى، كمال الدين على الشريف، محمد أحمد أبوريا، محمد جمال الدين نوح، مفيد دوس كيرلس، منير جندى، ميلاد يسى جرجس، نعمت محمد على، نوال الإنتصار صالح زكى، وفيه محمد عسكر.

ملكة جمال

لم تكن «سميرة موسى» مجرد عالمة، أو راهبة فى محراب العلم، وانما كانت أديبة، صاحبة مواهب متعددة، كانت تعزف على العود، وتكتب النوت الموسيقية، قارئة لكل أنواع المعارف، تهتم بأناقتها، ترتدى أحدث الموديلات

العالمية، تهوى الحياكة والتطريز، وكانت حريصة على تدوين مذكراتها يومًا بيوم.

من مذكراتها كتبت تقول: «تمنيت أن أكون ملكة جمال يزين هالتى تاج من نور، وأحكم على عرش القلوب.. تمنيت أن أكون أميرة جميلة، زهرة عطرة، وتمنيت أن أكون أدبية مشهورة».

وإن كان اساتذتها قد دخلوا عقلها بتوجيهاتهم وتشجيعهم، فإن قلبها كان موصدًا دون الرجال، وممنوعًا عليهم، كانت تقول: «أنا تزوجت العلم، ولا يوجد رجل ينافس العلم عندى».

نعم، كان فى أعماق هذه العالمة العبقرية أشياء أخرى غير نظريات الذرة والمعادلات العلمية المعقدة، كانت فى أعماقها إمرأة نادرة من نوع خاص.



قائمة المراجع

أولا: المؤلفات العربية والمترجمة:

١- أحمد حسين الطماوى: «ليلة باسمة فى حياة مَىّ» دار الفرجانى، القاهرة بدون تاريخ.

٢- أحمد رجائى: «١٠٠٠ شخصية نسائية»، دار التحرير ـ القاهرة ـ ٢٠٠٠م.

٣- د. إسماعيل إبراهيم: «صحفيات ثائرات»، الدار المصرية اللبنانية. القاهرة، الطبعة الأولى ـ ١٩٩٧م.

٤- أشرف توفيق: «حريم فى حياة الزعيم سعد زغلول»، مركز الراية للنشر والإعلام ـ القاهرة ـ ٢٠٠٠م.

٥- أنور الجندى: «من أعلام الحرية»، سلسلة إقرأ، دار المعارف المصرية، القاهرة ١٩٦٤م.

٦- جورجى زيدان: «بناة النهضة العربية»، دار الهلال ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

٧- خالد محمد غازى: «جنون امرأة ـ مَىّ زيادة»، دار النهار، القاهرة ـ ١٩٩٤م.

٨- رجاء النقاش: «أبو القاسم الشابى ـ شاعر الحب والثورة»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م.

٩- زكى فهمى: «صفوة العصر فى تاريخ رسوم مشاهير رجال مصر»، مكتبة مدبولى، القاهرة ـ ١٩٩٥م.

١٠- د. سمير محمد طه: «أحمد عرابى ودوره فى الحياة السياسية المصرية» الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ ١٩٨٦م.

١١- د. شوقى ضيف: «مع العقاد»، سلسلة إقرأ، دار المعارف المصرية، القاهرة ١٩٦٤م.

١٢- صبرى أبو المجد: «فكرى أباظة»، دار التعاون، القاهرة ـ ١٩٨٧م.

١٣- صلاح الإمام: «حدث فى مثل هذا اليوم»، مكتبة مدبولى الصغير، القاهرة ـ ١٩٩٢م.

١٤- صلاح عبد الصبور: «قصة الضمير المصرى الحديث»، كتاب الإذاعة والتليفزيون، القاهرة ـ ١٩٧٢م.

١٥- عباس محمود العقاد: «سعد زغلول زعيم الثورة»، نهضة مصر، القاهرة ـ ١٩٩٤م.

١٦- عباس محمود العقاد: «رجال عرفتهم»، نهضة مصر، القاهرة ـ ١٩٩٢م.

١٧- عبد الرحمن الرافعى: «تاريخ مصر القومى ـ ١٩١٤ : ١٩٢١»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ ١٩٩٩م.

١٨- عبد العزيز صادق: «زيارة إلى الماضى»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ ١٩٩٣م.

١٩- على طنطاوى: «رجال من التاريخ»، دار الفكر، دمشق ـ سورية ـ ١٩٨٥.

٢٠- فاطمة اليوسف: «ذكريات»، مؤسسة روز اليوسف، القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٦م.

٢١- فتحى رضوان: «عصور ورجال»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ـ بدون تاريخ.

٢٢- فتحى رضوان: «طلعت حرب، بحث فى العظمة»، دار الكتاب العربى، القاهرة ـ ١٩٧٠م.

٢٣- لمعى المطيعى: «هؤلاء الرجال من مصر» الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ ١٩٩٣.

٢٤- د. مارجو بدران، ترجمة د. على بدران، «رائدات الحركة النسوية المصرية والإسلام والوطن»، المطابع لإميرية ـ القاهرة ٢٠٠١.

٢٥- د. محمد الجوادى: «الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ـ تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم ١٩٥٢-١٩٩٧»، دار الشروق، القاهرة ـ ١٩٩٩م.

٢٦- محمد السيد شوشة: «أغانى بيرم التونسى»، دار أخبار اليوم، القاهرة ـ ١٩٨٨م.

٢٧- د. محمد حسين هيكل: «تراجم مصرية وعربية»، دار المعارف، القاهرة ـ ١٩٨٠م.

٢٨- محمد رفعت المحامى: «أعلام فى تاريخ وادى النيل»، دار الكتاب العربى، القاهرة ـ ١٩٦٧م.

٢٩- محمد سيد كيلانى: «طه حسين، الشاعر الكاتب»، دار الفرجانى، القاهرة ـ بدون تاريخ.

٣٠- محمد صبيح: «بطل لاننساه، عزيز المصرى وعصره» المكتب المصرى الحديث، القاهرة ـ بدون تاريخ.

٣١- محمد عبد الحميد: «أبو الثائرين، الفريق عزيز المصرى»، دار أخبار اليوم، القاهرة ـ ١٩٩٢م.

٣٢- د. محمد عمارة: «قاسم أمين، تحرير المرأة والتمدن الإسلامى»، دار الوحدة ـ ١٩٨٥م.

٣٣- د. محمد مصطفى سلام وإبراهيم الجمل: «أجمل ما شدت به أم كلثوم»، نهضة مصر، القاهرة ٢٠٠٢م.

٣٤- محمد لطفى جمعة: «قطرة من مداد الأعلام المتعاصرين والأنداد»، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.

٣٥- منيره ثابت: «ثورة فى البرج العاجى»، دار المعارف، القاهرة - ١٩٤٦م.

٣٦- د. ناصر الدين سعيدونى: «عصر الأمير عبد القادر الجزائرى»، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى، الكويت، ٢٠٠٠م.

٣٧- د. نعمات أحمد فؤاد، «أحمد رامى، قصة شاعر وأغنية»، دار المعارف، القاهرة - ١٩٨٣م.

٣٨- وكالة أنباء الشرق الأوسط: «موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين»، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٦م.

ثانيا: كتب أجنبية:

39- Cynthia Nelson: Doria Shahik, Eggptian Feminist, the American University in cairo Press, 1996.

ثالثا دوريات:

٤٠- مجلة الهلال عدد أكتوبر ١٩٥٧ «ذكرى ٢٥ عامًا لأمير الشعراء».

٤١- مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٦٦ «عدد خاص طه حسين».

المحتويات

هذا الكتاب

التاريخ لا يصنعه إلا العظماء ، الذين يسطرون صفحات المجد والفخار بالدم والجهد والعرق . وتاريخ أمتنا العربية غنى بأمثال هؤلاء العظماء من الرجال والنساء ، الذين قدموا الكثير لشعوبهم ، وأناروا للأجيال دروب الحرية والكرامة .

من هؤلاء رجال كتبوا بشجاعتهم صفحات خالدة فى سجل الجهاد والكفاح ، عرضوا حياتهم للخطر ، دفاعًا عن الأرض والوطن ، رفعوا راية الحرية فى وجه الحاكم المستبد والمستعمر الغاشم . وحركوا بأفكارهم حياة الفكر المصرى والعربى الراكدة ، وأخرجوها من أسر التقليد إلى رحابة الحركة والتحديث والتفكير فى الغد ، وأناروا الطريق أمام دعاة الإصلاح للسير قُدمًا نحو استعادة المجد الضائع للحضارة الإسلامية .

وفى ساحة المعارك الفكرية ، كان للمرأة المصرية والعربية صولات وجولات ، أطلقت خلالها رصاصات فكر مستنير ، بددت أستار الجهل التى حاولت حرمانها من حقوقها .

وفى ظل هذه الظروف المأساوية التى تعيشها أمتنا العربية والإسلامية المهددة فى أسباب وجودها وصميم كيانها ، بين عدو خارجى غاشم جاء بصليبية جديدة مستهدفًا الإسلام ، وبين عدو داخلى جاهل بتاريخ أمته وأمجادها يدعو لثقافة العدو بين أبناء أمته . تأتى أهمية هذا الكتاب الذى يجمع تلك الكوكبة من الرجال والنساء الذين صنعوا التاريخ العربى والإسلامى ، بهدف إلقاء الضوء على الجهد والفكر اللذين صاغتهما هذه الشخصيات ، وما قدمته من أجل أن تنعم الأجيال التالية بالحرية والاستقلال والحياة فى وطن آمن ، ينعم بالفكر الحر والرأى المستنير .

الناشر

